محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي

الشعر ودوره في الحياة

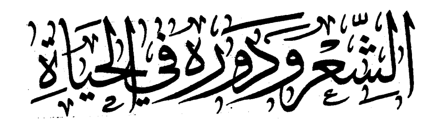
كلاسيكيون

(نقد ودراسة)

المجلد الأول

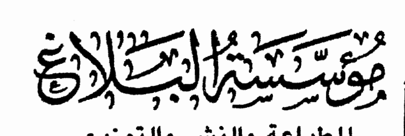


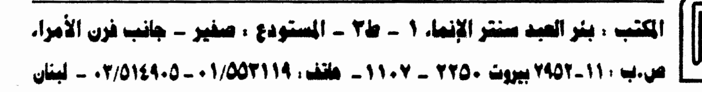
مؤسسة البلاغ


الشعر ودوره في الحياة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



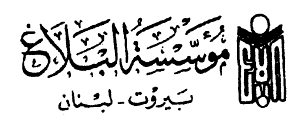

المكتب : بئر العبد سنتر الإنماء ١ - ط٣ - المستودع : صفير - جانب فرن الأمراء
ص.ب : ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ - ١١٠٧ - هاتف : ٠١/٥٥٣١١٩ - ٠٢/٥١٤٩٠٥ - لبنان

الشعر ودوره في الحياة

الجزء الأول

كلاسيكيون
(نقد ودراسة)

محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي


مؤسسة البلاغ
بيروت - لبنان



مُحَمَّد سعيد ، الشَّيخ عَلِيٌّ الْخُنيزيُّ

الإهداء

إلى عشّاق الفكر ، إلى الّذين أسرجوا شموعهم في

محاريب التّاريخ

أُهديكم هذا الكتاب

" المؤلِّف "

محمَّد سعيد الشَّيخ علي الخنيزي

١٤١٩/١١/٢٥هـ

١٩٩٩/٠٣/١٣م



... أودُّأن أرسـمَ حرفًا في كلمةٍ تعبيريةٍ شكرًا لِمَـنْ راجـع الأخطاء الإملائية لهذا الكتاب { الشِّعْرِ ودورهِ في الحياة } ، فقـد راجـع الجزء الأوَّل الأديب / السَّيِّد زكـي الشَّـاعر ، وسـبطي الدُّكتور / حسام سعيد سلمان عبد الهادي ، وراجع الجـزء الثاني والثالث ابنُ العم : الأديـب الشَّـيخ / زكـي الشَّـيخ عبـد الكريـم الـخنيـزي ، كمـا راجـع الـجـزء الرابـــع الابـنُ / أديـب الخنيزي .. فلهم الشكر مني ، كما أسجِّلُ تاريخ مجـيء السـكرتير السَّيِّد / عبدالعزيز محمَّد عبدالعزيـــز أحمد .. في يوم الســبت الموافـق واحـد مـن شـهر شعبـان ، عـــام واحـد وعشـرين بعـد الأربعمائة والألف هجري .. الـموافق يوم الثـامن والعشرين مـن شهـر أكتوبر ، عام ألفين ميلادي ، فقمتُ معـهُ بمراجعـة الأجـزاء الثلاثة لوضـع اللَّمســات الأخـيرة عليـها ، كمـا كتبـتُ وأمليـتُ عليـه الجزء الرابـع .. فأسـألُ الله لـي ولـهُ التَّوفيـق وحُسـن الختـام ، ومزيـدًا مـن الـدَّوام والنَّشـاط في تصديـر أمثـالِ هـذه الأسفار .. ولهُ شكري .

مدخل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الحمد لله فاطر السَّماوات والأرض ، الَّذي سخَّر لنا كلَّ شيءٍ ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين من الأوَّلين والآخرين ، وآله الطَّيِّبين الطَّاهرين ، الَّذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهَّرهم تطهيرًا) .

كانت تجول فِيْ خاطري خاطرةٌ مُنْذُ عامين ، تُريدُ أنْ تقفز ، لتعيش تحت ضياء الشَّمس ، ولكنَّها بَقِيَتْ محبوسةً زمنًا غير قصير ، وبرغم حبسها وكتمها تعاود أطيافها مخيِّلتي ، تريد أن تثب وتتجسَّد كلمةً خضراء ، تنبت على درب الحياة ، ولكنَّني أخنقها ، ثمَّ تعود : الكرَّة تلو الكرَّة ، حتَّى أذن الله لها أن تولد أُطروحةً تعبر في حرفٍ يلوِّن أفكارًا من حياةِ شعراء ، ويصوِّر دنيَا تمدُّ ظلالها على تاريخ شعراء من عصورٍ مختلفةٍ متباينةِ الظُّروف والأهواء والأخْيلة ، تَتَلاَقَى أكثرها في أُفقٍ شعريٍّ ، وإن اختلفت الصُّورُ والمنبع الَّذي يستقي منه أولئك الشُّعراء على صعيدٍ من صور متباينة المضامين والأُسلوب ونهدف كلَّ الاختلاف ، وتجتمع في حرفٍ واحد ، وهي الرُّوح الشَّاعريَّة ، وحاولت بعد جهد مرير ، وظرف جليد ، أنْ أرسمهَا حرفًا مجسَّدًا في أُطروحة من أُطروحات الفكر والأدب ، لتكون تاريخًا يعنى بها المفكِّرون .

فالتُّراث هو كنز خلَّفه لنا آباؤُنا وأجدادُنَا الأدباء ، من حياةٍ ثرَّة ، ومن مجدٍ شامخٍ ؛ فالماضي حافل بهذه الكنوز الفكريَّة والعبقريَّات الفذَّة ، ومَنْ لا ماضيَ له لا حاضرَ له .

ولم تكن هذه الأُطروحةُ لِتَأْتِيَ بجديدٍ ، أو بأفكار مبتكرة لم تكنْ موجودةً في أفق الحياة ، إنَّما أُعدَّت كأُطروحة لصياغة تاريخٍ يمدُّ عصرَنا الجديد بألوانٍ من الماضي ، في طرح وعرض ، بأُسلوب متطوِّرٍ مع تطور الشَّباب الجديد ، حتَّى يَتَذَوَّقَهُ ويشرئبَّ إليه .

فهيَ تخدمُ الفكرَ والتُّراث وتمرُّ بقنوات العصور الماضية ، لتربطَها كحلقةٍ واحدة ، عصراً بعد عصر ، وتنساب انسياب النَّهر في الحقول ، حتَّى تتَّصلَ قناتُها بقنواتِ القرن العشرين ، لتربط حياتَها بحياتنا الحاضرة ، فكأنَّنا نشهد فصولها ، ونتفاعل معها كشريط سينمائيٍّ يعرضُ مشاهد لأفكارِ أُدبائِها ، من أَدبٍ مغمورٍ لم يُدرَسْ ، ولم يُعْتَنَ به .

فهذه الأُطروحة .. أو الدِّراسة للشِّعْر ودورهِ في الحياة في العصور المتسلسلة ، في حلقة منسَّقة من العصر الجاهليِّ إلى عصرِ النُّورِ ، والعصرِ الأمويِّ ، والعصر العباسيِّ ، هي دراسةٌ أو حلقاتٌ تتَّصل بعضُها ببعضٍ ، حتَّى تتَّصل قناتُها بالقرن العشرين ، وما فيه من تطورِ فكرٍ ، وأُسلوبِ شعرٍ قَفَزَ في وثبتهِ وخيالهِ وجنَّحَ في سماءِ الشِّعْرِ الجديدِ ، ككوكبٍ متألِّقٍ في عتمةِ الظَّلامِ ، في الحياة الأدبيَّة الجديدة المعاصرة ، لنرى هل الشِّعر كأمسهِ في علاجهِ للحياة الاجتماعيَّة ، وتصوير البيئة الَّتي يعيش الشَّاعر على صعيدها ، أسلوبًا يؤثِّر في الحياة ، كأسلحةٍ يُستَعَاضُ بهِ عنها ، في بعض المعارك ، كلَّما انحصر سلاح الوغى في الحرفِ ، حيثُ يعجزُ السِّلاح الأبيضُ أو المتطوِّر أن يقوم مقام الحرف ، فهنا يتحوَّل الشِّعر إلى سلاحٍ يخيف الطُّغاة .

وبعبارةٍ أدق ... فالكلمة بركان ، ينفجر لهيبًا يُحرق ويدمِّر كلَّ طاغٍ عنيد ، وإنْ لَمْ يصل الشِّعْرُ في عصرنا كبراكينَ تتفجَّرُ كلمات ، كالعصور الماضية ، لمكانته الاجتماعيَّة ، وأسلوبهِ التَّأْثيريِّ المثيرِ المتوهِّجِ لهبًا ، في نفوس الشُّعوب الماضية ، حيثُ يتذوَّقونه ويفهمون ما وراء

حروفهِ من رموزٍ وإشارات ؛ وكان يمثّل في حياتِهم الماضية ما يمثّلُ ، في القرن العشرين ، الإعلامُ المقروء ، والمسموعُ ، والمرئيُّ ، في وسط المجتمع ، وفي آفاق النُفوسِ ، لقرب المجتمع ، وفطرتهِ إلى العربيَّة ، حيث لم تلوَّث تلك الفطرةُ بالعجمة .

فكان للشِّعرِ ، أو الكلمة ، دورٌ خطير ، يقلبُ وضع المجتمع رأسًا على عقب ، لما له من إعلامٍ ؛ فإنَّه يمثّل الصِّحافةَ ، والمذياعَ ، والتِّلفازَ ، وشبكةَ (الإنترنت) ... وبعبارةٍ أدقَّ ، يقومُ مقامَ الإعلامِ المقروء ، والمنظور ، والمسموع .

وإنَّ حرفَ أُطروحتي ، الَّتي أدرتُها على مساحةِ صفحاتٍ من المجلدِ الأوَّل الَّذي احتوى العصورَ الأربعة ، أُريدُ منها أنْ تَمُدَّ ظلالَها ، إلى القرنِ العشرينَ ، لتضمَّ كوكبةً منْ نجومهِ المتلألئة ، من القرنِ المشارِ إليه ، لتجتمعَ في (أُلبومٍ) يضمُّ شتاتَها ، وتنفردُ هذه الصُّورُ ، من هذهِ الأطروحة ، (بأُلبومٍ) يحتوي على صورٍ كُثْرٍ ، من مفكِّري أدباءِ المملكة العربيَّة السُّعوديَّة ، وتخصيصُ هذه الأطروحةِ لهؤلاءِ المفكرين ، في سلسلةٍ واحدةٍ ، أو أكثرَ لأهدافٍ وعواملٍ تاريخيَّة ، حيثُ إنَّ التَّاريخَ عُنِيَ بالدِّراساتِ ، وبالنَّقدِ ، وبالأبحاثِ ، لمفكِّري وأدباءِ البلادِ العربيَّة .

أمَّا أدباءُ المملكةِ ومفكِّروها ، فلم يحصلوا على ما حصلَ عليه مفكرو وأدباء غيرَ المملكة ، حيثُ حَفَلَ بهمْ نقَّاد من أقطارِهم وغيرِها ، وَجُمِعَتْ لهم ألوانٌ وشرائح ، من الأفكارِ والدِّراساتِ في كتبٍ متعدِّدةٍ تناولَتْها أقلامُ وريشةُ مصوِّرٍ فنَّان .

أمَّا مفكِّرو المملكةِ فقليلٌ من عُنِيَ بهذا التُّراث ... وتراثُنا حافلٌ بالصُّورِ والمعاني والكنوز ، لا يقلُّ عن شقيقاته " القاهرةِ ، أو بغدادَ ، أو

بيروتَ ، أو دمشق " ولكنّــه أدب مغمور ، لَمْ يُتَحْ لجوهــرِ هـــذا الأدبِ كـفٌّ منتقد ، فيصحُّ لهُ أنْ يتمثَّلَ ببيتِ الشّاعرِ العملاق الّذي ظلمهُ التّاريخ :

أنا النُّضار الذي يضنُّ به ...... لو قلّبته يمين منتقدي[1]

لهــذه العوامـــل ، أدرتُ أطروحتــي ، وخصّصــتُ ورســمتُ محتواها ، على أكثرِ معالمِ هذا التُّراث ، لعلّــي أوفّقُ لخدمة هذا الوطنِ الّـــذي من أُفقــه سَطَعَتْ شمــسُ خاتم الأنبيـــاء ، ومن أُفقه لَمَـــعَ ضــوءُ القــرآن المبيــن ، وكفــاهُ شرفًــا ورفعةً ، أنْ يكونَ سماء هدًى ، وعلم ، ومعرفة .

فأطروحتي الّتي اشتملَ عليها هذا المجلَّد الأوّل ، عُنِيَــتْ بــالعصورِ الأربعة الماضية ، وإنْ كانتْ قد تناولته دراساتٌ وأبحاثٌ ، ونقدٌ ، مـــن أدبــاء حفلوا به منذ يومهِ الأوّل حتّى يومنــا هذا ، إلاّ أنَّ تراثَنَا الحاضرَ الّذي يمثِّـــلُ مرآةَ القرنِ العشرين ، لم يُوَفَّ حقّه من الدّراسات والتّحليل .

أنا لا أنكرُ ما صدر من دراســاتٍ لبعض المفكّريــن الّذيــن عُنُــوا بالأدب السُّعوديِّ ، وتعمّقوا في هذا التُّراثِ ، الّذي سَــطَعَ فــي ســماءِ القــرن العشرين ، سواءً كانت هــذه الدّراسات ، صادرةً من أفــق المملكـــة أو مــن خارجه ... غير أنَّ هذهِ الدّراسات ، لَمْ ترسم الصُّورة المتكاملــة الّتــي تجسِّــد الهيكل الماثل للعيان ، على صعيد الواقع الملموس ، وتؤطِّر الصُّورة .

ولهذه العوامل التّاريخيَّة الّتــي أهملت تراثَنَا ، أُوَجِّهُ نـــداءً ضوئيًّــا لجميــع المفكّرين ، بأن يُعْنَوْا بهذا التُّراث ، ويولوه بعــض اللّفتات ، لــيرو أنَّ في الزّوايا خبايــا ، فالدّعايــة الإعلاميَّة العاطفيَّــة المموّهــة قـــد ترفـــع

---

[1] هُوَ الشّاعر الكبير : الشّريف الرضي .

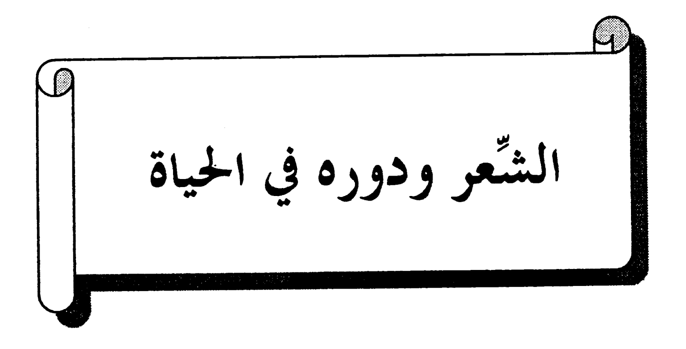
أناسًا للقمَّة وهم في السَّفح ، وتهبطُ بأناس من القمَّة إلى السَّفح ، فتهاض أجنحتهم ، فما استطاعوا أن يسفّوا ، فكيف لهم بالطَّيران ؟.

هكذا الحياة ، قد تقسو فلا ترحمُ من هو أهل ، وتشيد بمن ليس هو أهلاً !!.

لا أريد أن أُدير هذه الأطروحة ، على سرٍّ من أسرارِ حرفِ مفهوم الحياة العميق ، في مختلف مضامينها ، في هذا اللُّغز الدَّقيق ، فأقصر هذا البحث ، على لمحاتٍ تدكمش في ظلِّ هذه الأُطروحة ، كفاتحةٍ ، أو بابٍ تعريفيٍّ لمدخل كتابي ، المجلَّد الأوَّل : ((**الشعر ودوره في الحياة**)) ... وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

١٤١٩/١١/٢٥هـ

١٩٩٩/٠٣/١٣م



الشِّعر ودوره في الحياة

عنوانٌ يصاغُ في طرحٍ عميق ، يوجَّهُ ، في صيغةِ حرفِ تساؤلٍ ، إلى نقّادنا وأُدبائنا ، ذوي الفكر من حملةِ أقلام هذا العصر ...

وحينما نتساءلُ عن هذا الطَّرح ، ونبحثُ الخلفيَّات ، والأساليبَ الشِّعريَّة ، وتطورها ، وانفتاحها ، وانغلاقها في الفترة المظلمة ، الَّتي سبقت النَّهضةَ الفكريَّة الجديدة ، لا نريد أن نسرف كلَّ الإسراف ، ولا نريد أن نقتصدَ كلَّ الاقتصادِ ، فنظن بالتَّطور الملموس الَّذي واكب الحياةَ الأدبية في واقعها المتجدِّد .

لقد كان للشِّعر العربيِّ دورٌ في هذه الحياة ، يصوِّر واقعها ، ويرسم معالمَها ، وتجاربَ هذا الإنسان ، ويؤثِّر في تيَّارات حوادثها السياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، ومجرى أفكارها فهو عنصرٌ حيٌّ ، يحرِّكُ الحياة في سِلْمِها ، وحربها ، ويسجِّل خَلَجَاتِ البَشَرِ ، وعواطفها في أساليبَ رائعةٍ ، منذ زمنٍ طويلٍ ، ولولا الشِّعر ورواته ، لضاع التَّاريخُ ، وتحوَّل إلى موجة من دخان .

لعلَّ التَّاريخَ لم يسجِّل لنا كيف بدأ الأسلوبُ الشِّعريُّ ؟، وكيف يُصَاغ في حروفٍ تعبِّر عن رغبات عواطفَ ثائرةٍ كالبراكين ، أو هامدة كالمقابر ؟؟

والَّذي نتحرَّاه ونظنُّه ، ونُدِيرُه على مساحة رقعة هذا الطِّرس ، ونشير له كرأيٍ من الآراء ، لعلَّه يلمسُ الواقعَ : فمنذُ فجر الإنسان الأوَّل ، عندما ولد ودرج على هذا الكوكب ، فَلِضَرُورَةِ الحاجة الفطريَّة لمفهوم الحياة ، وما فيها من أهداف ، نعتقد أنَّ هناك لغةً تصاغ في حرفٍ تخاطبيٍّ يفصح عن حاجةِ هذا الإنسان ، ويترجم الرُّموزَ النَّفسيَّة ، والخلجاتِ القلبيَّة ، في منطقٍ تعبيريٍّ يترجم رغباته بينه وبين

بني جنسه ، ويقضي به رغباتــه الرُّوحيَّة ، وخلجاته القلبيَّة ، وهمسات جفونــه السِّحريَّة ، وحاجاته الماديَّة ... كلُّ هذا يشير إليه فـــي حــرف ...! إنَّمـــا كيــف يُصـــاغُ ذلك الحــرف ؟ وما هيَ اللُّغة الشِّعريَّة ، أو اللُّغـــة التَّخاطبيَّـــة الَّتي تنعكس حُرُوفُها على مــرآةِ الحياة التَّخاطبيَّة ، في ذلك العصـــر ؟ وهــل تولَّدت من ضوء سمائِها اللُّغـــةُ العبريَّة ، أو اللُّغة الكنعانيَّـــة ، أو السُّــريانيَّة ؟ ولعلَّ مفهــوم اللُّغـــة السَّاميَّة تنطــوي فِيْ حرفهِ أو معناهُ اللُّغات الَّتي أشـــرنا إليها ، ومتى وُجِدَتْ وولدت في لغةِ التَّخاطب ؟.

لعلَّ التَّاريخَ لَمْ يكشفْ لنـــا ، ما وراء هــــذا الضَّبـــاب الزَّمنـــيِّ المتراكم ، الَّذي لفَّه الزَّمن في أحشائهِ .

إنَّ هذه الأحـــرفَ التَّخاطبيَّة ، أو الشِّعريَّة قد لفَّها الزَّمنُ البعيد فـــي موجاتِ العدم ، وطواها الأبدُ في تلافيف الماضي الَّذي لم يأتنا مـــن أنبائـــه إلاَّ طُرف أخبارٍ على نـــدرةٍ وقلَّة ..! فمن هنا نعرف أنَّ للشِّعر دورًا مؤثِّرًا ، فـــي هذه الحياة وتطورها ، ويصوِّرها ، ويعكسهـــا كمـــا تعكــس المـــرآةُ الظِّـــلالَ المتموِّجة ، في ألوانها البهيجة ، أو في أطيافها الحزينة ، فالشِّـــعر يشـــبه فـــي العصر الجاهلـــيِّ ، الصُّحف الثَّقافيَّـــة والسِّياسيَّـــة السَّيَّارة ، فـــــي عصرنـــا اليوم ، فهو يسير كما تسير الصُّحف في الأقطار .

ولنبدأُ هذه الحياة الفكريَّة ، ونفتتحُها ببعض صفحاتٍ ، من صفحـــات العصر الجاهليِّ ، ونقرأ هذه الحياةَ بما فيها من مرٍّ ، وحلوٍ ، وعنفٍ ، وهـــوادةُ من شعرِها ، وإنْ كان الطَّابع العامُّ الَّذي يصبغ هذه الحياة العنـــفُ ، والقســـوةَ حيثُ يستمدُّونَها من طبيعة الصَّحراء القاسية ، فَنَقَلَ لنا التَّاريخُ وَفْرَةً من صُـــوَرٍ متحرِّكةٍ تدور في هذه الحياة كدورة الأرض حول الشَّمس .

فكان الشِّعرُ في هذا العصر أداةً تعبيريَّةً ، ومرآةً تنطبع عليها هـــذه الحياة ، بكلِّ ما فيها من معنى الحياة ، فالشَّاعر هو الصَّحيفة السَّـــيَّارة ، الَّتـــي تعكس ما يدور في هذه البيئة ، الَّتي يعيش علـــى صعيدهـــا ، وتنقــــل أنبـــاءَ

التَّفاخر ، والكرمِ ، والبخل ، والشَّجاعةِ ، والجبـنِ ، والحرب ، والسّلْم ، ومـا يـدور من معارك صحـراويَّةٍ ، تُهْدَرُ فيهـا الدِّماء ، وتُخَرَّبُ مـن جرّائـها الدِّيارُ ، في سبيل شـاةٍ ، أو ناقةٍ تُقْتَلُ فتثور حميَّةُ الجاهليَّةِ ، على أشلاءِ تلـك النَّاقة ، فتذوبُ إثْرَ طلب ثأرها أجسادٌ ، وتتقطَّع أشلاءٌ ، كمـا صوَّرهـا لنـا التَّاريـخُ ، وجسَّدهـا وجهًا مرعفًا ، ودمًـا نزيزًا ، استمـرَّ قرابـة أربعين عامًا " حرب البسوس " .

فالشِّعر كان لـه دورٌ وسجالٌ في هذا الميدان وفـي هـذه المنـاظر الدَّامية ، يروي أنباءها ، ويسجِّل أخبارها ، فالقبيلة الَّتي لا شاعر لها ، لا مجـد لها ، وإذا ولد فجرُ شاعرٍ في قبيلة ارتفـع رصيدُها ، ودوَّى صيتُـها ، ولمـع اسمُها كالوسامِ في قمم المجد ، وخلِّدت في بطون التَّاريخ ، وتاهت على الآفـاق تتوسَّد النُّجوم .

ولا ننسى دور الشِّعر ، في تصوير المرأة ، والتَّشبيب بـها شـهوةً جامحةً ، لأنَّ دورَ المرأة في **هذا العصر** ، مستهـانٌ به ولـم يرتفـع رصيـدُ المرأةِ ، ويكن لها الدَّورُ فـي **المجتمع** ، والمكانة المرموقـة ، وترتفـع عـن الشَّهوة الجامحة ، إلى كونها إنسانة لها ما للرَّجل مـن حقـوقٍ ، إلا فـي عصـر الإسلام ، أما قبل الإسلام فالمرأةُ تُوْرَثُ ولا تَرِث وتُـوْأَدُ لأنَّـها فـي موازينهـم لا تستحقُّ الحياة ويجهلون السِّرَّ الَّـذي خلقـها فـاطر السَّـماوات والأرض ، من أجلِ أن تكون الشَّريكة للرَّجل ، ونصفهُ ، والرِّئة الَّتـي يتنفَّـس منها المجتمعُ .

فالشِّعـر – كما قلنا – الأداة التعبيريَّة الَّتي تعـبِّر ، وتـترجم عـن رغبات حياة بيئيَّـة ، وما في زواياها ، من ألوانٍ ودروبِ أهـواءٍ ، يعكسـها صورًا تتجسَّد فـي قصائده ، يذيعها رواةٌ يكونـون منه كالظِّلِّ ، كمـا يـوزع البريد الصُّحف ، أو البائع لها ، فالشِّعر في الأمـس ، يشبـه اليـوم – فـي

عصرنـــا – أجهـــزة الإعــــلام ، كالصّحافـــــة ، والمذيــــاع ، والتّلفـــزة المنظورة ، والمسموعة ، وشبكة " الإنترنت " .

فكان للشّعر دورٌ مؤثّـــرٌ ، ومرتبطٌ ارتباطَ الرُّوح بالجسد ، في تلــك الحقبة الزّمنيَّة :

لكـــــلِّ زمـــانٍ مضـــى آيــــــةٌ

وآيــــةُ هـــذا الزّمــــان الصُّحـــف[1]

لا ، يا أيُّها الشّاعر – لو امتدَّ بك الأجل ، لأضفت إلـــى الصّحافـــة الأجهزة المتطـــوِّرة الّتي جسَّـــدت حقيقـــةً واقعيَّة ، تنقـــل لك الإنسان شـــكلاً وعقـــلاً ، وتريك المرئـــيَّ ، وتسمعك المسموع ، بدون حجاب ؛ فهو يعيـــش معك في بيتك ، وغرفة نومك ، وعلى سريرك : كالمذياع والتِّلفاز .

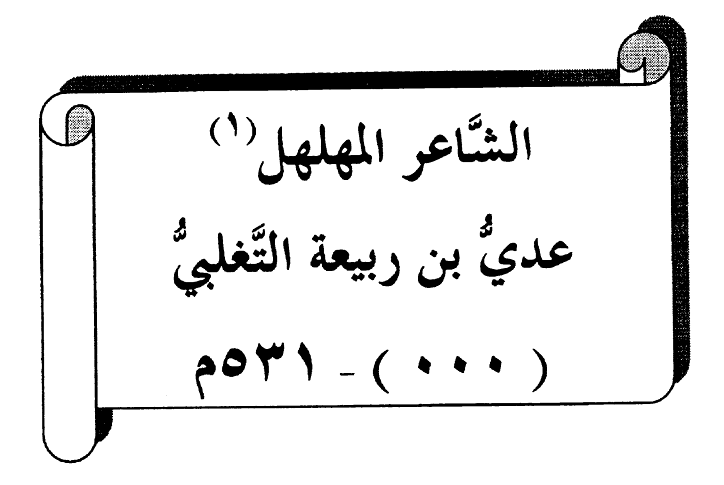
وبعد هـــذه المقدّمة الّتي أعطينا فيها ، صورةً مقتضبـــةً عـــن دور الشِّعر العربيِّ ، وموقعـــه الاجتماعيِّ فـــي النُّفوس ، وتأثيـــره في المجتمعـــات الإنسانيَّة ، كإعطائـــهِ دفعـــات من وهيـــج الحمــــاس ، فـــي المعــــارك الحربيَّة ، وتجسيده الحُبَّ ، والنَّشوة ، ووصفه للطَّبيعة ، والمرأة ، في مفاتنـــها الخلاَّبة ، وجمالهـــا الحسِّيِّ ، وعيونهـــا السِّـــحريَّة الحــــلال ، وروحهـــا الجوهريَّة ... كلُّ هذا صَوَّرَهُ الشِّعرُ ، في صُوَرٍ متحرِّكة ، حتَّـــى كـــأنَّك ، إذا قرأت بعض القصائد ، يصوِّر لك أنَّك تشاهد منظرًا متحرِّكـًـا ، مجسَّـــدًا أمـــام عينيك ، وإن فصل بينك وبينه ، ضبابُ السِّنين المتـــراكـــم بـــعضـــه فـــوق بعض ، لبعد الزَّمن السَّحيق في طبقات قرون .

---

[1] الشّاعر الكبير : أحمد شوقي .

فلنبدأُ بالعصر الجاهليِّ ، ونختر منه بعض السِّــيمفونيَّات ، ونقــف عنــد كلِّ سيمفونيَّة ، ونعرض مناظرها ، كما يعرض الممثِّــل علــى خشــبة المسرح ، أدواره الفنيَّة ليشاهدها النُظَّار .

العصر الجاهلي


الشَّاعر المهلهل(١)
عديُّ بن ربيعة التَّغلبيُّ
(٠٠٠) - ٥٣١م

كان يعيش في التَّرفِ واللَّهو ؛ لذلك لقِّب بالزِّير ، لكثرة مجالسته للنِّساء ، وكان له أخٌ اسمه وائل ، ولقبهُ (كليبٌ) ، وكان يرأسُ جيش بكرٍ وتغلبَ ، وكان طاغيةً ، مهيب الجانبِ ، حتَّى قيل : " أعزُ من كليبِ وائل " .

قتل ناقة البسوس (خالة جسَّاس) ، الَّذي انتصر لها (جسَّاس) فقتل كليبًا غدرًا ، فنشبت حربٌ بسبب ذلك بين بكرٍ وتغلبَ ، دامت أربعين سنةً ، وبقيَ المهلهل يحارب ، ليأخذ بثأر أخيه ، إلى أن تمكَّن من قتل جسَّاس ، ومات مهلهلٌ مأسورًا نحو : ٥٣١ م .

أهَاجَ قَذاةَ عَينيَ الاذِّكَارُ
هُدُوءًا ، فَالدُّمُوعُ لَهَا انْحِدارُ

وَصار اللَّيلُ مُشتَمِلاً عَلَينَا
كأَنَّ اللَّيلَ لَيسَ لَهُ نَهَارُ !

وَبِتُّ أُراقِبُ الجَوزَاءَ ، حتَّى
تَقَارَبَ مِن أوائِلِهَا انْحِدَارُ ؛

أصَرِّفُ مُقلَتِي في إثرِ قَومٍ
تَبايَنَتِ البِلاَدُ بِهِم فَغَارُوا

وَأبكي ، وَالنُّجُومُ مُطَلِّعَاتٌ ،
كَأَن لَم تَحوِهَا عَنِّي البِحَارُ ،

عَلَى مَن ، لو نُعيتُ وَكَانَ حَيًّا
لَقَادَ الخَيلَ يَحجُبُهَا الغُبَارُ !

دَعَوتُكَ ، يا كُلَيبُ ، فَلَم تُجِبنِي ؛
وَكَيفَ يُجيبُني البَلَدُ القِفَارُ ؟

أجِبنِي ، يَا كُلَيبُ ، خَلاَكَ ذَمٌّ ،
ضَنِينَاتُ النُّفُوسِ لَهَا مَزَارُ

أجِبنِي ، يَا كُلَيبُ ، خَلاَكَ ذَمٌّ ،
لَقَد فُجِعَتْ بفَارسهَا نِزَارُ

سقَاكَ الغَيْثُ ، إنَّكَ كنْتَ غَيْثًا
وَيُسْرًا حِينَ يُلتَمسُ اليَسَارُ

أبتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ أن تَكُفَّا
كَأَنَّ غَضَا القَتَادِ لَهَا شِفَارُ

وَإنَّكَ كُنْتَ تَحلُمُ عَنْ رجَالٍ
وَتَعْفُو عَنْهُمُ وَلَكَ اقْتِدَارُ ،

وَتَمْنَعُ أن يَمسَّهُمُ لِسَانٌ
مَخَافَةَ مَنْ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ !

وَكنْتُ أعُدُّ قُربي مِنْكَ ربحًا
إذَا مَا عَدَّتِ الرِّبْحَ التِّجَارُ ،

❁ ❁ ❁

لَوْ وقَفَ المُصوِّرُ لَحْظَةً أمَامَ هذه المناظرِ ، أو العواطف المتسلسلة في هذه الأبيات ، وطوى القرون : القهقرى ، ليعيش على قمَّة عصرٍ مفتونٍ بالتَّفاخر ، وبالحرب ، وبالسَّلب ، والنَّهب هو ديدن ذلك العصر وطابعه ، نبتت عليه حياتهم ، فأثمرت الشَّوك ، والقتاد ، والقسوة ، والرِّقة في

وقتٍ واحــدٍ ! كما لها طابع الكرم والفخر ، وبعضُ الأخلاق الحميــدة ، ولــو عدت أدراجك القهقرى لذلك العصــر ، أو قرأت معي قصيدة مهلـــهل ، ومـــا يماثلُها من عواطف لشاهدت عاطفــة جيَّاشة ، تتدفَّق حنانًا وأخـــوَّة فـــي هــذه الأبيات ، وهي من قصيدة تربو على الثَّلاثين بيتًا .

كن معي أيُّها القارئ لنستمع للشّاعر حين يفتتح قصيدتــهُ ، فيســكب عاطفته في حروفـــه ، من عينٍ هاجها القذى أو الهدوء ، وأيُّ هـــدوءٍ ، أهـــو الهدوء الَّذي يتولَّد من الحزن فيميت لون الحياة في العين والجسم ؟! أمْ الـــهدوء الَّذي يسبق العاصفة لتثيره فيثأر لأخيه ؟.

غـــير أنَّ الشَّاعــر لا يتــرك الصُّــورة تسيــر فـــي دنيَــا مـــن الأوهـــام ، فيوضـــح مراميهـــا ، فيصوِّرهـــا عاصفـــــة حـــزن ، تجتـــاح النُّفوس ، لتسكب الأرواح على حدِّ الحسام وفي لمعـــان الرُّمـــح ، فتعصـــــر العمـــر دماءً ساخنة فوَّارة ، فتنتهي تلك الحياة الجسديَّة في شمم وعزٍّ ، والَّتـــي لابدَّ أن تنتهيَ ، إن طالت وإن قصرت ، ولكن من الخير أن تنتهيَ مصروعـــةً على صعيد الكرامة .

ويوغل الشَّاعــر في تصويـــر عاطفتـــه الطَّموح الحزينة ، فـــيرى اللَّيل كأنَّهُ فصلٌ من حزنٍ اشتمل عليه ، كما يشتمل البردُ على الجسم ، لا يكـــادُ يأتي بعده نهارٌ ، كأنَّه ليلٌ سرمد .

وهذه الصُّورة الإبداعيَّة نتذوَّقُها ، حتَّى في عصرنا الجديد ، فكيـــف بمن فاجأتهُ في ذلك العصر الَّذي ولدت فيه ؟!.

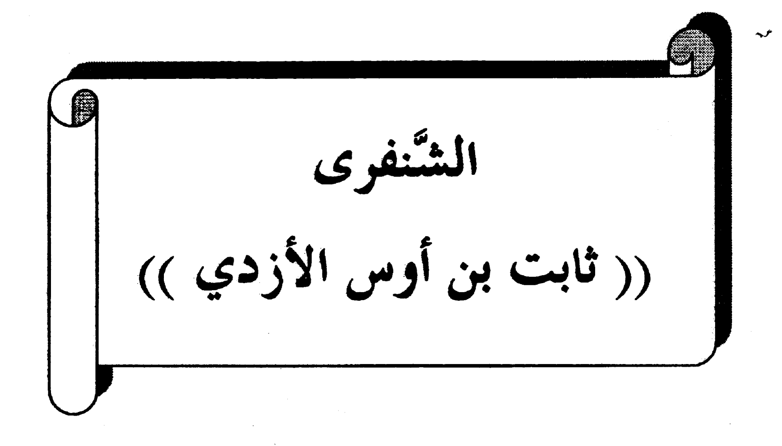
ويستمرُّ الشَّاعرُ فـــي وصفـــهِ ، ليؤطِّـــر صورتـــــه الوصفيـــةَّ المحزونة ؛ فنجم الجـــوزاء لا يغيبُ عنه ، وليس له غـــروب ، وإنَّ النُّجـــوم الطَّوالـــع لا يحجبها عن عينـــه البكـــاء ، فهي ساهرةٌ معه كأن لـــم تحتوهـــا

البحـــار ، ولعلَّهُ أراد بالبحـــار الدُّمـــوع الغزيـــرات ، والأنَّـــات الحزينـــات الثَّائرات ، ثمَّ يصوِّر أخاه البطل ماثلاً أمام عينيه ، أو هو قريب منه ، فيهتف به في نخوة ، مناديًا أخاه ... ويجيب عنـــه بالجـــواب الواقعـــيِّ ، إنَّـــه هـــامدٌ لا حراك به ، فهو كصحراءَ خاليةٍ لا سمير فيها ولا أنيـــس ، وهـــل الصَّحـــراء الصَّامتة تَردُّ الجـــواب ؟! إنَّمـــا هـــي ضيـــاعٌ لأصداء أصـــوات تدفـــنُ فـــي رمالها ، وتتلاشى في فضائها ، مع شفق غروبِ دامٍ ، والَّتي توحـــي ظلالُـــها بغروب كلِّ حيٍّ كما غرب الماضون ، فـــلا يـــردُّون جوابًـــا ، أو تعكـــس منظـــرًا غروبيًّا ، يصـــوِّر للحزيـــن خاتمـــة الحيـــاة ، وللعاشقيـــن أحـــلامَ فاتحـــةِ العمر ، أمَّا نِدَاؤُهُ لأخيه ، وتمثيله بالصَّحراء الصَّامتة ، فـــامتداد مـــن حياته ، وصورة تعكس ألوان البيئة الَّتي يعيش عليها .

ويختتمُ هذه السُّمفونيَّة بموسيقـــى ، كلُّ ألحانِها تفجُّعٌ وأنـــاةٌ ، يؤبِّـــن فيها أخاه كُليبًا ، ويفترض في نفسه : لو كان هو المقتول ، لجرَّ كُليـــبٌ جيشًـــا يضيق به قلب الصَّحراء ، حربًا تُصبغُ رمالها بالدَّمِ المطلول ، وتجرُّ الويـــلات والمصائب في الدُّهور .

ونسأل مهلهلاً : ألم يسعرها حربًا عشـــواء ؟، تأكـــل الأخضـــر واليابـــس ، وتزهق فيهـــا نفـــوسٌ ، وتهـــدرُ فيهـــا حيـــاةٌ لا أوَّل لـــها ولا آخـــر ، طيلة أربعين عامًا ..؟ فماذا يقصد بعد هذا الثَّمـــار ؟ فيطلـــب دمـــاراً وعنفًا يربو على سعير حرب استمرَّت أربعين عامًا ..؟!

ونختتمُ هذه السُّمفونيَّة بجملة تترجم ما وراء هذه الجـــروف ، إنَّـــها العاطفة الجامحة الجاهليَّة الهوجاء ، الَّتي لا تتقيَّد بقيدٍ ، وندخل إلى شاعرٍ آخر .


الشَّنفرى
((ثابت بن أوس الأزدي))

روي عنه من القصص الخياليَّة ، والمغـامرات البطوليَّـة ... فـهو فـارسٌ مغامـرٌ فـي صحـراء الباديـة ، وتضاربـت روايـاتُ التَّـاريخِ حوله ، فبعضها صورَّته شاعرًا حكميًّـا ، وآنًا شيطانًا قطَّاعًا للطُّـرق ، وروي أنَّهُ ذات يـومٍ قال لابنةِ سيِّده (اغسلي رأسي يا أخيَّة) فلطمته فتحولّـت هـذه اللَّطمة إلى عقدٍ نفسيَّة عرَّفته موقع حياته بينهم .

وهـذه القصيـدة الَّتـي استوحاهـا مـن سمـاء الصَّحـراء ، وعرفـت بـ : ((لاميـة العـرب)) ، تـصـوِّر الحِكـم الإنسانيَّة ، والحياة المثاليَّة :

أقِيمُـوا بَني أمِيِّ صُـدُورَ مطِيِّكُـمْ
فإنيِّ إلـى قَـوْمٍ سِـوَاكُمْ لأمْيَـلُ

فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللَّيْـلُ مُقْمِـرٌ
وَشُدَّتْ لِطِيَّـاتٍ مَطَـايَا وَأرْحُـلُ

وَفِي الأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَـرِيْمِ عَـنِ الأذَى
وَفِيْهَا لِمَنْ خَـافَ القِلَـى مُتَعَـزَّلُ

لَعَمْرُكَ مَا في الأَرْضِ ضِيقٌ عَلى أمْـرِىءٍ
سَرَى رَاغِبًا أو رَاهِبًـا وَهْـوَ يَعْقِـلُ

وَلِي دُونَكمْ أهْلُونَ سِيـدٌ عَمَلَّـسٌ
وَأرْقَطُ ذُهْلُـولٌ وَعَرْفَـاءُ جَيْـأَلُ

هُمُ الرَّهْطُ لاَ مُسْتَودَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ
لَدَيهِمْ وَلاَ الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

وكُلُّ أبِيٌّ بَاسِلٌ غَيرَ أنَّنِي
إذَا عَرَضَتْ أولَى الطَّرَائِد أبْسَلُ

وَإنْ مُدَّتِ الأيدْي إلَى الزَّادِ لَمْ أكُنْ
بَعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجَلُ

وَمَا ذَاكَ إلاَّ بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلِ
عَلَيهِمْ وَكَانَ الأفْضَلَ المُتَفَضِّلُ

وَإنِّي كفَانِي فَقْدُ مَن لَيْسَ جَازِيًا
بحسْنَي وَلاَ فِي قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ

★ ★ ★

وقفةً معي أيُّها القارئ العزيز ، لتشاهد كيف يصوِّر هذا الشَّاعر أدبًا رفيعًا وتعاليم أخلاقيَّةً متسلسلةً كجدولٍ رقراقٍ يُسقي القلوب ، فترتوي منه الأرواح ، ويصوِّر حرِّيَّة الكرامة ، الَّتي لا تغفو على دنيا الضَّيم ، وهوانِ الذُّلِّ .

تأمَّلْ إلى مطلع هذه القصيدة الحكميَّة ، وما فيها من صُور أخَّاذة ، حيثُ وجَّه خطابه إلى بني أمِّه ، وهم أولى بهذه الإفاضة التَّعليميَّة ، والخاطرة البيانيَّة ، وفيه أسلوب تعنيفٍ ورقَّة ، حيثُ طلبَ منهم أنْ يستعدُّوا بإقامةِ المطيِّ إلى الرَّحيل ، لطلب ما يراه كرامةً أو خيراً ، وإلا فحبُّه سيتحوَّل عن أهلهِ إلى سواهم ، ولم يرسل هذه الأحرفَ صحراويَّةً في أسلوبٍ جافٍّ ، إنَّما تلك الإشارةُتفصحُ عن إرادةٍ معنويَّة ، غَلَّفَهَا في أحرفٍ

متأدِّبة ترمــزُ إلى ذلك ، ويرى رغباتِه محمومةً في أفـــقِ ليــلٍ مقمــرٍ ، وإنَّ المطايَا أجنحةٌ مُهَيَّأة للسَّيــر ، والجوُّ يغمره ضوءُ القمـــر ، تتــلألأُ أضـــواؤهُ الفضِّيَّةُ علـــى رمالِ الصَّحراءِ الذَّهبيَّة ، الَّتي تعكسُ مخائلَ الشَّاعر ، وما فيـــها من جنوحٍ ، ولهفةٍ .

تصورَّ معي هذا المعنى الوصفي ، حيث أسند إلى حاجاته فعلاً مـــن الأفعال الَّتي تنذر بالفناء ؛ وهو فعل " حُمَّتْ " فأبدع في هذا الوصف وأجاد .

وهذه الرِّحلةُ التَّجوالية .. إنَّهَا رحلةٌ ، لحُرٌ كريمٍ يَفِرُّ من الضَّيمِ إلـــى مأوًى كريم ، أَوَلَيْسَ فـــي أرضِ اللهِ مستَقرٌ ومأوى يتفيَّأُ مِـــنْ جَنَّاته ، ويظـــلُّ عباد الله ، وفيها الكلأ والعشـــب لدوابِّهم أداةِ مواصلاتِهِمْ ؟!.

فالحرِّيَّة لا يساوَم عليها ، فالشَّاعر في هذه القصيدة يسلسل حكميَّاتـــه في حرفٍ متحرِّكٍ ، ويفرش درب رحلتهِ بالرَّيحان ، والـــورود ، لا بالأَشْـــواك والقَتَاد ، فيؤكِّد رحلة هذه الطَّريق المريحـــــة بقســـم : أنَّ الأرض لا تضيـــق رقعتهـــا علـــى امرئٍ ، سار راغبًا أو راهبًا ، ففـــي الأرض مُتَّسَـــعٌ لـــزرع رغباته ، ما دام دليلهُ عقلَه ، الَّذي يُخَطِّطُ له ويبرمج .

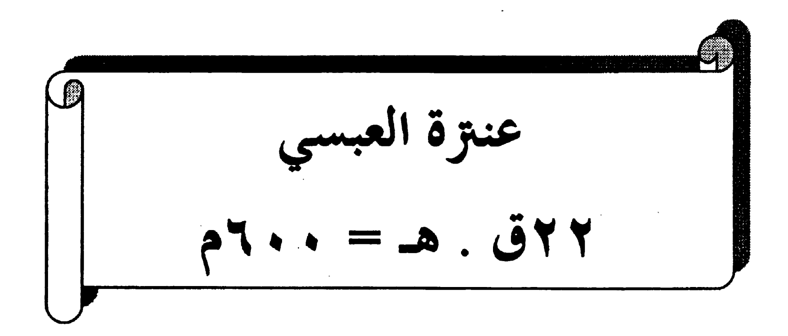
ويعـــود الشَّاعـــر فيرســـل إشـــارةً بعيـــدة المرمـــى فيـــها إنـــذار لأهلـــه ، إذا لـــم يَرْفِدُوهُ برِفدِ الكرامة والعزِّ، فَسَيَستَبْدِلُ الأهـــلَ بِـــأهْلٍ ، وإنَّ الأَهْلَ الجُددَ سيكونـــون موضعَ سِرِّهِ ، وأمانَتِـــهِ .. لا يفْشُـــونَ أســـرارَه ، ولا يخذلونه يوم الكريهة ، فيرجـــع يستلُّ عُنْفَه مِـــنْ مَقَالَتِـــهِ العنيفـــةِ ، فيضـــعُ المَرَاهِـــمَ علـــى الجـــروح ، فيصفهـــم بالبسالـــة ، والشَّجاعـــة ، ويَخُـــصُّ ذَاتَهُ ، ويَشِيْدُ بصفاته ، فهو يوم الطِّرَادِ .. هو أبسلُ من كلِّ باســـلٍ ، ويبـــدع الشَّـــاعـــر ويرتفـــع عـــن عالمـــه الجاهلـــــــيِّ إلـــى جـــوٌ صافـــي الأخـــلاق ، حضـــاريِّ الفكـــر والآداب ، غير مُضبَّبٍ ، ويَلْبِسُ النَّفسَ أســـمى إطـــارٍ اجتماعيٍّ ، ويعيدهـــا من حياتها البدائيَّة إلى حيـــاة حضاريَّـــة فُضلَـــى مُتوَّجَّةٍ بالخلق .

وإن مُدَّتْ الأَيدِي إِلَى الزَّادِ لَـمْ أكُـنْ

بَأَعْجَلِهِـم إذْ أَجْشَـعُ القَـومِ أعْجَـلُ

تصور معـي أيُّها القارئ هذه الحكمة ، الَّتي تُعَايَشُـنَا مـا عـاش الإنسان على رقعـة هذه الحياة ، فالأدب الخُلقيُّ الأصيل هو فيضٌ من الخـالق على عباده ، وينبوعٌ مُتَدَفِّقٌ فيه الاستقامة ، والتَّهذيب ، وهـذا البيـت يعطينـا صورةً فـي حرفٍ مُتَحَرِّك ، يرسـم لنـا آدَابَ المَأْدُبَةِ ، حينَ تُمَـدُّ أطباقـها للأكل ، وتجتمع عليها شريحةٌ من النَّاس ، فالشَّاعر يرسم مبدأً تعليميًّـا لفاتحـة الأكل ، ففيها حكمـةخُلقيَّة ومثاليَّة معنويَّة ، ويُوْغِلُ الشَّاعر في الحياة الخُلقيَّـة والتَّعليميَّة ، فيشرح هذه الحياة ، إنَّها بسطةٌ من إنسـان متفضِّـل ، والبـادئ بالفضل أفضل من الواهـب قبل السُّؤال ، وهو خُلقٌ رفيعٌ من الأخـلاق الَّتـي ندب لها الإسلام .

والقصيدة تربـو على سبعة وستِّين بيتًا ، وكُلُّـها تتسلسـل حكمـة وأخلاقًا ، فضلاً ومعانيَ ومُثُـلاً ، حتَّى سُمِّيَـتْ بـ : " لامية العرب " ، لمـا تحمله من مضامين رفيعة ، وأخـلاق ندب لها الإسلام ، وحثَّ عليها ، فـأنت تقـرأ هـذه القصيـدةَ ، ولا تكـاد تُصَدِّقُ ، أنَّهَا نَدَّتْ مـن شَـفَتَيْ شَـاعِرٍ جاهلـيٍّ ، نُسِجَـتْ حولـه أساطيـرُ المغامـراتِ ، وبُثَّـتْ حَولَـهُ ألـوانُ الرِّوَايَاتِ ، ولَكِنَّهَا الحقيقةُ الَّتي جَسَّدَتْهَا هـذه القصيـدةُ ، فـي صُوَرِهَـا المتحرِّكـة ، وفي إشاراتها الصَّوْتِيَّـةِ الَّتـي ترمـز مِـنْ وراءِ أغلفـةِ كلماتِهَا ، إلى هذا الأسلوب الشِّعريِّ البليغ .


عنترة العبسي
٢٢ق . هـ = ٦٠٠م

ولد فــي نجدٍ عام (٥٢٥ م) وقد كان فارسًــا مغــوارًا يُضْــرَبُ بشجاعتهِ الأمثــالُ .. فإذا شَجُعَ الرَّجلُ قالــوا تعَنْــتَرَ ، وخطــبٌ عنتريَّــةٌ لا مصداقَ لواقعِ الأقوال ، وعنترةُ هو من الشُّعــراءِ المميَّزين ، الَّذيــنَ صــوَّروا عصرَهم في رواياتٍ فصولاً من الفنِّ ، في حرفٍ ينطقُ ببيانِ السِّحر .

أما بطولتُه وشجاعتُهُ فقــدنَسَجَ حولَها التَّاريخُ ألوانًا من الخرافــاتِ الأسطوريَّة ، وغرقت فيهــا ريشــةُ الخيــالِ ، فزَوَّقَتْ منــها ألوانًــا مــن اللَّوحات ، ما حلا لها وشاعت ، فصار في هالــةٍ تؤَطِّرُهَــا تِلْـكَ الخيَــالاَتُ والخُرَافَــاتُ ، ومــن قصائــدِهِ مُعلَّقَتُــهُ - الَّتـي اختِيْرَت مــع أخواتِها المعلَّقاتِ - الَّتي كان لها دورٌ في الأدبِ العــربــيِّ ، وأخذت حَيِّزًا من الأفكــارِ والزَّمن ، فشرحها الشَّارحــون ، ووَلِعَ بها أربــابُ الأدبِ والفكر مُنْــذُ ذَلِـكَ التَّاريــخ حتَّــى القــرن العشرين : برغــم التَّطــورِ والتَّجــددِ فــي أسـلوبِ الكلمــة ، وانفتاح آفاق لوَنَتِ الشِّعْرَ بالحداثة والجدَّة : -

هَلْ غَادَرَ الشُّعَــرَاءُ مِــنْ مُتَــرَدَّمِ
أمْ هَلْ عَرَفْتَ الــدَّارَ بَعْــدَ تَوَهُّــمِ

يَــا دَارَ عَبْلَةَ بالجَــوَاءِ تَكَلَّمِــي
وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَــةَ واسْلَمِــي

فَوَقَفْتُ فِيهَــا نَاقَتِــي وَكَأَنَّهَــا
فَــدَنٌ لأَقْضِــيَ حَاجَــةَ الْمُتَلَــوِّمِ

وَتَحُلُّ عَبْلَــةُ بالجِــوَاءِ وَأَهْلُنَــا
بالحَــزْنِ فَالصُّمَّــانِ فالْمُتَثَلَّــمِ

حُيِّيتَ مِـــنْ طَلَلٍ تَقَـــادمَ عَهْـــدُهُ
أقْــوَى وَأقْفَـــرَ بَعْـــدَ أمِّ الهَيْثَـــمِ

حلَّـتْ بأرْضِ الزَّائِـــرِيْنَ فَأصْبَحَـــتْ
عَسِرًا عليَّ طِلاَبُــكِ ابْنَــةَ مَخْـــرَمِ

عُلِّقْتُهَـا عَرَضَـــاً وأقْتُـــلُ قَوْمَهَـــا
زَعْمـــًا لَعَمْرُ أبيكَ لَيْـــسَ بِمَزْعَـــمِ

وَلَقَدْ نَزَلْـــتِ فَـــلاَ تَظُنِّـــي غَيْـــرَهُ
مِنِّي بِمَنْـــزِلَةِ المُحَـــبِّ المُكْـــرَمِ

كَيْفَ المَزَارُ وَقَـــدْ تَرَبَّـــعَ أهْلُهَـــا
بعُنَيْزَتَيْـــنِ وَأهْلُنَـــا بـــالغَيْلَـــمِ

إنْ كُنْتِ أزمَعْتِ الفِـــرَاقَ فَإنَّمَـــا
زُمَّـتْ ركَابُكـــمُ بلَيْـــلٍ مُظْلِـــمِ



ويفتتحُ مُعلَّقتَهُ باستفهـــامٍ تساؤليٍّ مُوَجَّـــهٍ لـــذوي الفكـــر ، أو للشُّعراءِ ، فيه فكرةٌ لكشفِ ما يراهُ ، حيثُ يقولُ : إنَّ الشُّعراءَ لم يتركوا معنًـــى إلا وصـــوَّروه فـــي أسَاليبِهم الشِّعريـــَّةِ لأنَّ الرَّدْمَ لغـــةً هـــو سَـــدُّ الفُـــرَجِ والفتحات ، أو يَبِيْسُ الغُصْـنِ بَعْـدَ اخْضِرَارِه ، فالشُّعـــراءُ لـــم يـــتركوا لزملائِهم صـــورةً من الصُّوَرِ أو كُـــوَّةً من الكُـــوَى تشـــرقُ منها شمسُ فِكْـــرٍ تُنيرُ الطَّريقَ للشُّعـــراءِ المتأخِّرين حتَّى يقبســـوا مِـــنْ أشـــعَّتها ، وينسِجُـــوا خُيُوْطَهَا أطيافًا مُلَوَّنَةً من أطيافِها ، فَكُلُّ ما يقولونه في رأيِ عنترة أنَّه مُعـــارٌ أو مقتبسٌ معادٌ .

والرُّؤيةُ الواضحـــةُ المشاهدةُ في سماءِ الفكرِ : أنَّ الفكرَ لا يمـــوتُ ولا يَبْلَى ، ويتجدَّدُ صُوَرًا جديدةً ، في كلِّ إشراقةِ ضوءٍ : إشراقةُ معنًى جديـــد يتطوَّرُ مع تطورِ الحياةِ في سيرِها المُجِدِّ ، فالواقعُ الملمـــوسُ يشـيرُ إلـى أنَّ الشُّعـراءَ القدامَى تركوا في أُفقِ الفكـرِ ثروةً من الألـــوانِ الفكريَّـــة ، ومـن المعانـي آلافًا وآلافًا من الكنوزِ لم تحتـوِ عليهـا آفاقُ أشعارِهم ولـم تُلَوِّنْـهَا ريشـةُ فَنِّهِمْ لأنَّ الفكـرَ يتطـوَّرُ ويَتَجَدَّدُ مع ضـوءِ الفجر ، ومـــع إشـراقةِ القمر ، ومع إطلالةِ كُلِّ ضَوْءٍ وسرى المَجَرَّاتِ الشَّمْسِيَّةِ .

ففـي كُـلِّ إشراقـةِ ضـــوء لرفـــةُ وردةٍ : إشراقـــةُ معنًـى جديد ، وولادةُ فكرٍ لـــم يَـأْتِ بـــه الأوَّلـــون ، ولَـــوْ صَدَقَـــتْ رؤيـــةُ عنتـرة لَمَاتَ الفِكْرُ ، والشِّعْـرُ ، والأَدَبُ ، وكفَّنَّاه شلـــوًا بـــاردًا ضاع في طيَّات التَّاريخ ، ولا تـرى له أثرًا ، ولا حسًّا ؛ غـــيرَ أنَّ المشـاهدةَ الحيَّـةَ تشعـرُك بنبضـاتِ الحيـــاةِ تتجـدَّدُ فـــــي كـــلِّ إطلالـــةِ صبـــاح ، وإغماضــــةِ جَفْـنِ شَفَـقٍ ، وهــــدوءِ ليـــلٍ ، وسكـــونِ بحـرٍ .. فمـا أكثـرَ الجديـدَ تحتَ ضوءِ الشَّمسِ !! فالحيـــاةُ فـــي سيرِها تتطـوَّرُ وتَتَجَـدَّدُ كتَجَدُّدِ أيَّامِهَـا فيولـدُ من سمائِهـا كُـــلَّ يـــومٍ فكـــرٌ جديـدٌ يَقْبِـسُ منـــه المفكِّـرونَ ، ويرسمُونَـه نِبْرَاسـًا يضــيءُ في عُتْمَـــةِ اللَّيلِ ويُرْشِدُ الأجيالَ .

لَوْ نَفَضْتَ أَيُّهَا الشَّاعرُ عنكَ غبارَ الزَّمـــنِ ، وأشـرفْتَ مـن كُـوى الماضي لرأيتَ ما يَبْهَرُ عقلَكَ من جِدَّةِ المعاني ، وتَطَوِرِها ، ولمَا قُلْتَ ما قلت :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِـن مُتَــــــرَدَّمِ

أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْـــدَ تَوَهُّـــمِ

فعنترةُ فِيْ هذه القصيدةِ المُعلَّقةِ يَتَغَزَّلُ ، ويشَببُ ببنتِ عَمِّهِ عبلـــــةَ الَّتي كُلَّمَا تَحَبَّــبَ إليها ودَلَّهَهُ حُبُّهَا ازدادتْ منـــهُ نفوراً وبُعْدًا ، ولا نعلمُ هـــل هذه الظَّاهرةُ النَّفسيَّةُ هـــي مِنْ الدَّلِّ ، أمْ هي من الفرك ؟! فـــهو يمضـــي فـــي تصويرِ عواطِفِهِ الجَيَّاشَـــةِ ، وفي حُبِّهِ العَارِمِ ، وَإِنَّ هـــذا التَّصْوِيْـــرَ يُصَـــوِّرُهُ الشَّاعِـــرُ فـــي حرفِـــهِ بـــدون أَنْ يُعْطِيَنَـــا أيَّ إشـــــارةٍ رمزيَّـــــةٍ لتلـــك الظَّاهـــــرةِ النَّفسيَّـــةِ ... فيفاجئُنَـــا الشَّاعـــــــرُ بتحيَّـــــــةِ العاشـــقِ لحبيبتـــهِ ، بعواطفَ رقيقـــةٍ يسكـــبُ قلبَه فـــي تلك الحـــروفِ فـــي صيغـــةِ أسلـــوبِ علـــى منهجيَّةِ العصرِ الجاهليِّ ، ويصبغُها بصبغةِ بيئته الَّتي يعيـــشُ على أرْضِها : –

يَا دَارَ عَبْلَــةَ بالجِـــوَاءِ تَكَلَّمِـــــــي

وَعِمِي صَبَاحَـــا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِـــــي

فالتَّأمُّلُ الدَّقيقُ لهذا البيتِ يعطيك صورةً فيها لهفةُ شوقٍ عارمٍ للقـــاءِ حبيبٍ بحبيبِـــهِ فهو يخاطبُ الدَّارَ الَّتي أغرقَهَا الجوى ، ويطلبُ منها الـــرَّدَّ ثُـــمَّ يُلقي إليها التَّحيَّةَ ويدعو لها بالحياة .

وهـــذه الحروفُ لا تشيرُ إلى الدَّارِ إنَّما ترمزُ لمن يعيشُ فـــي هـــذه الدَّارِ وفيها عذوبـــةٌ ، ورقَّةٌ من شاعرٍ جاهليٍّ ، كما يصفُ مظاهرَ حياتِهِ فـــي ذلك العصرِ :النَّاقةَ ، والكلأَ ، والصَّحراءَ والرِّمالَ السَّمراءَ الصَّاديةَ ، كقلـــبِ العاشقِ المتعطِّشِ إلى رشفةٍ مَعِيْنٍ من ثغرِ حبيبتِهِ .. فـــهي صـــورةٌ تتحـــرَّكُ وتتسلسلُ فِيْ قصيدتِـــه الَّتي تربو علـــى أربعةٍ وسبعين بيتًا من الشِّعر ، وكـــان فيها رَسَّامًا رائعًا يرســـمُ عصـــرَهُ حيـــثُ أنَّ الشِّعـــرَ يقاسُ بالزَّمنِ الَّذي وُلِـــدَ فيه ، والأرضيَّةِ الَّتي نمت منها تلك البذور ، وقَدْ تنبُ منه وثباتٌ مـــن وثبـــاتِ

العبقريَّة ؛ فعنتــرةُ يصــوِّرُ ثغــرَ حبيبتــهِ في أسلوبٍ سحريٍّ عذبٍ كعذوبــةِ لمى ثغرِ حبيبتِه : -

إذْ تَسْتَبيكَ بِذِي غـــرُوبٍ واضِــحٍ

عَـــذْبٍ مُقبَّلُــهُ لَذِيـــذِ المَطْعَـــمِ

إنَّ هذا الوصــفَ لا يزالُ يحتفـظُ بجدَّتِــهِ بِرَغْــمِ هُــوَّةِ الفَــارِقِ الزَّمني بيننا وبينَه بقرونٍ وقرون ، ولَكِنَّنَا لا نزالُ نســـتعذبُهُ ويســتهوينا فــي صورتِه .

وعنتــرةُ من شعــراءِ العصرِ الجاهليِّ الَّذي بنى لـــه هرمًــا مــن البطولــةِ والنَّخْوَةِ ، ومجدًا ضخمًا من الشِّعــرِ حتَّــى أوصلَه إلى قِمَّةٍ تَأَلُّقِيَّـــةٍ جلسَ عليها يسامرُ الكواكبَ ، ويرنو من علٍ إلى الحياة .

ويمضي عنترةُ في هذهِ المعلَّقةِ فيصوِّرُ حبيبَتَهُ روضــةً من الرِّيــاضِ تمــلأُ الأفُقَ بعطرِها برغــمِ حياتِــهِ الصَّحراويَّةِ الَّتـــي هــيَ قطعــةٌ مــن الصَّحراءِ القاسيةِ ، لا روضَ فيها ولا جدولَ ولا بلبلَ : -

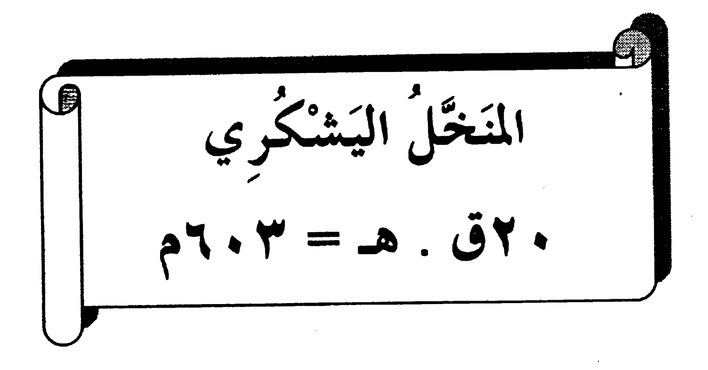
أوْ رَوْضَــةً أنفًا تَضَمَّـــنَ نَبْتَهَـــا

غَيْثٌ قَليلُ الدِّمْنِ لَيْـــسَ بِمَعْلَـــمِ

وعنتــرةُ رسمَ حولَهُ التَّاريخُ قصصًا بطوليَّةً عندما غرَّرَ بــه عَمُّــهُ ليحرمَــهُ من زواجِ عبلــةَ بنتِ عمِّــهِ ، حيثُ اشترطَ عليهِ شروطًا تعجيزيَّةً لا طاقةَ لهُ بها كألفِ ناقةٍ معصفرةٍ ... إلــى مثلِ تلك الطَّلبــاتِ الخياليَّــةِ ، كمــا يرويها التَّاريخُ حتَّى تخلوَ البلادُ من شخصــه ، فيغادرَ ديارَ حبيبَتِه عبلةَ ؛ فــإذا بها تُزَفُّ إلى ثانٍ فيعودُ بالمعجزةِ، فإذا الحبيبةُ فريسةٌ اصْطَادَهَا الصَّيَّادُ فوَقَــعَ

الخبـــرُ عليه وقوعَ الزّلازلِ والصَّواعق ، فاحتـــرقَ شِلْوًا هامــــــدًا ، وأُسْـــدِلَ السِّتارَ على حياةِ شاعرٍ وبطلٍ من أبطالِ العصرِ الجاهليٍّ .

ونختـــمُ هذا العرضَ التَّحليلـــيَّ بهـــذه القِصَّةِ التَّاريخيَّــــةِ ، لنســـيرَ لشاعرٍ آخر .


المَنَخَّلُ اليَشْكُرِي
٢٠ق . هـ = ٦٠٣م

اسمُهُ المنخَّل بن مسعود بن عامر ، من بنـــي يَشْــكُر ، روى عنــه التَّاريخ ألوانًا من الرِّوَايَــاتِ ، وَأَغْرَقَ فــي وَصفِــهِ بالفتنة ، وحُسْنِ الجَمَــالِ حتَّى شغف به النِّساء حُبًّا ، وكان ينادمُ النُّعمان بنَ المنذرِ أَحَدَ ملوكِ الحِيرة .

وهنا الرِّوايات التَّاريخيَّة تختلف فِيْ قتلهِ فقيل : إنَّهُ مضــى ضَحِيَّــةً لحُبِّهِ هنــدَ بــنتِ عمــر بــن هنــد ؛ حيــث شَبَّــبَ بهــا ، وَذَكَــرَ اسْـمَهَا فـــي رَائيَّتِـــهِ ، وحيـــن طـــار هـــــذا الشِّعـــــرُ كالصَّحيفــةِ السَّيَّــارَةِ ، وقَــرَأَهَا أبوهــا – والعصــر الجاهلــيُّ يأبـــى التغــزُّلَ فـــي بناتهم ، ويفسِّرُونها على أنواع من ضــروب التَّفاسير – فَقَتَلَهُ .

وقيل إنَّ هذه القصيدة هيَ في هند زوجة النُّعمان بن المنــذر ، وقــد شغفها المنخَّل حُبــًّا ، وفـــي أمسية من الأمســيات خــرج المنخَّــل للصَّيــد فخرجــت هند زوجة النُّعمـــان والتقت بـــه ، فـــأرادت أنْ تقيِّـــد الحبيبيــن والحبَّ معًا فـــي إطـــار واحـــد ، كأنَّها تريـــد دليلاً علـــى ارتباط القلبيـــن فأتتْ بقيــدٍ ، وقيَّدت رجلهــا بحلقــة منـــه ، والحلقــة الأخــرى قيَّدت بـــها رجل المنخَّل ، فجاء زوجـــها النُّعمان بـــن المنـــذر ، ولــم يتحرَّكَا ، فشـــاهد هذا المنظر للعاشقين ، فأمر بقتل المنخَّل ، فقتل .

وقَدْ سعى المنخَّل عند النُّعمان بالشَّاعر النَّابغة الذُّبيـــاني فـــي أمـــر المتجرِّدة – زوجــة النُّعمان – وكان للنَّابغة قصيدةٌ في المتجرِّدة ، منها بيـــتٌ يمثِّــل شريطًــا سينمائيًّا ، فـــــي حيــاة متحرِّكــةٍ ، كَأَنَّـــهَا مــن صُــوَرِ تمثيــل روايات هذا العصر ، وسيبقى هذا التَّصوير ما بقيت الحياة : –

سقطَ الــرِّداءُ ، وَلــم تَــرِد إسقاطُـــهُ

وَتَنـــاولتـــهُ ، واتَّقـتنَـــا بــاليـــدِ

إنَّهُ لمشهدٌ متحرّكٌ في صُورٍ متحرّكةٍ آخذةٍ باللُّبِّ ، ولم تكن هذه الجمل تفي بتصوير واقع هذا المشهد ، حتَّى أُجَسِّدَ مفهومَهُ ، في هذا المنظرِ الغريب العجيب ، لأَنَّهُ ليس من بحثي .

وهكذا البشر الَّذِي يسعى بأخيه في شَرَكٍ ينصبُه له قد يصطاد به ... وإليكم هذه القصيدة الرَّائيَّة الَّتي طوَّفت في سماء الأزمان والعصور .

إنْ كُنْتِ عَاذِلَتِي ، فَسِيرِي
نحوَ العِرَاقِ وَلاَ تَحُوري
لاَ تَسْأَلِي عَنْ جُلِّ مَا لي
وَانظُري حَسَبي ، وَخِيرِي
وَإذَا الرِّيَاحُ تَكَمَّشَتْ
بجَوَانِبِ البَيْتِ الكَبِيرِ
ألْفَيْتِنِي هَشَّ النَّدَى
بشَرِيجِ قِدْحِي أو شَجِيرِي
وَفَوَارسٍ كَأُوَار حَرِّ
النَّار أحْلاَسِ الذُّكُور
شَدُّوا دَوَابِرَ بَيْضِهِمْ
في كُلِّ مُحْكَمَةِ القَتِيرِ
وَاسْتَلأَمُوا وَتَلَبَّبُوا
إنَّ التَّلَبُّبَ لِلْمُغِيرِ
وَعَلَى الجِيَادِ المضْمَرَاتِ
فَوَارسٌ مِثْلَ الصُّقُور

يَخْرُجْنَ مِــــنْ خَـــلَلِ الغُبَـــار
يَـــجِـــفْـــنَ بِالنَّعَـــمِ الكَثِيـــــرِ
أقْـــرَرْتُ عَيْنِـــي مِـــنْ أولئِـــكَ
وَالفَـــوَائِـــحِ بالعَبِيـــرِ
يَرفُلْنَ فِي المِسْـــكِ الذَّكِـــيِّ
وَصَـــائِـــكٍ كَـــدَمِ النَّحِيـــرِ
يَعْكُفْنَ مِثْـــلَ أسَـــاوِدِ الـــــ
ـتَّنُّـــومِ ، لَـمْ تُعْكَـــفْ لِـــزُورِ
وَلَقَـدْ دَخَلْـــتُ عَلَـــى الفَتَـــا
ةِ الـخِـــدْرَ فـــي اليَـــوْمِ المَطِيـــرِ
الكَاعِـــبِ الْحَسْنَـــاءِ تَـــرْ
فُـــلُ فـــي الدِّمَقْـــسِ وَفِي الحرِيـــرِ
فَدَفَـعْـتُـهَـــا فَـتَـدَافَعَـــتْ
مَشْـــيَ القَطَـــاةِ إلـــى الغَدِيـــرِ
وَلَثَمْتُـهَـــا فَـتَـنَـفَّـســـتْ
كتَنَفُّـــسِ الـظَّـبْـــيِ البَهِيـــرِ
فَدَنَـــتْ وَقَالَـــتْ يَامُنَــــ
خَّلُ مَا بِجِسْمِـــكَ مِـــنْ حَـــرُورِ
مَا شَفَّ جِسْمِـــي غَيْـــرُ حُـــ
بِّـــكِ فَاهْدَئِـــي عَنِّي وَسِيـــرِي
وأُحِـبُّـهَـــا وَتُـحِـبُّـنِـــي
وَيُحِـــبُّ نَاقَتَهَـــا بَعِيـــرِي

يَـــا رُبَّ يَـــوْمٍ لِلْـمُـنَـــــــــــ
خَّلٍ قَـدْ لَهَـــا فِيـــهِ قَصِيــــــرِ
فَــــإذَا انـتَـشَيْــــتُ فَإنَّنـــِـــي
رَبُّ الـخَـــوَرْنَـــقِ والسَّدِيــــــرِ
وَإذَا صَـحَـــــوْتُ فَـإنَّـنـــِـــي
رَبُّ الـشُّــوَيْهَـــــــةِ وَالـبَعِيــــــرِ
وَلَقَـدْ شَرِبْـــتُ مِـــنَ المـــدَا
مَـــــةِ بِالقَلِيـــــلِ وَبالْكَثِيـــــرِ
يَـــاهِنْــــدُ مَـــنْ لِمُتَيَّـــــمٍ
يَـاهِنْــــدُ لِلعَانـــي الأَسِيــــرِ

❦ ❦ ❦

هَذِهِ لَوْحَةٌ من لوحات الفَنِّ برغم القرون الَّتي تَفْصِلُ بيـــنَ عَصْرِنَـــا وعَصْرِهَا ، وهَكَذَا الفَنُّ والإبداع ، يبقى فَنًّا على مَمَرِّ العُصُورِ والدُّهُورِ .

افْتَتَحَ الشَّاعِرُ لَوْحَتَهُ الفَنِّيَّةَ بعتـــابِ عَاشِـقٍ فَيَّـــاضٍ مـــن قلـــبٍ ولْهَان ، في أسلوب رقيق يسري كالنَّسَائم العليلة في الفجر النَــــدِيِّ ، عندمــــا يُدَاعِبُ أوراقَ الشَّجَرِ، هو كالضَّوءِ يَنْفُذُ بِدُونِ جِهَازٍ إلى قلبِ حَبِيبَتِهِ .

وكَأَنَّ حبيبته تناجيه مناجاةَ الرُّوحِ للرُّوح : أَيُّهَا الحبيبُ الولْـــهَانُ لا تُغَلِّفْ عَتَبَكَ بِوَهَجِ العِشْقِ ؛ فَإنَّ فؤادي هو كالطَّيْرِ يَرِفُّ ويحوم حَوْلَــكَ ، كَمَــا يَحُومُ على ضِفَّةِ الجَدْوَلِ ، حينما يَرْتَشِفُ المَاءَ العَــذْبَ ، فهو يعيـــش مَعَــكَ على رفرف الحُبِّ والغرام ، ويصوِّرُ الحبَّ حُبًّا روحيًّا ، لا حبًّا ماديًّا ؛ حيـــث يفنى الحُبُّ الماديُّ ، ويبقى حبُّ الـــرُّوح .. لأنَّ الحُبَّ الماديَّ لا تمتـدُّ ظِلالُـــه

على وَهَجِ نارِ العِشق ، فتأكله ويذوب شلوًا هامدًا ويتحـــول رمـــادًا فينكمــش بانكماش غاياته .

ويطلع الشَّاعــر مِنْ أفقِ حُبِّه ، كفارس يفخــر بحســبه ، وذاتـــه الخَيِّرَة ، ويكمل الشَّاعِرُ تأطيرَ الصُّورَةِ ، فيصــوِّر شجاعة قومـــهِ : فــوارسَ مغامرينَ ، كما يصوِّر تَكَمُّشَ الرِّيْح ، عندما تَتَعَالَى مُدَوِّيَةً بأصواتها ، فتتكمــش في البيت الكبير ! وهل هــذا الانكماش والتَقَلُّـــصُ هــدوءٌ ؟ بحيــث تضيــع الأصــواتُ وراء جدران القصر الَّتي لا تصل إليه الأصوات مـــن الرِّيـــاح أو البشر ، أو هل انكماشُها سرعتُها ؟ وهنا يحلــو للمنخَّـــل النَّخْــبُ علــى دَوِيٍّ زَمْجَرَةِ الرِّيْحِ فـــي ليالـــي الشِّتَــاء القَــارَّةِ المتلبِّـدَةِ بالغيـــوم ، والمنهملــة بالأمطار ... فعندهـــا يحلــو السَّمَرُ ، والسَّهَرُ على مائــدة الغـــرام ، وكــأسِ المُدَام ، حيث يعيش في أُفقِ حضارةٍ ، بعد أنْ دفن بَدَاوتَهُ في الرِّمَالِ السَّـــمراء الصَّادية المتموِّجَةِ ، تحــت أشِعَّـــةِ الشَّــمْسِ الذَّهَبِيَّـــةِ ، وأضـــواءِ القمـــر الفضِّيَّـــةِ ، واستَبْدَلَ عــن الصَّحراء – الطَّبيعة القاسية – بقصور النُّعمان بـــن المنذر . وقد ورد في مجامع اللُّغـــة (تكمَّش الرَّجل : إذا أسرع ؛ والتَّكمُّش بمعنى : التقلُّص) .

ويعود الشَّاعِرُ إلـــى وَصْفِ مكارم الأخـــــلاق ، وَصِفَـــاتِ قومـــه الحميدة ، ولا نُرِيْدُ أَنْ نَقِفَ على هذه المناظـــــر ، ونَعْرِضَــهَا كمـــا يعــرض السِّينمائِيُّ على شاشته مَشَاهِدَهُ بما فيها من حُسْنٍ وَقُبْح .

ويصـــحُّ لنا – ونحن نتابع هذه الصُّوَر – أن نقول إِنَّ هذه القصيـــدة فيها العناصـــر الأوَّلِيَّةُ لِلقصَّةِ فـــي الشِّعـــر العربيِّ ، وَإِنْ لم تكتملْ بحلقاتـــــها وفصولها ، ففيها مَبْدَأُ الحوار ، والتَّخاطب بلغة الحبِّ ، لغة القلوب والعيون .

فالشَّاعر يصوِّر قصَّةً من أبـــدع القصص الغراميَّـــة يتجلَّـــى فيـــها الفنُّ ، والبلاغةُ ، والسَّهلُ الممتنعُ ...! أنظرْ معي هذه الصُّورةَ المتحرِّكةَ ، فـــي

شريط متحرِّك ، فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يعيش على قِمَّةِ القرن العشرين ، ويتحاورُ مـــع أبنائه في أساليبهم ولغــتهم ، ويقرأ صفحاتِ حياتِــهِمْ ، ويعيش عيشتهمْ : -

وَلَقَـــدْ دَخَلْـــتُ عَلَـــى الفَتَـــا

ةِ الخِدْرَ فـــي اليَـــــوْمِ المَطِيــــرِ

الكَاعِـــبِ الْحَسْنَـــــاءِ تَـــرْ

فُـــــلُ فـــي الدِّمَقْـسِ وَفِي الحَرِيـــرِ

والشَّاعر رسم مبدأ حياةقِصتَّتِهِ يَوْمَ لقائه بحبيبته ، فَأَوْغَلَ في إبداعــه وَرَتَّبَ الحياةَ فصــولاً بعد فصول .. " اليــوم مطير " والمَطَــرُ يَفْتَــحُ صـُـورَاً للشُّعَرَاءِ والعاشقين ويزيد هذا المنظرَ سِحْرًا اللِّقاءُ في يومٍ مطــير ، " والكـاعب الحسناء " تَتَجلَّى في أجمــل حُلَّةٍ من حُلَلِهَا فتزيدها جمالاً على جمال ، وكـــان للشَّاعر وثبةٌ من وثبات الخيال ساعةَ اللِّقاء .
تَصَوَّرْ معي هذا المنظرَ : -

فَـدَفعتُـهَـــــا فَــتَــدَافَـعَــــتْ

مَـشْـــيَ القَطَــــاةِ إلــى الغَديـرِ

إنَّهُ الشَّــوق ، الشَّوقُ المَشْبُــوبُ الَّذي لا يطفئُ وَهَجَــهُ المتوقِّــدَ إلاَّ لقاءُ الحَبِيْبَيْنِ ... كالقطـــاة الصَّدْيَا لا يطفـــئُ لَهَبَهَا إلا جرعـــةٌ مـــن نَمِـيرِ مـــاءِ الغديـــرِ ، تصويرٌ من أبدع التَّصوير .

ثُــمَّ يصــوِّرُ التقــاءَ الثَّغْــرِ بالثَّغْرِ ، وكَيْفَ كـــان يَعقِــبُ هَــذِهِ الرَّشفةَ ، التَّنفُّسُ ، ولكــن : تنفُّــسُ الظَّبيِ البــهير أيِ الجَميــل ، إلـــى آخــر المُسَلْسَلِ من هذه المناظر :

وَلَثَمْتُهـــــَـــا فَـتَـنَـفَّـسَـــتْ
كَتنَفُّسِ الظَّبْــــيِ البَهِــــيرِ

فَدَنَتْ وَقَالَـــــتْ يَـــا مُنـَــــ
خَّـــلُ مَـــا بِجِسْمِكَ مِــنْ حَـــرُور

مَـا شَفَّ جِسْمِي غَيْـــرُ حُــــ
بِّــــكِ فَاهْدَئِي عَنِّي وَسِيـــرِي

وأُحِــبُّـهَـــا وَتُـحِـبُّـنـِــي
وَيُحِـــبُّ نَاقَتَهَـــا بَعِيـــرِي

يَـــارُبَّ يَـــوْمٍ لِلمُنـَــــ
خَّـلِ قَدْ لَهَا فيـــهِ قَصِيـــرِ

فَــإذَا انتَشَيْـــتُ فَإنَّنـِــي
رَبُّ الـخَـوَرْنَـــقِ والسَّدِيـــرِ

وَإذَا صَحَـــوْتُ فَـإنَّـنـِــــي

رَبُّ الشُّـوَيْهَـــةِ وَالبَعِيــــــــرِ

وَلَقَـدْ شَـرِبْــتُ مِـنَ المُدَامـــــةِ

بِالقَـلـيـــــــــلِ وَبِالْكَـثِـيـــرِ

يَاهِنـْــــدُ مَـــنْ لِـمُـتَـيَّـــمٍ

يَاهِنـْــدُ لِلعَانـــــي الأَسِيـــرِ

وقفةً معي أيُّها القارئ لتشاهد هذا الشَّريط السِّينمائيَّ الَّذي يجسِّـــدُ اللَّهفـــةَ ، والولَهَ يومَ لقـــاءِ الحَبِيبينِ ومـــا تَكَلَّمَ به الحــــبُّ ، وتفـــاهم القلبـــانِ والعَيْنَان ، بلغـــةٍ لا يدرك أَسْرَارَهَا ، ومَعَانِيَهَا إلاَّ الَّذين ذابـــوا فــي مجـامِرِ الحُـــبِّ ، واكْتَوَوا بِوَهَجِهِ .

ولستُ فــي حاجةٍ إلى أن أصوِّرَ لك هذه المناظر العاطفيـــَّة ، لمــا فيها من جمالٍ ســاحر تلتهمه القلوب والعيــون ، فهيَ صورةٌ متحرِّكة تصــوِّرُ نفسها بنفسِها ... ولكنَّ الحبَّ عندما طغى كطغيان اليَمِّ الـــهادر ، وثــار ثـــورة البراكيــنِ المتفجِّــرَةِ ، ولمـــع كأضـــواء الشَّمْسِ فـــي لغـــةٍ روحيَّـــةٍ سَــرَتْ أسْرَارُهَا في قلـــوب الحيوانـــات – أداةِ المواصلات – ويجسِّـــدُ هـــذا الحُـــبَّ الشَّاعرُ المنخَّلُ تجسيـــدًا محسوسًــا مصـــوَّرًا مـــن واقع حياتـــهِ ... يحـــسُّ

هذا الحُبَّ ، وهــذا الهيام : البعيرُ الَّذي يــمتطيهِ ؛ فالبعيرُ يحِبُّ ناقةَ محبوبَتِــهِ كَمَا يُحِبُّ هو حَبِيبتهُ .

وهذا التَّصْوِيرُ من أروعِ التَّصويرِ فــي الحُبِّ والهيــام ، وهــــذه التَّرْجَمَةُ الرُّوحِيَّةُ فــي أسمــى لغة ، وأبدع تعبير .

وأُحِـبُّـهَـــــا وَتُـحِـبُّـنِــــي

وَيُحِــبُّ نَاقَـتَهَــا بَعِيــــرِي

ويتصوَّر – وهو في نشوته – أنَّه لم يكن ذلك الصَّحــراويَّ الَّــذِي يعيــش تحــت لَهَبِ الشَّمــس وهجيــرِ الصَّحْـرَاءِ ، وفقدانـــه لواقعــه الصَّحراويِّ ، فيخيَّلُ لــه أنَّهُ رَبُّ القصــور ..! وعندما يصحو ، يعــود إلــى واقعهِ فإنَّه رَبُّ الشُّويهة والبعير .

ويختتم هــذه اللَّوحــة الفنيَّة بنــداءٍ فيــه تَذَلُّلٌ ، وخضـــوعٌ ولهفــةٌ ، وشــوقٌ :

يَاهِــنْــدُ مَــــنْ لِمُتَيَّــمٍ

يَاهِنْــدُ لِلعَانــــي الأَسِيــــرِ

. . . ونسير من أفق الشَّاعر المنخَّل ، إلى أُفُق شاعرٍ آخر .

طَرَفَةُ بْنُ العَبْد

(٥٣٨هـ - ٥٦٤م)

الشّاعــر طرفة العبديُّ شاعرٌ ، من شعراء القطيــف .. ولــد فــي البحرين ؛ وتخصيصي ونسبتي لــه كَونَه من القطيــف ، حيــث إنّ البحريــن تُطلق علــى القطيف ، وأُوال ، والأحساء ، ولم تُشِرِ المصادر التّاريخيَّة ، إلــى المفهــوم الخاص لهذه الأقطار من الجزيــرة العربيَّــة ، كــأوال ، والقطيــف والأحساء .

وبَعْضُ القِصَصِ التّاريخيَّة ، والأحداث السياسيَّة الّتي وَقَعَــتْ فــي عصــره تخصِّص نشأتــه فــي القطيــف ! ولأن أبــاه وأمّــه مــن قبيلتــي بكــر ، ووائــل ، بكــر ، ووائــل قبيلتــان عربيَّتــان أصيلتــان تسكنــان القطيف ، وتتجوَّلان بين تَلَعَاتِ نجــد ، وضفاف الخليــج حتَّى أُطلــق علــى القطيف : بنت بكر ، ووائل ، وتغلب .

ولســت أُريد هنا أن أدرس العوامل التّاريخيَّــة الّتي تحقِّق وتثبــت نشأة طرفــة – في واقعها الّــذي لا يَتَطَرَّقُ لــه الشَّكُّ – على أيِّ أَرْضيَّــةٍ نَبَت عَلَيْهَــا من أراضــي الجزيــرة ..؟ القطيــف أم أُوال – المعروفــة بالبحــرين اليــوم – ... ولكنّنــي أقرِّب – حسـب العوامــل الزّمنيَّــة الّتــي أشرتُ لها في صدر هذا الحرف – أنَّه قطيفيٌّ .. والله أعلم بالحقيقة .

فهــذا الشّاعــر الشّــاب التَّيَّاهُ الّــذي أغرق عُمــرَهُ فــي اللّــهو واللَّعب .. وبرغــم هذا العُمْرِ القصير الّذي يشبه الوردَ ، أو أفياءً مــن أفيــاءِ أمسيةٍ أصيــلٍ ، اخترم في ميعة شباب ، أثمــر وأورق ذلــك العمــر : أوراداً تَفَتَّحَتْ عن حِكَمٍ ، وتجارب لا يصل لها الشَّيخ المعمَّر الّذي فَنِــيَ عُمُــرُهُ فــي تجارب أحداث الزّمــان ، وأحواله ، وألوان الدّهــر ، وغــيره فــي صروفــه المتلاحقة .

فطرفة ترك من الشِّعر ثروةً أثرى بها الحرف ، فلا يـزال حرفه مُخْضَوْضِرًا يسقي الأرواح ، ويَمُدُّ الحياةَ بطاقات تَتَفَجَّرُ مَعَانِيَ ، وتدور مع الفلك الدَّائر في معلَّقته الدَّاليَّةِ الَّتي هي إحْدَى المعلَّقاتِ اللاَّتي مَلأْنَ سَمْعَ الزَّمان دَوِيًّا وهتافًا ولا تـزال تُعَدُّ حولها الدِّراسات ، برغم الفجوة الزَّمنيَّة الَّتي تفصلنا قرونًا وقرونًا ، بين عصرنا وعصره .

ولنأخذْ من هذا الكنزِ قصيدته المعلَّقة الدَّاليَّة الَّتي كانت من عيون المعلَّقات ، وتزخر بالتَّجارب ، والحكم ، وتعكس شبابه اللاَّهيَ الانتهازي الَّذي ينهب اللَّذات ، ولا يحفل إلاَّ بكأس الصَّهباء ؛ فينفق السَّاعات في اللَّهو والدَّدِ .

ولنأخذ من هذه الملحمة المعلَّقة – الَّتي تربو على مائة وثلاثة أبيات – بعض مقاطع من مقاطعها لنقفَ على ما فيها من صُوَرٍ ومناظر ، ثمَّ نعود لما فيها من حكم ، وتجارب ، فنحلِّل بعض المقاطع ، الَّتي صوَّر فيها الشَّاعر انتهازيَّته فهي (ألبوم) يحتوي على شتَّى صورٍ متباينة ، جمعها إطار كما يجمع الألبومُ الصُّورَ المختلفةَ .

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ
تَلُوحُ كبَاقِي الوَشْمِ في ظَاهِرِ اليَدِ
وُقُوفًا بهَا صَحْبِي عَليَّ مَطِيَّهُمْ
يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أسًى وَتَجلَّدِ
كَأنَّ حُدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُدْوَةً
خَلاَيَا سَفِينٍ بالنَّواصِفِ مِنْ دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أوْ مِن سَفِينِ ابنِ يَامِنٍ
يَجُورُ بهَا المَلاَّحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

يَشُقُّ حَبَابَ المَـاءِ حَيزُومُهَـا بِهَـا
كمَـا قَسَـمَ التُّـربَ المُفَايلُ باليَـدِ

وَفي الحَيِّ أحْوى يَنفضُ الـمَرْدَ شَـادِنٌ
مُظَاهِـرُ سِمْطَـيْ لُؤلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدِ

خـذول تراعـي ربربًـا بخميلـةٍ
تنـاول أطـراف البريـر وترتـدِي

وَتَبْسِـمُ عَـن ألْمَـى كـأَنَّ مُنـوَّرًا
تَخلَّلَ حُـرَّ الرَّمْـلِ دِعْـصٌ لَـهُ نَـدِ

سَقَتْهُ إيَـاةُ الشَّمْـسِ إلاَّ لِثَاتِـهِ
أسِـفَّ وَلَمْ تَكْـدِمْ عَلَيْـهِ بإثْمِـدِ

وَوَجْهٍ كأَنَّ الشَّمسَ ألقَـتْ رِدَاءَهَـا
عَلَيْـهِ نَقِـيِّ اللَّـوْنِ لَـمْ يَتَخَـدَّدِ

❦ ❦ ❦

افتتح الشَّاعر قصيدته بتصوير وصف حياةٍ في عصره ، وجَسَّدَ ما فيها من روتين عاداتٍ ، ووضع اجتماعيٌّ درج عليه المجتمع النِّسائيُّ ، في ذلك العصر ، حيث يستعملون التَّجميل ، كما تستعمل الفتاة العصريَّة – اليوم – (المكياج) والأصباغ الَّتي تستعمل في يومنا الحديث .

ففي العصر القديم من أدوات التجميل : " الوشم " ؛ فهو من زينة الفتيات الَّتي كانت له الرَّوعةُ والجمال في ذلك العصر ، حتَّى أخذ الشُّعراءُ يتشبَّبون به ، ويصفونه صُوَرًا مِنَ الفَنِّ في أشعارهم .

وللوشم أساليبُ تستعمله فتاةُ ذلك العصر عن طريق إبرة الخياطة ، أو ما يماثلُها ، في أساليبِ تصوَّر في دائرات ، على هيئة نقط خضراء ، على أسلوب نجوم ، أو قمر ، أو كصورة ظبيٍ ، أو في هيئة سلسلة لونٍ أخضر على ظاهر كفٍّ اليدين ، أو بين الحاجبين ، أو على ظهر الفكّ الأسفل ، أو في الذِّراعين ، فيكون له روعة تزيده جمالاً في الجسم الأبيض ، وبقيت هذه العادة إلى عهدٍ قريب .

فالشَّاعر حينما صوَّر الأطلال بمحل برقة ، تلوح حجارتها اللَّمَّاعة ، تحت ضياء الشَّمس ، كباقي الوشم في ظاهر كفٍّ الفتاة ، حينما تُلَوِّحُ بكفِّها ، فكان التَّشبيه رائعًا ، وهل تعرف الوشم يا قارئي الجديد ؟

إنَّ الوشم هو دقَّاتٌ تصوِّرها المرأة على ظهر يدها ، من نقاط خُضْرٍ في أُسلوبٍ رائعٍ ، وفي صور تَتَفَنَّنُ فيها ، فأحيانًا تكون الصُّورةُ مستديرةً تُشْبِهُ كُتَلَ النُّجُومِ ، وصورةً أخرى تكون على شَكْلِ غَزَالٍ ، كما تكون في ذراعيها الدَّاخِلِيِّ ، وفي فَكِّهَا الأسفل ، أو بين حاجبيها ، فتظهر الرَّوعة على روعة جمالها ، ولا سيَّما في البِيْض .

وقَدْ استمرَّت هذه العادة الجاهليَّة ، في هذه الجزيرة ولَعَلَّهَا توجد في بعض النِّساء القديمات ، ولم تقلع الفتياتُ عن هذه العادة إلا مِنْ قرابة أربعين عامًا ، أو أقل .. عندما فُتحت المدارس ، وتعلَّمت الفتاة وتثقَّفت ؛ فهذه حياةٌ عاشها الشَّاعر ، وشهدها فصوَّرها من واقع حياته ، في افتتاح معلَّقتهِ .

ويُثَنِّي افتتاحيَّته يطلب من صحبه وقوف المطايا موقفًا لا يوقفهم على الأسى والحزن والهلاك ، ويتطلَّب أَنَاةً من الصَّبر والتَّجلد ، ويَثِبُ الشَّاعر في الوصف فيصف النِّياق ، وهي تشقُّ رمال الصَّحراء ، كأنَّها سفنٌ تشقُّ عباب البحر ، فالنِّياق كانت أقوى جهاز مُوَاصَلاَتٍ في شَظَفِ الحياة - الحياة الصَّحْرَاوِيَّةِ - الَّتي لا تَتَحَمَّلُ السَّيْرَ في

صَلابتها ، وجُشُوبَتِهَا ، سوىَ تِلْكَ النِّيَاقِ الَّتي تظمأُ ، فتصبرُ على الظمأ فــترةً زمنيَّةً طويلةً ، فلا تَرِدُ الماءَ وهي تقطع الفيــافيَ ، وتشــقُّ الرِّمــال ، وتنــثر الحَصياتِ أمامها ووراءها ، كما تشقُّ السُّفنُ بصدرها موجَ البحرِ ، وتصــارعُ الموجَ فــي عَسْـفِهِ ، وهديره .

ويؤطِّر صورةَ وصفهِ فتراها تروح يمنةً ويسرةً ، كما يسير المــلاَّح في البحــر بسفينته يدفعها الموجُ ، على ضوء المنار الَّذي يرشد السُّفنَ ، فــهو يسير على منهجيَّةٍ انتهجها شعــراء ذلك العصر الجاهليِّ ، في أُســلوب عــدم توحيد موضــوع القصيدة – فيفــرغ في أُسلوب من عصره الَّــذي لا يحفــل بوحدة القصيدة ، بل يسكب فيها أضواءً مختلفة التَّلوينِ والهدف ، فــي صــور مختلفة ذات أغراضٍ في دروبٍ متعــرِّجة الغايةِ والآمالِ ، فليس معيبًــا فــي عصر طَرَفَةَ عدمُ وحدةِ القصيدة وتنويعُ الصُّوَرِ ، وهذه الصُّور المختلفة الَّتــي لَوَّنَهَا الشَّاعر بريشة الفنِّ لوحةً من ألواح عصره – لا نَقْدَ عليه عندهم ، وهــذا التَّنــوُّع من فصــول المشاهــد الَّتــي ترمــز حروفهــا لأهــدافٍ شتَّــى ، تُعَدُّ من الفصاحة ، والبلاغة .

ولْنَسِرْ إلى بعض مقاطع هذه المعلَّقة ، ونتحــدَّثْ مع الشَّــاعر مــن وراء القرون ، ونخاطبه في نجوى همســاتٍ روحيَّة :

حَدِّثْنَا أيُّها الشَّاعر ، عندما تحوَّلتَ فــي أبيــاتك ، إلــى (بيقوري) ينهبُ اللَّذَّاتِ ، ولا يحفل بشــيء إلا بهــا ، لأنَّ الخلــود لا يقدرُ على إخــلاده أحــدٌ ، فليس لعاذل – عند طرفــة – عاتبٌ يمنعه من حضور اللَّــذَّات ، وأنْ ينفق في شهواتهِ كلَّ ما ملكت يداه :

رَأَيــتُ بَنــي غَـبْــرَاءَ لا يُنْكِرُونَنــي

وَلاَ أهْلُ هَذَاكَ الطِّــرَافِ الُمــمَــدَّدِ

ألاَ أيُّهذَا اللاَّئِمي أحْضُــرَ الوَغـــــــى

وَأن أشْهَدَ اللّذّاتِ ، هَلْ أنتَ مُخلِـدِي ؟!

فإن كُنتَ لاَ تَسْطِيــعُ دَفْعَ مَنِيَّتـــــــي

فَدَعْني أبَادِرْهَا بِـمَــا مَلَـــكَتْ يَـــدِي !

فيعلن الشَّاعر (بيقوريَّته) الصَّارخة الصَّادئة إلى لذَّاتـــه ، فيرســمها صورةً متحرّكة ، ويعلن أثمن ما عنـــده في الحياة .. هيَ أمنيته في لذَّة كــــأسٍ وهي كــلُّ ما فـــي الحياة ، فيصوِّرها فـــي أبياتهِ الثَّلاثة ، كأسًا مـــن شـــربة كُمَيْتِيَّةِ اللَّون ، تنسيه همومه ، وتبعده عن عالم العقل فيغيب حسُّــه ، وتتعطَّــل حركاته .

ولولا هذه اللَّذَّات الثَّلاث الَّتي هيَ غايته في حياته ، لما حفل بحياتـــه ولا فـــرق – عنــده – لولا هذه اللَّذَّات البيقوريَّـــة ، متـــى زاره عـــوَّاده ، أو هجروه ، عند سقمهِ ، وهى تقرِّبُ رجليه من قبر منيَّته .

ويضرب الشَّاعر لإحدى اللَّذَّات الثَّلاث صورةً رائعـــةً ، مـــن أروع صور الحياة ، عندما يخلو بحبيبتهِ الفتاة الجميلة ، في خباءٍ على كبد الصَّحـــراء مطنبًا بالأعمدة في يوم داكن ملبَّد بالضَّباب ، فهيَ اللَّذَّة الثَّالثة ، والفرصة الَّتـــي يبادرها مـــن الحيـــاة ، وينهبهـــا مـــن العمـــر نهبًا ، فهـــو يَحْيَـــا للغـــرام والكأس ، ويموت على مذبح اللَّهو ، نَسِيَ عقلهُ ، وغرق في لذاتهِ .

وَلَولاَ ثَلاَثٌ هُنَّ مِـــنْ عِيشَةِ الفَتَـــــى

وَجَدِّكَ ، لَم أحْفِل مَتَى قَـــــــامَ عُـوَّدِي

فَمِنهُنَّ سَبْقي العَــاذِلاتِ بشَرْبَـــــــةٍ

كُمَيْتٍ ، مَتَى مَا تُعْلَ ، بالمَـــــــاءِ تُـــزْبِدِ

وَكَرّي إذَا نَادىَ المُضَـــافُ مُحنَّبـــــــاً

كَسِيـــــدِ الغَضَـا – نَبَّهْتَـهُ – المُتَـــوَرِّدِ

وَتَقْصِيرُ يَومْ الدُّجْنِ وَالدُّجْنُ مُعْجِـــــبٌ

بَبْهكَنَــــــةٍ تَحــتَ الخِبَاءِ المُعمَّـــــدِ

هذه المعلَّقة تحفل كما قلنا بصور ملوَّنة ، متباينة الأهــداف حينمـا يصوِّر الشَّاعر فكرته في هذا المقطع ، فتراه يجاهرُ في هذه الصُّـورة بفكرتـه المنحرفة الخاطئــة ، فيرى قبر الكريم كقبر البخيل ، والكريم هو الَّـذي متَّـع حياتــه ، والبخيل هو الَّذي حرم نفسه اللَّذَّات البيقوريَّـــة الإباحيَّـة ، فيصـدر الشَّاعر حكمه في أيُّهما الخاسرُ الصديُّ غدًا ؟!

ولعشقه للَّذَّات حتَّى الجنون ، يرى فيما بعد الموت : لا مــيزة لقـبر غويٍّ مفسدٍ في البطالة ، وبين قبر غيره الَّـذي لم يَجْرِ فـــي حلبتــهِ ، وهــذه مغالطةٌ نفسيَّةٌ من الشَّاعر ؛ لأنَّ هناك عالمًا برزخيًّا بين الدُّنيا والبعث ، يثــابُ المحسنُ على إحسانه ، ويجازى المسيءُ على إساءته .

فالشَّاعر ((طرفة)) لا ينفــذ إلى ما وراء الحقيقة ، بل يصوِّر مــا يراه ، من كومة تراب ظاهرة لعينيه ، وتخفى عليه الحقيقة ، فيساوي قبر مــن نهب اللَّذَّات ، بقبــر الَّذي قبض نفسه عن اللَّـــذَّات البيقوريَّـة ... همـا فـي مظهرهمـا التُّرابــيِّ لا فــرق ! بخــلاف مـا وراء هذيـن القـــبرين مـن حقائق ، لو كُشف لطرفة الغطاء لَنَدِمَ كلَّ النَّدم ! ولاتَ حين حيلة ندم .

والحقيقة أنَّ وراء القبر في البرزخ : العذاب للمسيء ، والنَّعيم للمحسن ، حتَّى يبعثهما الله في اليوم الآخر .

كَأَنَّ البُرِينَ والدَّمَاليجَ عُلِّقَتْ

عَلَى عُشَرٍ ، أوْ خِرْوَعٍ لَمْ يُخَضَّدِ

كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ

سَتَعْلَمُ إن مُتْنَا غَدًا أيُّنَا الصَّدِي

أرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ

كقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفسِدِ

تَرى جُثْوتَينِ مِن تُرَابٍ ، عَلَيْهِمَا

صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفيحٍ مُنَضَّدِ

ثمَّ يفيقُ الشَّاعر من سكرته البيقوريَّة ، فيتحوَّل إلى حياةٍ واقعيَّة ، فيضرب لنا أمثالاً حكميَّة ، برغم معارضتنا ونقدنا لخطإ النَّظرة الجاهليَّة الَّتي كرَّرها الشُّعراء الجاهليُّون ، حيث إنَّ الموت يخترم أعمار الكرماء ، ويصطفي أعمار البخلاء ، وهذه فكرة خاطئة ؛ فلكلٍّ أجلٍ كتاب ! أمَّا تصوير العيش بأنَّه كالكنز فينفذ كما تنفذ الأيام معه ؛ فهذه حكمةٌ وعظةٌ من العظات الواقعيَّة الملموسة في حياتنا .

وجسَّد الحقيقة الَّتي لا مَفَرَّ منها عندما يَعْلَقُ الموت بامرئٍ ، فلا منقذ له ، ولابدَّ أنَّ هذه الحياة ستطوى ، فهيَ كنز ينقصهُ كَرُّ الجديدَيْنِ .

أرىَ المَـــوتَ يَعْتامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَـــالِ الفَاحِـــشِ المُتَشَـــدِّدِ

أرىَ العَيْشَ كَنزًا نَاقِصًا كُـــلَّ لَيْلَــةٍ

ومَـــا تَنقُصِ الأيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَـــدِ

لعَمْرُكَ ، إنَّ المــوتَ مَا أخْطأَ الفَتــى

لَـكَـالِطَّوَلِ المُرْخـــى ، وَثِنْيَاهُ بِاليَــدِ

فَمَالـــي أرَانِي وَابنَ عَمِّيَ مالِكًـــا

مَتى أدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّـــي وَيَبْعُـــدِ

وهنا الشَّاعــر يصــوِّر الواقع الملموس ؛ فــي أسلوب سهل ممتنــع فيه سحرٌ ، وبلاغـــةٌ !

إنَّ ظلم ذوي القربــى أشــدُّ ألمــاً علــى النَّفــــس مــن تقطيــع السُّيــوف ، ثــمَّ يثــب الشَّاعــر إلــى وثبـــة فكـــرةٍ واقعيَّـــةٍ يؤمــن بالحقيقــة ، فيطلــب من بنــت معبــد - أي بنــت أخيه - أن تنعــاه حيــن موتــه ، بما هو فيه من واقعٍ ولا تفرِّغ على نعيها الصُّور الخياليَّة ، ولا تمثِّــل في رثائها لـــه فصولاً من حياته الدَّاعرة ، ولا تصوِّره في مشـــاهده المعربــدة وكفى بصاحب النَّقص نقصًا : أن لا يرضى بنسبتها له حتَّى بعد الموت !!

وهنا يجسِّد الشَّاعر فــي أبياتـــه : الحقيقـــة الملموسة الَّتي لا مفـــرَّ منهـــا ؛ إنَّ البشـــر مهيَّـــؤون للمـــوت ، فما أقـــرب رحيـــلَ اليـــــوم مـــن الغـــد ...؟! ويسكب لونـــا حزينًا على تلك الصُّـــورة المتحرِّكـــة .

إنَّ الحياة معارةٌ ، فالرَّجل العاقل هو الَّذي يزداد فيها من كرائم المعروف ، وينفق عمره في سبيل الخير ، ويرسم صورةً لتأثير الحياة البيئيَّة وارتباطها بالمجتمع ، حينما تقترن بالصَّداقة والأخوَّة ، وانطباعها في القرين ، والمقارنة ، والمصحابة ؛ فتعطيك حكمةً مَجْلُوَّةً كمرآة تعكس لك معرفة القرين بقرينه ، وهذه من الحقائق الَّتي تعايش البشر مُنْذُ وُجِدَ على هذا الكوكبِ حتَّى اليوم .

وفي خاتمة المعلَّقة ختامٌ زخمٌ من الحكمة ، حيث يطلب من المرء التَّريُّث حتَّى يهتك المستقبل الحجب ؛ فالأيَّام مرآة تعكس المستقبل ، وصحيفةٌ تنقل أنباء الحياة الآتية ، وإن لم يكُن بينك وبين أحداث الأيَّام موعدٌ مؤقَّت ، لمعرفتك بهذه الحياة المستقبليَّة ، ستنكشف صورةً سينمائيَّة ماثلة أمام عينيك وسمعك ، فترقب انطواء فصول الأيَّام المستقبليَّة ، وهذا من البلاغة والإبداع البيانيِّ :

وَظُلْمُ ذَوي القُرْبى أَشَدُّ مَضَاضَةً

عَلَى المَرْءِ مِنْ وقْعِ الحُسَامِ المهَنَّدِ

فَذَرْني وَخُلْقي ، إنَّني لَكَ شَاكِرٌ

وَلَوْ حَلَّ بَيتي نَائِيًا عِنْدَ ضَرْغَدِ

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدِ

وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدِ

فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثيرٍ ، وَزَارَني

بَنُونَ كِرامٌ سَادةٌ لِمُسَوَّدِ

أنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعرِفُونَه

خَشَاشٌ كَرَاسِ الحَيَّةِ المتَوَقِّدِ

فَـإنْ مُــتُّ فَـانْـعَـيْـنِـي بِـمَـا أنَا أهْلُـــهُ

وَشُقِّي عَلَيَّ الجَيْـــبَ يَا ابنَـــةَ مَعْبَـــــــدِ

وَلاَ تَجْعَلِينِي كامْــرِئٍ لَيسَ هَمُّــــهُ

كهَمِّي وَلاَ يُغنــي غَنَائـــي وَمَشْهَـــــدِي !

أرى المــوت أعـداد النُّـفـوس ، ولا أرى

بعيدًا غدًا : ما أقرب اليــوم مــن غـــــدِ

لَـعَـمْــرُكَ مَـــا الأيَّـــام إلا معـــارةٌ

فمـا اسطعت مـن معروفهـــا فتـــــزوَّدِ

عن الـمرء لا تســأل وأبصـــر قرينـــهُ

فـإن القريـــن بالـمقـــارن يقتـــــدِي

ستُبدِي لَكَ الأيَّــامُ مَا كُنــتَ جَاهِـــلاً

وَيَأْتيـكَ بالأَخْبَــار مَـــنْ لَــمْ تُـــــزَوِّدِ

وَيَأْتيكَ بالأَخْبَــار مَنْ لَـــمْ تَبِـــعْ لَــهُ

بَتَاتًا وَلَمْ تَضْــرِبْ لَـــه وَقْـتَ مَوْعِـــــدِ

هذا ما اخترتـــه من نماذج بعض شعراء العصر الجاهليِّ ، وكيـــــف كان الشِّعر يعالج الحيـــاة ، ويرسم أهدافها في حرفٍ يشير في لمحات ضوئيَّـــة إلى واقـــع ذلك العصـــر ، وتأثيـــر الشِّعـــر في شريان حياتـــه ، ومجريـــات عاداته ؛ وفي تصرُّفها وأفراحها وأحزانها ، وقد صوَّر لنا الشِّعر ما فـــي ذلـــك العصـــر من ألوان ، وكيف كان دور الشِّعر وتأثيره في تلـــك الحيـــاة ، مـــن ضروب عيش في حياتهم الاجتماعيَّة والسياسيَّة والحرب ، والسِّلم ؛ ووصـــــف

ألوان تلك البيئة الّتي درج على صعيدها أهل ذلك العصر ؛ فهو مرآة عاكسة لواقعٍ ملموس لذلك العصر ، ويصحُّ لنا - إذا لم نرد المبالغة - : لولا الشِّعر ، لضاعت أكثر فصول ذلك العصر ، لأنَّهم لم يحفلوا بسجلٍّ تاريخيٍّ ، واعتمدوا في وقائعهم على الشِّعر العربيِّ ، فكان سجلاً تاريخيًّا توارثته العصور عصرًا بعد عصر ، ونشرته لنا فصلاً بعد فصل ، فصولاً تاريخيَّة ، حفل النُّقَّاد والأدباء بشعر العصر الجاهليِّ ، ولا سيَّما معلَّقاته السِّتِّ ، أو السَّبع ، أو العشر على اختلاف ضروب الرِّوايات ، حتَّى كثرت عنه الدِّراسات ؛ فمنذ فجره ، عُنِيَ المؤرِّخون ، وخطُّوا تاريخه ، وحتَّى يومنا هذا - القرنِ العشرين - برغم الهُوَّةِ الزَّمنيَّة الفاصلة ، واختلاف الحياة وتطوُّرها في الأُسلوب ، وفي الشِّعر ، وفي تطوُّر أداة مواصلات النَّقل تطوُّرًا هائلاً ، فيصحُّ أنْ نقول : إنَّ الشِّعْرَ مرآةُ الحياةِ والعاملُ المُؤثِّرُ فيها ، والباعثُ على طموحاتِهَا ، والمُشيدُ بِأَمْجَادِهَا وتاريخِهَا .

ومِنْ قِمَّةِ العَصْرِ الجَاهِلِيِّ نسير إلى عصر النُّورِ ، عصرِ منقذِ الإنسانيَّةِ ، وباعث شمس الحُرِّيَّةِ - شَمْسِ الفِكْرِ - عَصْرِ الإسلام الَّذي جاء فيه رسولُ الإنسانيَّةِ بالسَّعادتَيْنِ - سعادةِ الدُّنيا والأُخرى - والقرآن الكريم المعجزة الكبرى الَّتي لا تمحوها الدُّهور ، ولا تصلُ لها المعجزات .

عصر النّور

بَعْدَ أنْ طويتُ الأحرف الَّتي أدرتها على ملامح صورة من العصر الجاهليِّ ، وشريحة من شعراء عصره ، أسير إلى عصر النُّور ، عصر حرِّيَّة الإنسان وتحريره من العبوديَّة الَّتي انغمس فيها البشر في عبادة الأصنام ، عصر تحرَّر فيها الفكر وذات الإنسان ، عصر انفتاح الفكر بأشعَّة القرآن ، وانقشاع السُّحب المتراكمة في ذلك الجوِّ الملبَّد بأساطير الخرافات ، والمسخَّر لأفرادٍ لم تتفتح عقولهم لنور العلم ، حتَّى أشرقت عليهم شمس الإسلام ، فمن شرب كأسًا من شعاعها الشَّفَّاف الرُّوحيِّ ، كان من المؤمنين ، وحاز السَّعادتين : الدُّنيا والآخرة ، ومن عشاه ضوؤها ، ولم يتفتَّح قلبه لرشفة من كؤوس ضياء عرفانها ، أصابه الرَّمد والكمه ، وعماء البصيرة ؛ يتخبَّطُ في ظلامٍ دامسٍ ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، فضلَّ عن الصِّراط ، وكأنَّه يهوي من علٍ ، تتخطَّفه الطَّير إلى أسفل الجحيم ، وخسر الدُّنيا والآخرة .. ذلك الخسرانُ المبين .

ولابُدَّ من إشارةٍ ضوئيَّةٍ تصوِّر معنى مفهوم الإعجاز النَّبويِّ ، فلكلِّ نبيٍّ مرسلٍ إعجازٌ يقارنُ الدَّعوة أو التَّحديَ له من البشر ؛ ولحكمة الله الحكيم تكون معجزة ذلك النَّبيِّ رحمةً بالبشرِ .. يكون المعجزُ على قدرِ طاقاتِ عقل ذلك العصر الَّذي أُرسل فيهِ النَّبيُّ حتَّى تكون الحجَّةُ عليهم بيِّنةً ، ولله الحجَّة .

فخذ – مثلاً – عصر الكليم موسى – على نبيِّنا وآله ، وعليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام – كانت آيةُ الإعجاز فيهِ وسرُّ الشَّوط التَّألُّقيِّ : السِّحر ، حيث بلغ فيهِ هذا الفنُّ إلى شوطٍ من الفكرِ ؛ وإلى ألوانٍ

من دروب الإعجـاب والتَّفاخر ، فكانت آيةُ الكليمِ يدهُ البيضاء والعصـا الَّتـي تلقفُ ما يأفكون .

أمَّا عصـرُ المسيـح : عيسـى بن مريـم – عليـه وعلى نبيِّنـا وآله ، أفضلُ الصَّلاةُ والسَّلام – فكانت الإشراقةُ الفكريَّةُ " الطِّبَّ " ، حيث كـان لهُ دورٌ في ذلك العصـر في شفاء المرضى ، ولكنَّه لا يُحيـي الموتـى ، ولا يشفـي الأكمـه ، أو الأبرص ، أو الأعمى ، فتحدَّاهم النَّبيُّ : عيسـى ، فـي طبِّهـم ، فكان النَّبيُّ : عيسى يحيي الموتـى بـإذن الله ويشفـي الأكمـه والأبرص والأعمى بإذن الله .

أمَّا عصـرُ نبيِّنا محمَّـد بن عبد الله – سيِّد الرُّسل صلَّى الله عليـه وآلهِ – فكان ذلك العصـر طابعةُ الكلمةُ الَّتي تترجم أسرار النُّفوس ، وتصـوِّر خلجات الأرواح ، لأنَّ الكلمة هيَ أثمن شيءٍ أهدتها لنا السَّماءُ ، لنعيـش بـها ونخطَّ أفكارنا بالقلمِ الكريم ونترجم مفهوم حياتنا وأسرارها في لغـةِ التَّخـاطبِ والرَّغباتِ الَّـذي لولا حروفه الَّتي تترجـم الرِّسـالات السَّـماويَّة وحـروف البشريَّة ، فما وعينا تلك المثـل ، فكان لتلك الكلمة في أُفق البلاغـةِ الشَّـوطُ التَّألقيُّ ، فـي قمَّةٍ لم يصل الحرفُ في عصرٍ كذلك العصـر ، فـي ضوئـهِ وبلاغتهِ الفكريَّة ؛ فجـاء سيِّدُ الرُّسلِ : محمَّـد بن عبد الله – صلَّى الله عليـه وآلهِ – بالقرآن يتحدَّى الفصحاء والبلغاء ، ليعيد البشريَّة إلى إنسانيَّتها الفطريَّـة الَّتي جبلها الله عليها وفطرها ، وقـد كشف لنا القرآنُ هذا الأُفق الغـائم ، فـي تعبيرٍ بليغٍ ومفهومٍ يجسِّدُ الحقيقة ويلمسُها كلُّ ذي فكرٍ واعٍ ؛ حيثُ صوَّرها فـي آيةُ الكرسيِّ ، في قولهِ – جلَّ وعلا – فـي مقطعٍ مـن مقاطعـها : ((**والَّذين كفروا أولياؤهم الطَّاغوت ، يخرجونهم من النُّور إلى الظُّلمات**)) .

والنُّورُ الَّذي أشارت لهُ الآيةُ الكريمةُ هو نور الإسلام ، نورُ الفطـــرةِ الَّتي يولدُ عليها كلُّ فردٍ من البشريَّةِ على هذا الكوكب ؛ وكمـــا جـــاء الحديـــثُ النَّبويُّ يوضحُ لـــون هـــذا المعنـــى : ((كـــلُّ مولـــودٍ يولـــدُ علـــى الفطـــرة فـــأبواه يهوِّدانهِ ، أو ينصِّرانهِ أو يمجِّسانهِ)) . فالآيـــةُ الكريمةُ والحديثُ النَّبويُّ يســـتقيانِ من منبعٍ واحدٍ ، هو الوحيُ الإلهيُّ عالـــم الغيبِ والشهادةِ ، والخالق الَّذي هـــو أعلمُ وأعرفُ بأسرارِ خلقهِ ، قبل خلقهم ، وحين خلقهم فلهُ الملكُ يحيي ويُميـــت وهو عَلَى كُلِّ شيءٍ قدير .

فعصرُ النُّور فجر أشرق على سماء الدُّنيا ، وهيَ تغطُّ في ظلمـــاتٍ فبدَّد تلك الظُّلمات ، وتبخَّرت كما يتبخَّر الضَّباب بين يـــدي العاصفـــة ، وزرع الهدايةَ فـــي القلـــوب بحـــرف أخضـــر ، فنبت فـــي درب الإنســـانيَّة زنـــابق وورودًا ، وفتح ضوء القرآن ، وحديث السُّنَّة العقول المتحجِّرة كالأحجار ، بـــل هيَ أشدُّ قسوةً منها ، في نفوس البشريَّة ، فنمت كما ينمو الغصن الوريق ، فـــي الرَّوضة الغنَّاء ، فكان للشِّعر حظٌّ ودورٌ من قبسات هذه الأضواء الَّتـــي شـــعَّت على آفاق الأفكار ، فطوَّرت الحياة الفكريَّة ، وأمدَّتـــها بـــألوانٍ مـــن الصُّـــوَر المتحرِّكـــة ، فأخذت الشُّعراء تمتارُ من هذه المائدة السَّمحةِ العطـــاءِ ، الغنيَّـــة بالثَّقافة الثَّرَّة بالعلم ، فكان للشِّعر ألوان من التَّطوُّر ، فانبثقت الكلمةُ تهزُّ قلـــب الحياة ، حيث فتح القرآن ، والحديث النَّبويُّ ، ونهج البلاغة الَّذي يجـــيء بعـــد القرآن والحديث النَّبويُّ ، صوراً من المعاني ، وألوانًا مـــن الحكمـــة ، ومـــن البلاغة ومن البيان ما يبهر عقول الفصحاء الَّذيـــن يقيمـــون أســـرار البلاغـــة ويحسُّونهـــا إحساسًا فكريًّا ، يشبـــه تلمُّسنا ومشـــاهدتنا للأشـــياء المحسوســـة الظَّاهرة ، وتهزُّ الكلمةُ أرواحهم هزًّا ، عندمـــا تتلى عليهم آياتٍ مـــن القـــرآن الكريم ، أو يمرون بتلاوة تفيـــض منها أنـــوار قدسيَّة ، حتَّى تشاهد مـــن ران

على قلبه الضَّلال ، وبطَّن سماء حياته وقلبه العمى ، وجرَّه غروره الغبيُّ إلى مجاراة القرآن !!

تجد ذلك الفصيح البليغ يتحدَّاه القرآن بحرف واحد ، فإذا هو ينكفئ وينكمش حتَّى يعود كطفل أبله ، أو ثرثار مهدار ، أو شيخ خرفٍ ، لا يكادُ يفصحُ بحروفه بل تتلعثم وتموت على شفتيه ، فيعود خاسئًا مجروح القلب والبصر ، إنَّه السِّرُّ الكامن في إعجاز القرآن الَّذي لا يصل له الإنسان ولو كان بعضهُم لبعضٍ ظهيرًا .

لقد هزَّت آيات القرآن الكريم المتكبِّر : الوليد " أبا خالد " وأخذته الرِّعدة ، والقشعريرة ، وبلغت منه البلاغةُ إلى أبعد حدودها ، فوصفه بوصف واقعيٍّ حقيقيٍّ ، لكنَّه نكث وعاد في تيهه وغروره يبطِّنه عماء الضَّلال ، وأسف على قولتهِ الَّتي تصوِّر بلاغة القرآن فردَّد نغمة العاجزين الضَّالِّين الَّذين لم يتذوَّقوا حرِّيَّة الفكر ، فقال : هو سحرٌ .

وظلَّ سرُّ هذا الإعجاز يواكب الانفتاح ، وهذا العطاء الخيِّر الَّذي يحمل للبشريَّة كلَّ ما تحتاجهُ في حياتها ، وفي مماتها إعجازًا يدور مع الشَّمس ، ومع الكون حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ، ونحن نعيش على أواخر قمَّة القرن العشرين ، قرن الحاسوب الآليِّ وشبكة (**الإنترنت**) الَّتي هيَ في تطوُّرها فتح فكريٌّ من الفتوحات الضَّخمة ، قرن اختراعات المعجزات ، كالكهرباء وما يشبهها من الاختراعات الجديدة الَّتي تعطينا أدلَّةً على ازديادنا بمعرفة الله ، والإيمان بتوحيده ، ورسلهِ ، وملائكتهِ ، وكتبهِ ، واليوم الآخر .. وهذه كلُّها قد اقتبست من القرآن الكريم ؛ لأنَّه يمدُّنا بطاقات من تلك العلوم الكونيَّة ، ألوان حياة ثرَّةٍ .

ولكنَّهُ يؤسفنا كلَّ الأسف إهمال هذا الكنز من أصحابهِ المسلمين ، وقد احتفى بدراسته الغربيُّون ، والاهتمام بمعانيه ، وتطبيق ما فيه من علوم حيث أهملنا هذه الطَّاقات العلميَّة العقليَّة حتَّى أخذها واحتفى بها الغربيُّون ، وعاشوا على مائدة حضارة القرآن ، وطبَّقوا منه الحياة العلميَّة والفكريَّة في حياتهم دون الجهة العباديَّة الَّتي هيَ الصلّة بين العبد والمعبود الواحد الأحد .

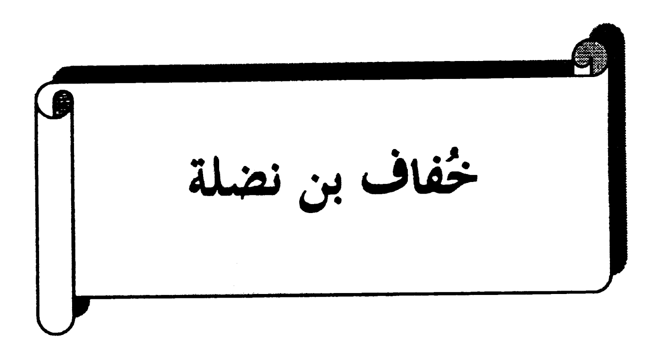
فالقرآن لو طبَّقه المسلمون وعملوا بما بين دفَّتيه ، لكانوا اليوم السَّادة ، ولم يتحكَّم فيهم الغرب أو الشَّرق .

أسأل الله من قلبي : أن يعود المسلمون فيعملوا بكتاب الله نصًّا وروحًا ، لا تلاوةً جوفاء ! أو يجعلوه كالتَّعاويذ في صدور النِّساء والأطفال ، لا جوهر فيها ، ولابُدَّ من إشارةٍ حول إعجاز القرآن ، هل كان إعجازه من باب الصِّرفة من خالقنا ؟ أمْ هو إعجازٌ في ذاته تقصر عنه العقول وتنحطُّ عنه فصاحة البلغاء ؟

والقرآن جاء في ذروة شوط عصر البلاغة لذلك صحَّ له التَّحدِّي ، وكان المعجزة الخالدة الَّتي لا تشبهها معجزة .

فالَّذي أراه أن الإعجاز هو مددٌ من خالقِنا المكوِّنِ كلَّ شيء ، ويكمن إعجازه في ظاهرة من الظَّواهر البلاغيَّة متَّصفًا بذاتهِ وأسلوبهِ الرَّائع الَّذي لم يسبقه أُسلوب في هذا الكوكب ، منذ دورانه حول الشَّمس كأسلوبهِ الإبداعيِّ الَّذي مهما أراد البلغاءُ ، والفصحاءُ أن يأتوا بحرفٍ من مثله ، لا يستطيعون ، لكونهِ معجزًا في ذاتهِ لا بمحضٍ من باب الصُّدفة أو الصِّرفة .

وقد جاء القرآن في عصر الفصاحة والبلاغة في أوج تألُّق ذروتها ، وبرغم التَّحدي لهم لم يستطيعوا أن يأتوا بحرف من مثله ، بل تراهم يسفُّون في هدرٍ كهدر المجانين ، والصِّبيةِ الَّذين يتغتغون ولا يفصحون في نطقهم ..! وهنا يكمن سرُّ الإعجاز الذَّاتيِّ ، وبهذه التَّوطئة عن عصر النُّور ، عصر الإسلام نسير إلى شعرائه فنختار بعض النَّماذج من تِلْكَ الشَّريحة .


خُفاف بن نضلة

شاعــرٌ مخضرمٌ تشـرَّف بالمثول والوفـادة عَلَـــى سـيِّدِ الخلـق الرَّســـول : محمَّـد بن عبـد الله – صلَّــى الله عليـه وآلــــه – وأنشـده شعــرًا ... ويضيــف التَّاريـــخ : أنَّ النَّبــيَّ – صلَّــى الله عليـه وآلــــه وسلَّــم – استحســن شعــره وقــال كلمتــهُ البليغــةَ الَّتي لَــمْ يسـبقهُ قبلـها الأوَّلون ، ولا يلحقهُ الآخرون : إنَّ مِنْ البيــانِ لسـحرًا ، ، وإنَّ مِـنْ الشِّـعرِ لحكمةً .

إنَّها كلمةٌ تُضـــيء للفصحــاءِ والبلغــاءِ طريق الحيــاة جيلاً بعـــد جيل ، وقرنًا بَعْدَ قرن ، ولَمْ أقف علــى تاريخِ ميــلادهِ ، ولا غــروب حياتــه فلنستمع لقصيدتهِ :

إنَّ بِالشِّعْــبِ الَّــذِي دوُنَ سَلْـــعٍ
لَـقَـتِـيــلاً دَمُـــــهُ مَـــا يُـطَــــلُّ

خَلَّـــفَ العِـــبْءَ عَـلَـــيَّ وَوَلَّـــى
أنــا بِـالْـعِـــبْءِ بَعْدَهُ مُـسْـتَـقِــلُّ

وَوَرَاءَ الثَّـــأْرِ مِنِّـــي ابـــنُ أخْـــتٍ
مَـصِـعٌ ، عُقْدَتُـــهُ مَـــا تُـحَــلُّ

مُطْرِقٌ يَرْشَـحُ مَوْتًـا كَمَـا أطــرَقَ
أفْعَـــى يَنْفُـــثُ السُّـــمَّ صِـلُّ

خَبَـرٌ مَـــا نَـابَنَـــا مُصْـمَـئِــلٌّ
جَـلَّ حَتَّـــى دَقَّ فِيــهِ الأَجَــلُّ

بَزَّنــي الدَّهْـــرُ وَكَـــانَ غَشُومـــا
بِـأَبـــيٍّ جَـــارُهُ مَـــا يُـــذَلُّ
شَامِسٌ فِي القُـرِّ ، حَتَّـى إذَا مَـــا
ذَكَـتِ الشِّعْـــرَى ، فَبَـــرْدٌ وَظِـــلُّ
يَـابِسُ الجَنْبَيْـنِ مِـــنْ غَيْـــرِ بُـــؤْسٍ
وَنَدِي الكَفَّيْـــنِ ، شَهْـــمٌ ، مُـــدِلُّ

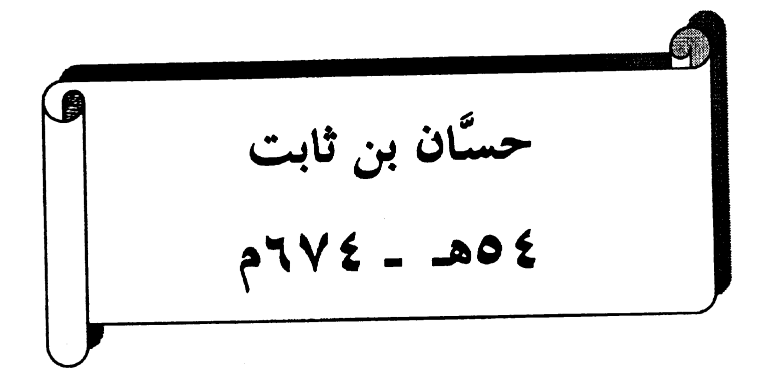
الشَّاعر افْتتح قصيدته الَّتــي افتتحنا بهـــا عصـــر النُّـــور ، بفخـــرٍ وبطولةٍ ، كمَا درج عليها شـــعراء العصـــر الجـــاهليّ ؛ حيـــثُ إنَّ الشُّـــعراء المخضرمين لَمْ يشربـــوا مِنْ كأسِ ضوءِ شمس الإسلام ، ولَمْ ينفتحـــوا علـــى معارفهِ لأنَّهم علَـــى عتبتهِ ، فســـاروا ردحًا مِنْ الزَّمنِ علَـــى طريقـــةِ الفخـــرِ والمدحِ والهجاءِ ، لأنَّ التُّـــراث مِنْ العصرِ الجـــاهليِّ لا يـــزال يجـــري فِـــيْ شرايينهم .. لم يتخلَّصوا منه .

فالشَّاعر : " خفاف " صوَّر مشاهد مِنْ التُّراثِ ، فاســـمعه – وهـــو يتحدَّث فِيْ مطلع هذه القصيدة – فأصـــغِ معي إليه ، وهو ينشد هـــذه القصيـــدة الَّتي يفخر فيها بشجاعته ، وشجاعة ابن أُخته الَّذي يتقطَّر منونًا ، وينفثُ كمـــا تنفـــث الحيَّة سمومها ، وإنَّ أيَّ قتيل هُـــم ولاةُ دمـــهِ ، أو ينتمـــي لقبيلتـــهم فدمه لا يطلُّ ، لا يسكـــب على الرِّمالِ الصَّاديـــة فيضيـــعُ هـــــدراً ، بـــل تروى هذه الرِّمال السَّمراء ، ويؤخذ القَوَدُ من قتلتهِ .

ويمضـــي الشَّاعر : خفـــاف ، فِيْ معزوفتهِ الفخريَّةِ فيصـــف ابـــن أُخته : أنَّه علَى جدبٍ مِنْ المـــالِ ، ولكنَّـــهُ معطاء تفيض كفُّـــه بـــالكرم ، وإنَّ

جاره لا يهان ولا يُذلُّ ... إلى آخر المقطع الَّذي يشيدُ فيه الشَّاعر بالأوصاف العربيَّة ، والحياة الاجتماعيَّة .

ونكتفي بهذه اللَّقطة التَّحليليَّة المقتضبة ، لهذا المقطع من القصيدة ، ونسير لشاعر آخر .


حسَّان بن ثابت
٥٤هـ - ٦٧٤م

حسَّان بن ثابت بن منذر الخزرجيُّ الأنصاريُّ : الصحابيُّ ، شاعر النَّبيِّ " ص " وقد وجدتُ فِيْ كتابِ الغديرِ ، المجلَّد الثَّاني ، ص٧ ـ طباعة مطبعة مروى ، الطَّبعة الرَّابعة ، جمادى الأولى – ١٤١٠هـ الموافق ١٣٦٨م – ما نصُّهُ : ((قد دعا له الرَّسول الأعظم بقوله : (لا تزال يا حسَّان مؤيَّدًا بروح القدس ، ما نصرتنا بلسانك) وكان – صلَّى الله عليه وآله – يضع لحسَّان منبرًا في مسجده الشَّريف)) .

وهو أحد المخضرمين الَّذِين أدركوا الجاهليَّة والإسلام ، عاش ستِّين سنة فِيْ الجاهليَّةِ ، ومثلها فِيْ الإسلامِ ، وكان مِنْ سكَّانِ المدينةِ ، واشتهرت مدائحه فِيْ الغسَّانيِّين ، وملوك الحيرة قَبْلَ الإسلام ، وعميَ قَبْلَ وفاته ، وتوفِّيَ فِيْ المدينةِ .

إنَّ التَّاريخ لَمْ يسجِّل للشَّاعر حسَّان تاريخ ميلاد محدَّد بالشَّهر ، أو بالعام ، إلاَّ أنَّ الرِّواية أعطت تاريخًا مبهمًا ؛ حيثُ تقول إنَّه عَاشَ ستِّين عامًا فِيْ العصر الجاهليِّ ، وستِّين عامًا فِيْ عصرِ الإسلامِ : عصر النُّور ، ولعلَّنا عَلَى ضوءِ هذهِ الرِّواية لو لخَّصنا المدَّة الزَّمنيَّة ، ورجعنا القهقرى ، لربَّما نستخلص منها التَّاريخ الميلاديَّ ، ونحدِّده فِيْ أيِّ عام ؛ ولكن .. هكذا الرِّواية الَّتي قرأتُها فِيْ بطونِ الكتبِ ، ورويناها حرفيًّا .

عَفَتْ ذَاتُ الأَصَابِعِ فَالجِوَاءُ
إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاَءُ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ
عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ
تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا
وَكَانَ الفَتْحُ ، وَانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وَإِلاَّ ، فَاصْبِرُوا لِجِلاَدِ يَوْمٍ
يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيلٌ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا
وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ : قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
يَقُولُ الحَقَّ إِنْ نَفَعَ البَلاَءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ
فَقُلْتُمْ :لاَ نَقُومُ وَلاَ نَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا
هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ
سِبَابٌ ، أَوْ قِتَالٌ ، أو هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي
فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ
فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا ، حَنِيفًا
أَمِينَ اللَّهِ ، شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّ بَنُو لُؤَيٍّ
جُذَيْمَةَ إِنَّ قَتْلَهُمْ شِفَاءُ

أُولَئِكَ مَعْشَرٌ نَصَرُوا عَلَيْنَا
فَفِي أَظْفَارِنَا مِنْهُمْ دِمَاءُ

وَحِلْفُ الحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ
وَحِلْفُ قُرَيْظَةٍ مِنَّا بَرَاءُ

لِسَانِي صَارِمٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ
وَبَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ

***

وقفةً معي أيُّها القارئ ، لنرى كيف كان الشِّعر وتأثيره فِيْ الحياةِ ، فِيْ فاتحةِ الإسلامِ ، فهذا حسَّان بن ثابت : شاعر النَّبيِّ - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - يدخل المعركة ، ولكن .. لا بالسِّنان ! إنَّما

باللِّسان ، فصارمه لسانـــه ، فهـو ينافح بهِ فِيْ حـــرفٍ يـؤدِّي مَــا يؤدِّيــهِ السَّيـــف ، فِــيْ ظــرفٍ قَــدْ يكون أبلــغ مِنْ السَّيف ، وموقعــه أنجــع مِــنْ السُّيوفِ البيض ، والرِّماح والسِّنان .

تحدَّث الشَّاعر حسَّان ، عَنْ النَّسيبِ ، ومَا فيه من تشـــبيبٍ ، علــى الطَّريقة الَّتــي درج عليهــا الشُّعــراء القدامى الَّذيــن ســبقوه فــي العصــر الجاهلــيِّ ، وخلص إلى مدح سيِّد البشر : رسول الله - صلَّى الله عليــه وآلــه وسلَّــم - فأعطانـــا صورة مشاهــدة متحرِّكة ، وهجــا المشــركين ، وعلــى رأسهــم : قائدهم أبـــا سفيان ، وكـــان يـــودُّ أن يفــديَ سيِّد الخلق : رســـول الله - صلَّـــى الله عليــه وآله وسلَّــم - بجميــع أهله ، وأن يكون أبو ســفيان فداء ، لأنَّه كلَّه شرٌّ ، لا خير فيـــه ، والرَّســول كلُّه خيــر ، خلق من الخـــير فنفح الخيرات .

إنَّما هو عطاءٌ مِنْ خالق السَّماوات والأرض ، وفيض نعمة ورحمــة منـــه على البشريَّة ، فكان الشَّاعــر حسَّان بلــغ فـــي تعبيــره إلـــى حقيقــة صادقة ، وجلاَّها فـــي هالة حرف نـــورٍ ، وهــذا أصــــدق حقيقــة واقعيَّــة ملموسة ، وطلب جزاءه من ربِّه ، وإنَّ لسانه هو الصَّارمُ الَّذي يحارب به فـــي هذه المعركة الحرفيَّة ؛ فللحروف صولاتٌ وجولاتٌ تدور في ميـــادين الحـــرب بإزاء صفائح البيض الَّتي تجلو الشَّكَّ والرَّيب .

وقد أثبتنا نموذجًا من هذه القصيدة ، فهيَ بين يديِ القارئ ، عندمـــا يريد أن يقرأها ، ويرى ما فيها من دورٍ للشِّعر وتأثيره ، وكيف كانت الرِّســـالة في فجرها الأوَّل تعتنـــي بالحرف لأنَّهــا قلب العلـــــم ، والثَّقافــة ، ترســل أضواءها ، إلى جميع أفكار البشريَّة بدون تفريق ، فقد كان حسَّـــان لـــه أدوار سارت مع موكب النُّور إلى جانب السَّيف .

ويحسن بنا أن نتمثَّل بمقطع لأحد شعراء القرن العشرين : العلامـــة السَّيِّد / محمد سعيد الحبُّوبيّ النَّجفيّ :

رُبَّ أقــــلامٍ تضاهـــــي الأسلـــه

فـــي شباهـــا وحـــدود المشـــرفِ

هـــيَ أحـــرى للفتـــى معتقلـــه

حيـــث لا زحـــف لغيـــر الأحـــرفِ

والتَّاريـــخُ يسجِّـــلُ للشَّاعـــر حسَّـــان بـــــن ثابـــت الشَّجاعـــة اللِّسانيـــة ؛ ويسجِّلُ لهُ الجبـــن الميدانـــيَّ ، حيـــثُ ينـــــزوي وينكمـــشُ فـــي الخيمـــات ، مـــع النِّساءِ والصِّبيانِ ... حتَّـــى سجَّل التَّاريخ عنه قصَّةً غريبـــةً في غزوةِ خيبر : حيثُ وجد يهوديًّا يطـــوفُ حـــول الخيامِ ، مـــن خارجهـــا فنادتـــهُ إحـــدى عمَّـــات الرَّســـول - صلَّـــى الله عليـــه وآلـــه - أن يخـــرج لليهوديِّ ، فيقتلهُ ، فأبى واصفرَّ وارتعدت فرائصه ؛ وخرجـــت تلـــك المـــرأة الشُّجاعة بعمودٍ وضربت اليهوديَّ فصرعتهُ وعادت للخيام .

الخنساء

تماضر بنت عمرو بن الشَّريف السُّلميَّة

(٢٤هـ - ٦٤٥م)

ولدت في بيت ذي جاهٍ وثروة ، ثمَّ تزوَّجت مرَّتين : الأُولى بعبد العزَّى ، وولدت له ولدًا سُمِّيَ عمرًا ، وعرف بأبي شجرة ، واقترنت للمرَّة الثَّانية بمرداس السُّلميّ ، فولدت له أولادًا عدَّة اشتهروا جميعهم بالفروسيَّة ، وقول الشِّعر ، كما خطبها دريد بن الصِّمَّة : فارس هَوزان ، وسيِّد بني جُشم ، فردَّته ، لكبر سنِّه ، فهجاها ، فلم تردَّ عليه ، فسئلت في ذلك ، فأجابت : لا أجمع عليه أن أردَّه وأهجوَه» .

وتسميتها بالخنساء ، لسحر عينيها اللَّتين شبِّهتا بعين البقرة الوحشيَّة ، في جمالها ، والخنساء دخلت التَّاريخ من أوسع آفاقه ، وتفنَّن الرُّواةُ في حياتها ، وأكثر الكاتبون والنُّقاد عن شعرها ، وديوانها أوتارٌ باكية وأنَّات يبطِّنها الألم ، فشعرها كلُّه تفجُّع ، على أخويها : معاوية وصخر ، وجُلُّهُ دمعة حزينة تنسكب على أخيها : صخر .

كما روى التَّاريخ : أنَّها فقدت عينيها السَّاحرتين ، وهي أجمل وأفتن ما فيها لكثرة البكاء على أخويها .

وقد اخترنا من هذا الدِّيوان أشهر قصائدها الَّتي حفل بها الأُدباء وحوتها بطون الأسفار ، والقصيدة تربو على خمسة وثلاثين بيتًا ، اخترنا منها عشرين بيتًا ، لنتناولها بالدَّرس والتَّحليل :

قَذًى بعَيْنِكِ أمْ بالعَيْنِ عُوَّارُ
أم ذَرَّفَتْ إذْ خَلَتْ مِنْ أهلِهَا الدَّارُ

كأَنَّ عَيْنِي لِذِكراهُ إذا خَطَرَتْ
فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى الخَدَّيْنِ مِدْرَارُ

تَبْكي لِصَخْرٍ هيَ العَبْرىَ وَقَد وَلَهَتْ
وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أسْتَارُ

تَبْكي خُناسُ فَما تَنفَكُّ مَا عَمَرَتْ
لهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ ، وَهْيَ مِفتَارُ

تَبْكي خُناسُ عَلَى صَخرٍ ، وَحُقَّ لهَا
إذْ رَابَهَا الدَّهْرُ ، إنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

لابُدَّ مِنْ مِيتَةٍ في صَرْفهَا عِبَرٌ
وَالدَّهْرُ في صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأطوَارُ

قَد كانَ فِيكمْ أبوُ عَمْروٍ يَسُودُكُمُ
نِعْمَ المعَمَّمُ لِلدَّاعِينِ نَصَّارُ

صُلْبُ النَّحِيزَةِ وَهَّابٌ إذا مَنَعُوا
وَفي الحرُوبِ جَريءُ الصَّدْرِ مِهْصَارُ

يا صَخرُ وَرَّادَ مَاءٍ قَدْ تَنَاذَرَهُ
أهْلُ المَوَارِدِ مَافي وِرْدِهِ عَارُ

مَشَى السَّبَنْتَى إلى هَيْجَاءَ مُعْضِلَةٍ
لَهُ سلاَحَانِ : أنيَابٌ وَأظْفَارُ

وَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ
لهَا حَنينَانِ : إعْلاَنٌ وَإسْرَارُ

تَرتَعُ مَا رَتَعَتْ ، حَتَّى إذَا ادَّكَرَتْ
فَإنَّمَا هِيَ إقْبَالٌ وَإدْبَارُ

لاَ تَسْمَنُ الدَّهرَ في أرضٍ وَإنْ رَتَعَتْ
فَإنَّمَا هِيَ تَحْنَانٌ وَتَسْجَارُ

يَوْمًا بأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ فَارَقَنِي
صَخْرٌ ولِلدَّهْرِ إحْلاَءٌ وَإمْرَارُ

وَإنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا
وَإنَّ صَخْرًا إذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وَإنَّ صَخْرًا لَمِقْدَامٌ إذَا رَكِبُوا
وَإنَّ صَخْرًا إذَا جَاعُوا لَعَقَّارُ

وَإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ
كَأنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نَارُ

جَلْدٌ جَمِيلُ المُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ
وَلِلْحُرُوبِ غَدَاةَ الرَّوْعِ مِسْعَارُ

حَمَّالُ ألْوِيَةٍ هَبَّاطُ أوْدِيَةٍ
شَهَّادُ أنْدِيَةٍ لِلجَيْشِ جَرَّارُ

نَحَّارُ رَاغِيَةٍ مِلْجَاءُ طَاغِيَةٍ
فَكَّاكُ عَانِيَةٍ لِلعَظْمِ جَبَّارُ

افتتحت الخنساء قصيدتها المأساويَّة بلحنٍ باكٍ ، وخطاب تجريديٍّ كأنَّها تجرِّد شخصًا من نفسها ، في تساؤلٍ حزين باكٍ ، والتَّجريد : هو نوع من ضروب الفصاحة والبلاغة ، ومستساغٍ ذوقًا وفكرًا حتَّى يومنا هذا ، لأنَّه يصوِّر من نفسه شخصًا آخر ، ليسكب عواطفه في خطاب يفرغ فيه عطاءه ، في حروف فيها خلجات نفسيَّة في أساليب ألوان متنوِّعات الأهداف ، فتفتتح حرفها بزفرة آلامها ، في تصوُّر تساؤل استفهام

تقريريٌّ : أفي عينيكَ آلامٌ وأوجاعٌ ذرفتها قطرات من الدُّموع ، حين أبصـــرت الدَّار تشبه البيداء .. فهي تعيش فراغًا من ظلِّ الحبيب الَّـــذي يملؤهـــا بـــالكرم والغبطة والسُّـــرور ، وترســـم صـــورةً للذِّكرى كلَّما خطرت أطيـــاف هـــذه الذِّكرى ، في سماء بيتها وأهاجتها ، فترسل الدُّموع سخيَّة مدرارةً .

وتتابع رسم الصُّورة الحزينة ، إنَّها تبكي من أجل صخـــر ، ولكـــنَّ صخرًا لا يسمع صـــوت هـــذا الولـــه ؛ لأنَّه غـــاب خلف أتربـــة وحجـــارة صمَّاء .

وتواصـــل نشيدهـــاَ الحزيـــنَ فتصـــف الدَّهـــر : أنَّـــه ذو نكبـــات وأضرار ، وإنَّ الموت فيـــه عبرٌ ، لمن اعتبـــر ، وإنَّها لا ترى أخاهـــا يـــأخذ حيِّزًا يتحرَّك أمام عينيها ، في تلك الحياة المحفوفة بذاك الخُلق على وصفها .

وتستمر فـــي نوحها الطَّويل الَّـــذي أفقدهـــا بصرها فـــي شـــكواها المـــرَّة ، من فقد أخيهـــا فتوغـــل فـــي الوصـــف فتعطي أخاها ألوانًـــا مـــن النُّعوت ، وهـــذه النُّعـــوت : الكرمُ ، الفخرُ ، الشَّـــجاعةُ ، إلـــى أمثـــال هـــذه الصِّفـــات في أُسلوب مبتذل – فـــي ذلك العصر – بكثرة حتَّى التُّخمـــة ؛ فلـــم تأتِ الخنساء بشيء جديد ، كمـــا إنَّ وحدة موضوع القصيدة قلَّ ما يوجد فـــي شعر العصر الجاهليِّ ، أو المخضرم ، إلاَّ على نـــدرة ، ومـــن النُّـــدرة هـــذه القصيـــدة المأساويَّة ؛ حيث حفلت صُوَرُهَا بوحدة الموضوع .

فقصيدتها عين باكية ، وقلبٌ كليم ، فإن دلَّ على شيء ، فيدلُّ علـــى وفائها لأخويها اللَّذينِ عايشتهما ، فلم تفارقها ظلال ذكراهما الَّتي انطبعت فـــي عينيها ورسمت صورتهُما في قلبها .

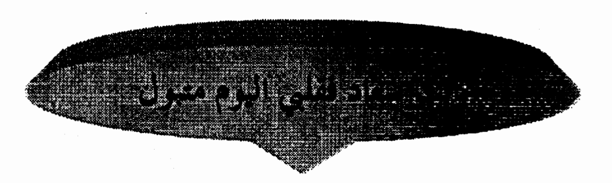
وكانت العرب تولي الأُخت ميـــزة تعطيها خصوصيَّة تنفرد بـــــها دون الزَّوجات والأمَّهات ، وهيَ صفة معنويَّة تربطهم ربطًا روحيًّـــا وجســـديًّا بالأُخت وتشدُّهم إليها شدًّا عنيفًا ... يهتفون بحياتها ويقســـمون بقدرهـــا ، فـــي نواديهم ومجتمعاتهم وحربهم وسلمهم كما تبادلهم الأُخت الصِّفة ذاتها .

وقد تجسَّدت هذه الظَّاهرة في أحرف شعــر الخنســاء ، وصوَّرتــها شعرًا فــي لونٍ حزينٍ من ألوان حياة ذلك العصر ، وحتَّـــى فــي المعــارك الحربيَّة ... فتراهم يتغنَّونَ بذكرها ، ويهتفون باسمها ، ومـــن هــذه الظَّــاهرَة التعلُّقيَّة تولَّدَ شعــر الخنساء ، وأشرقت من هذا الأُفــق النَّفســيِّ (سيمفونيَّة) حزينة مأساويَّة باكية .

كعب بن زهير بن أبي سُلمى

نحو ٢٦هـ - ٦٤٥م

شاعر عالي الطَّبقة من أهل نجد ، اشتهر في الجاهليَّة ، ولمَّا ظهر الإسلام هجا النَّبيَّ " ص " فهدر دمه ، ولكنَّ أخلاقِ الرَّسولِ " ص " الدَّمثةُ العطاء ، والبارَّة بالإنسانيَّة الَّتي لا تقابل المُسيئين إلاَّ بالإحسان والعفو المطلق ، بلا حدود ، فتكرَّم فمنَّ عليه بعفوٍ كريم ، وطمأنينةً هنيئةً في عيش رغيد ، في ظلِّ الرِّسالة المحمَّديَّة ، عندما جاءه كعب مستسلمًا مستأمنًا ، وغمره الرَّسول " ص "بكرم فيَّاض فَمَنَحَهُ بُرْدَتَهُ ؛ فهيَ وسامُ مجدٍ في الدُّنيا ، وبركة ، وحاجزٍ عن لهيب النَّار في الآخرة ، إذا سار على منهج الرِّسالة ، فأنشده لاميَّته المشهورة الَّتي مطلعها :



وهو من أعرق النَّاس في الشِّعر ، فأبوه زهير بن أبي سُلمى من طبقة الشُّعراء القدماء الجاهليِّين وأعلاها ، وله المعلَّقة المشهورة كما إنَّه تولَّد من أُفق فكر وشعر ... فأخواه : الحكَمُ وبُجَيْرٌ ، وأبناؤه : عقبة والعوَّام وكلُّهم شعراء ، فهو من سلسلة فكر متألِّق .

وقَدْ أخذت لاميَّته حيِّزًا من الحياة الفكريَّة ؛ ودورًا في الأدب العربيِّ ، منذ أنشأها الشَّاعر حتَّى يوم النَّاس هذا ، حيثُ أخذ الشُّعراء يجارونها ويشطِّرونها ويخمِّسونها للتَّبرُّك بمن قيلت فيه ، لأنَّها قيلت في أشرف مخلوقٍ ، وسيِّد الإنسانيَّة من الأوَّلين والآخرين ، ويزيد هذه القصيدة شرفًا الجائزة العظيمة الَّتي مَنَحَهَا رسول الإنسانيَّة " ص " بردته لشاعرها ، فأخذ الشُّعراء يَتَبَارَوْنَ في مجاراتِها :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِــي اليَــوْمَ مَتبُــولُ
مُتَيَّمٌ إثْرهَــا لَــمْ يُفْــدَ مَكْبُــولُ

وَمَا سُعَــادُ غَــدَاة البَيْــنِ إذْ رَحَلُــوا
إلاَّ أغَنُّ غَضِيضُ الطَّــرفِ مَكحُــولُ

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْــمٍ إذَا ابتَسَمَــتْ
كَأَنَّــهُ مُنْهَــلٌ بِالــرَّاحِ مَعْلُــولُ

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَــاءِ مَحْنِيَــةٍ
صَافٍ بِأَبْطَحَ أضْحَىَ وَهــوَ مَشْمُــولُ

تَجْلُو الرِّيَاحُ القَــذَى عَنْــهُ وَأفْرَطَــهُ
مِنْ صَوْبِ سَارِيَــةٍ بيــضٌ يَعَالِيــلُ

يَا وَيْحَهَا خُلَّــةٌ لَــوْ أنَّهــاَ صَدَقَــتْ
مَوعُودَهَا أوْ لَــوَ انَّ النُّصْــحَ مَقبُــولُ

افتتح الشَّاعر : كعب بن زهير بن أبي سُلمى قصيدتَهُ الَّتي مدح بــها المصطفى " ص " بالتَّشبيــب جريًا منه في مجرى حلبة الشُّعراء الَّذين ســبقوه من العصــر الجاهليّ ، ولَــمْ يفصله عنهــم زمن بعيد .. فهو أحد أبطال ذلــك العصر ، فهو مخضرم ؛ فدرج علَى أُسلوبهِ الَّذِي لَمْ يشرب - بعد - من كــأس معارف شمس الإسلام فتحوّله إلى حياة جديدة ، حيثُ لم يشهد الإســلام ، فبــدأ قصيدتــه بأسلوبــهِ الغزلــيّ ، وجــاء للرَّســـول " ص " ليشــهد الإسـلام ويستتيــر بنــورهِ ، ويشــرب من المعــارف المحمَّديَّــة ، فبــدأ قصيدتــه بالتَّشبيب ؛ وكانت الحبيبة فيها : سعاد ، وفــي مقاطعهــا تصــوير للفــراق

واللَّوعة من جرَّاء هجر الحبيب ، فيرى نفسه مكبَّلاً ، أي : مقيَّد ، وإنَّ قلبه وعقله ذهب بهما الحُبُّ ، والسَّقام .

ويعود فيصف محبوبته بفتنة الجمال ، والسِّحر الحلال علَى منهجِ الشُّعراءِ القدامى ، والطريقة السَّابقة الَّتي تصف المرأة جسديًّا ، ولا تصفها روحيًّا ، كمَا أُحبُّ أنْ أُبديَ رأيًا أدبيًّا ، ولعلِّي أنفرد به أو لا يؤيِّدني ذوو الفكر والأُدباء فيه ، وهذا الرَّأيُ يدور حول فاتحة القصيدة التَّشبيبيَّة .

فرأيي أنَّ هذه القصيدة مَا دامت مدحًا فِيْ سيِّدِ الخلقِ ، فالأدب يقتضي عدم افتتاحها بالغزل والتَّشبيب ، وإنَّما يُستساغ ذلك تذوُّقًا ، لو كان الممدوح غير سيِّد الخلق ، فكان الأحرى بهِ أنْ يبدأ بمدح الممدوح مِنْ أوَّل فاتحتها حتَّى خاتمتهَا : لأنَّها فِيْ منقذ الإنسانيَّة ، والمجال والصُّوَر آفاق واسعة ثرَّة ، لا يستطيع الرَّسام الماهر أو البليغ الحاذق أنْ يصوِّرا هذه الشَّخصيَّة ، أو يرسماها فِيْ إطارِ حيِّزٍ ينكمش فِيْ هذهِ الحياة ، مهما أُوتيا من طاقات وقدراتِ عبقريَّة ماهرٍ أُوتيَ أسرار البيانِ والبلاغةِ ، لا تستطيع تجسيد هذه الشَّخصيَّة فهيَ - إنْ توصف - إنَّما تشير إلى بعض صفات ظاهريَّة ؛ ولا تصل إلى ما وراء الصِّفات .

غير أنَّ تعليقي علَى الافتتاح بالغزل ... لا قيمة لهذا الرَّأي بعد أنْ مرَّت هذه القصيدة على الرَّسول الأعظم " ص " بمسمع ومرأى ؛ ولم يروِ لنا التَّاريخ أن نبيَّ الرَّحمة اعترض على الشَّاعر بنقد هذا الأُسلوب ! فإذًا الصَّمت أولى ، لأنَّ هذا اللَّون من الشِّعر تقبَّله الرَّسول الأعظم ذو الصَّدر الكبير الرَّحب ، والأخلاق العظيمة ، الَّذي مدحه فاطر السَّماوات والأرض في كتابهِ الكريم ؛ فقد قبل الرَّسول الأعظم هذه القصيدة كما هيَ ، كما شمله الرَّسول بالعفو والعطف فإنَّه بُعث رحمة للعالمين !

وبعد أنْ انتهى الشَّاعر : كعب ، من مقطع غزله ، دخل إلى فاتحة مدح سيِّد البشر ، فكان له الفوز بمدحِ منقذ الإنسانيَّة وسيِّدها من أوَّل ما

خلق الله البشر حتَّى آخرهِ ، سيِّد الأنبياء وأشرف الخلق ، فكان في افتتاحه في مدح سيِّد البشر براعة وزخم .

وقفة أيُّها القارئ العزيز ، لتعرف كيف تخلَّص الشَّاعر بمفاجأةٍ تلفت السَّامعين ، وتسمِّر الأفكار ؛ حيث بدأ بوصفه لمنقذ الإنسانيَّة .. إنَّه رسولٌ ، وسيفٌ يُستضاءُ بهِ ويستصبحُ بهِ فِيْ عتمةِ الحياة ، ولكنَّه ليس من سيوف البشر ، إنَّهُ مهنَّدٌ مِنْ سيوف الله الَّتي تملأُ الأرض أنوارًا ، وقسطًا ، وعدلاً .

ويستمرُّ في هذا الوصف ، لأنَّهُ في مجالٍ إنسانيٌّ متعدِّد الجوانب الإنسانيَّة ، والفضيلة الَّتي لا توجد مثلها في البشريَّة . ثمَّ يُثني على صحب الرَّسول الَّذين آمنوا ، برغم الضَّغط الصَّنميِّ على المسلمين وملاحقتهم ، والتَّضييق عليهم ولكنَّهم لا يرهبون بما لاقوهُ ؛ حيث إنَّهم ذوو عقيدة صلبة ، والعقيدة لا تُفَلُّ بالنَّار ولا الحديد ، بل تتغلَّب على كلِّ قوَّة سلاحٍ ونار ، وليسوا بطلاَّب مال أو أطماع .

فصاحب العقيدة يلبسُ قلبهُ بدل السِّلاح ، ويموتُ ضحيَّة في نصر عقيدتهِ ، وكان هؤلاء – كما وصفهم الشَّاعر : كعب بن زهير بن أبي سُلمى في قصيدتهِ الَّتي كانت له فاتحةُ خيرٍ في حياتهِ – فهيَ من القصائد الَّتي تُعايش الحياةَ ، حيث شرفت باسم منقذ الإنسانيَّة فارتفع رصيدُها :

إنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُم
بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أسْلَمُوا : زُولُوا

زَالُوا فَمَا زَالَ أنكَــاسٌ وَلاَ كُشُــفٌ

عِنْــدَ اللِّقَــاءِ وَلاَ مِيــلٌ مَعَازِيــلُ

شُــمُّ العَرَانِيــنِ أبطَالٌ، لَبوُسُهُــمُ

مِــنْ نَسْـجِ دَاوُدَ في الهَيْجَـا سَرَابِيــلُ

بِيضٌ سَوَابغُ قَـدْ شُكَّتْ لَهَــا حَلَــقٌ

كَـأَنَّـهَـا حَلَــقُ القَـفْعَــاءِ مَجْدُولُ

يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُــم

ضَــرْبٌإذَا عَـرَّدَ السُّــودُ التَّنَابِيــلُ

لاَ يَـفْرَحُــونَ إذَا نَالَــتْ رِمَاحُهُــمُ

قَوْمـاً وَلَيْسُــوا مَجَازِيعــاً إذَا نِيلُــوا

لاَ يُوقَعُ الطَّـعْـنُ إلاَ فــي نُحُورِهِــمُ

مَـا إنْلَهُم عَــنْ حِيَاضِالـمَوْتِ تَهْلِيــلُ

العصر الأمويُّ

إنَّ الشِّعر العربـيَّ لَمْ تتغيَّر أُطروحتُهُ في مفهومهِ وإطـاره العـامِّ المتلوِّن بالحرف في تأثيره في الحياة ، وإن تباينت أهدافهُ وتلوَّنت في اللَّبنـات الَّتي تصوِّر مجتمعه الحاضر من العصر الجاهليِّ إلى عصر النُّـور ، وحتَّـى العصر الأمويِّ ، حيث فتـح القرآنُ العظيم ، والسُّنةِ النَّبويَّة ، ونـهج البلاغـة ألوانًا من آفاق الثَّقافـة الرَّفيعة الواسعة ، وفتوحًا من كنوز المعاني لَـمْ يعـها البشرُ ، ولَمْ تَدُرْ خَلَجَاتٌ منها بآفاقِ المفكِّرين ، ففتحت آفاقًا من الحسِّ ، فلوَّنـت الشِّعر بألوانٍ حسِّيَّةٍ ، وصور متحرِّكة ، وتركيبات لم تستعمل من ذي قبل .

وأمضـي إلـى أبعد من ذلك في شوطِ هـذا البحـث التَّحليلـيِّ الدِّراسيِّ ... إلى أكثر من ذلك ، فقـد فتحت كوَّةَ لونِ مبدأ للعنـاصر الأوَّليـة للقصَّة الشِّعريَّة وحوارًا يدور في القصيدة بأسلوبٍ رفيعٍ شيِّقٍ مغرٍ .

ولعلَّ أوَّل شاعرٍ وضع أُسلوب للقصَّة ، أو نواة القصَّة فـي الشِّـعر العربيِّ ... عمر بن أبي ربيعة ، ففي أُسلوبه الشِّعريِّ تحاورٌ ، ونـواة للقصَّـة العربيَّة سندلِّل على هذه النَّظرة الأدبيَّة فـي قصيدته الرَّائية الشَّـهيرة ، حينمـا نورد له شريحة من شعره .

ولا ننكـر على المحدثين مـا جدَّدوا مـن التَّطـوُّر فـي القصَّـة والأُسلوب ، وإن كان الفضل للقدماء في وضع النَّواة ، ولا ننكـر أنَّ القدمـاء عندمـا عالجوا القصَّة سـواء كانوا قاصدين هذا اللَّـون الشِّـعريِّ أو غـير قاصديـن ، لـم تكتمل فـي محاوراتهـم مـن قصائدهـم العنـاصر الفنِّيَّـة للقصَّة : كالقصَّة الحديثة الَّتي كان لها في الشِّعر والنَّثر دورٌ ولونٌ مـن ألـوان أدبنا الحديث ، لمواكبتهـا التَّجديد والتَّطوُّر في القرن العشرين ، وأخذت حـيِّزًا من الفكر ، يغطِّي رقعةَ من هذا الحرف الأخضر ، ونبدأ بنموذج مـن بعـض شعراء العصر الأمويِّ .

عُمَرُ بن أبي ربيعة

٢٣هـ - ٩٣هـ / ٦٤٤م - ٧١١م

ولد عمر في المدينة المنوَّرة ، ونشــأ في بني مخزوم وهــيَ أمنــع بيوت قريش ، وأعظمها جاهًا وثروة في الجاهليَّة ، والإسلام .

وشبَّ عمر على التَّرف والفراغ ، يتنقَّل من بلد إلى بلد آخر ، بعيــدًا عن السِّياسة ومشاكلها ، منصرفًا في نعيم اللَّهو والعبث ولا سيَّما فــي مواســم الحجِّ .

كان عمر يحــبُّ الجمال في ذاتــه ، وفي غيره ، فتــأنَّق ، وكــان ذَرِبَ اللِّسان .. حلــو المعاشــرة ، لا يــرى فــي الحيــاة ســروراً إلاَّ جَــدَّ في طلبه ، والحصول عليه من أيسر السُّبل .

وجعل عمر بن أبي ربيعة للمرأة دوراً ، وحيِّزًا ضخمًــا ، وغطَّــت رقعة من شعره ، وصبغت أحرفه ألوانًا من وصفِ المرأة وجمالها ، وحياتها .

فهو شاعرٌ غَزِلٌ ، فتح في شعره ألوانًا أثرى بهِ الشِّعر العربيَّ يمــدُّه بصُــوَرٍ من سحر المــرأة ، وكان مجدِّدًا ، حيث لم يتــأثَّر بطريقــة الشِّــعر التَّقليديِّ ، بل تميَّز بفــنٍّ من فنــون الشِّعر ، وغرس غرسة نواة القصَّــة وإن سبقه الشَّاعــر الجاهلــيُّ لمــرؤ القيس – ولكنَّه لَمْ يضع لمســات الفــنِّ فــي نواتها الأولى ، كابن أبي ربيعة فهو شاعر الحبِّ ، شاعر الغزل ، وســنتحدَّث عن قصيدته الَّتي دارت في الحياة مع الزَّمــن حتَّى يومنا هذا :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنــتَ غَــادٍ فَمُبْكِــرُ

غَدَاة غَــــدٍ ، أمْ رَائِــحٌ فمُهَجِّــرُ ؟

لِحَاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ فـــي جَوَابِهَـــا

فَتُبْلِـــغَ عُـــذْرًا وَالمقَالَـــةُ تُعْـــذِرُ

افتتح عمـــر بن أبي ربيعة رائعته الَّتي هيَ فـــي روعتـــها روعـــة الشَّمس فـــي الغروب ، عندما تسكب ألوانًا من خيوطها الذَّهبيَّة علـــى قمـــم عرائس النَّخيل ، والأشجار ، يتســـاءل عن رحلته الغراميَّة الَّتي هيَ كأطيـــاف الفجر في الصَّباح الباكر ، أو كوهج الشَّمس عند الهجير ، يحثُّ الخطى ظـــامئ القلب كظمإ قلب الصَّحراء في قائضة الصَّيف .

وهذا الرَّحيل ليس هو ضربًا من العبث .. إنَّما باعثـــه سرُّ نفـــسٍ لا يكادُ يبينُ منها حرفٌ إلاَّ علـــى خطوط الوجه ، فالعذر في هذه الرِّحلة مقبـــول لأنَّه ينطوي على رسالة قلبٍ يريـــد الشَّاعر أن يوصل هذه الرِّسالة الشَّـــوقيَّة إلى فمِ حبيبته ، وإن كلَّفته المشـــاقّ والجهد والأخطار كما صوَّرهـــا الشَّـــاعر صُوَرًا متحرِّكة في هذه القصيدة :

أَلِكْنـــي إلَيهـــا بالسَّـــلاَمِ ، فَإنَّـــهُ

يُشَهَّـــرُ إلْـمَـامِـي بِهـــا وَيُنَكَّـــرُ

بآيَـــةِ مَـــا قَالَـــتْ غَـــدَاة لَقِيتُهَـــا

بـمَـدْفَـعِ أكـنَـانٍ : أهـــذَا المُشهَّـــرُ ؟

أشَارَتْ بِمِـدْرَاهَـــا وَقَالَـــتْ لأُختِهَـــا

أهـذَا المُغيـريُّ الَّــذِي كَـــانَ يُذْكَـــرُ ؟

أهذَا الَّذِي أطْرَيْـتِ نَعْتَـــا فَلَـــم أكُـــنْ

وَعَيْشِـكِ أنسَـــاهُ إلـــى يَـــومِ أُقْبَـــرُ

فَقَالَتْ : نَعَمْ ، لاَ شَـكَّ غَيَّـرَ لَونَـهُ

سُرَى اللَّيْـلِ يُحْيِي نَصَّـهُ وَالتَّهَجُّـرُ

لَئِن كَانَ إِيَّـاهُ لَقَـدْ حَـالَ بَعْدَنَـا

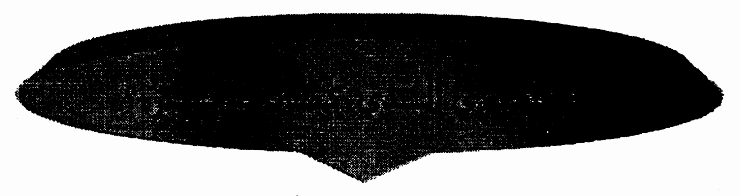
عَـنِ العَهْـدِ وَالإِنسَـانُ قَـدْ يَتَغَيَّـرُ

الشَّاعـر : عمـر بـن أبـي ربيعة ، بعد أن يستمرَّ فـي هـذه الرَّائعـة ، يضع نواة القصَّة فيبدؤهـا بحروف غراميَّة تنطـوي علـى قلبـهِ الملهوف ، فيها رمز أسرار ويطلـب من يحملها ولكنَّه لا يثق أن يسـلِّمها إلاَّ لكفٍّ أمينة ، لتبلغها لحبيبته ، كما يحمـل البريد اليوم رسائلنا .. لأنَّه لا يلتقـي بها إلاَّ كطيفٍ تحت جناح اللَّيل ، أو في جوٍّ تنكُّريٍّ يتضبَّب فيه الشَّاعر .

وعندما سمح الزَّمان بلُقيا الحبيبين ، كما يلتقي قطرات الطَّلِّ ، بثغـر الزَّهـر ، أو كما يفتح البرعـمَ ضوءُ الفجرِ لقاء عاشقيـن متلهِّفين إلـى هـذا اللِّقاء ، بمحلٍّ يسمَّى مدفع أكنـانِ ، فكان للحبيبة دور فتنـة وسحـر ، فـي إشارات غراميَّة أبلـغ من النُّطـق - حيـث تلـوِّح بإصبعيهـا البضَّتَيـن النَّاعمتيـن ، وبينهمـا مدرهُهَا - وهو المشـط - أحـد أدوات الزِّينـة الَّتـي تسرِّح به الفتاةُ شَعْرها ، تشير الحبيبـة بإحـدى أدوات الزِّينـة لتكتمل الفتنـة في تساؤل فيه لهفة وشوق :

أهذا المشهَّرُ ؟ وكانت هذه الإشارة فاتحة رمز للودِّ والحـبِّ تنعكـس على ضوء ما تلوِّح به من إشارات أناملَيَّة ناعمة بضَّة ، بين إصبعيها أداة مـن أدوات الزِّينة : المشط الَّذي يسرِّح به الشَّعـر فيزيد الفتنةَ فتنةً وهيَ تشير بـه إلى حبيبها في حديثٍ كهمس النَّسيم في أذن الورد إلى أُختها كأنَّها تسكب علـى

مشطها قلبها موجة لهيبٍ من حبٍّ يسري إلى الشّاعر ، فتضرمُ في قلبه الشّـــوق واللّهفة :



فالحوار يتمحور بين الأُختين ، والشّاعر آذانٌ تصيخ ، ولهفةُ قلـــبِ صادٍ ، إنّها صورةٌ من صُوَرِ البيان الرّائعة .

فالحديثُ التّحاوريُّ بين الأُختين تديرانـــه على مشهدٍ مـــن التّغـيُّر فـــي صورة الشّاعر لما لبسته مـــن جهد شوط ، وإدلاجٍ شاقٍّ ، وأتعابِ ســـفر خـــدَّدت وجهـــهُ من الغيَـــر الزّمنيَّـــة الّتـــي مشت علـــى خطـــوط وجـــه الشّاعـــر ، فغيَّرت صورتـــهُ وخدَّدتهـــا بعجلاتهـــا ، فكـــان التّحـــاور بيـــن الأُختين يثير الشّوق والحنان ، في منظرٍ مجسَّدٍ من الفتنة .

تصوَّر أيُّها القارئ لو كنتَ أحد نظّار هذا المشهد مع الشّاعر : ابـــن أبـــي ربيعة تشاهد هـــذا المنظـــر الغراميَّ الفاتن ... وحديـــث الحـــبِّ بيـــن فتاتين : واحدةٌ تشير بأناملها الذّهبيَّة ، بينهما مشطُها ، إلى قلبِ اكتوى بلوعـــة الحبِّ .. فكأنّهم يعيشون في عصر حضاريٍّ ، وشاهدت هذه الإشارة الغراميَّـــة الّتي تلوّح بها على طيّات ذلك المشط ، لأخذتك هزَّةُ الغرام ، ونُبتَ كما تـــذوبُ الشّمعةُ لتضيء لمشاهديها :

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إِذَا الشَّمسُ عَـارَضَـــتْ
فَيَضحَـــى وَأَمَّـــا بِالعَشِـــيِّ فَيَخصَـــرُ

أَخَا سَفَـــرٍ جَـــوَّابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَـــتْ
بِـــهِ فَلَـــوَاتٌ فَهْـــوَ أَشعَـــثُ أَغْبَـــرُ

قَلِيلاً عَلَى ظَهْرِ المَطِيَّةِ ظِلُّهُ
سِوَى مَا نَفَى عَنْهُ الرِّدَاءُ المُحَبَّرُ
وَأَعْجَبَهَا مِن عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ
وَرَيَّانُ مُلْتَفُّ الحَدَائِقِ أَخْضَرُ
وَوَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيءٍ يَهُمُّهَا
فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ اللَّيلِ تَسْهَرُ

واستمر الشّاعر في رسمته الزّيتيّة ، فرسم على لسان حبيبته صورة له كما يحلو له ، في موجةِ حنانٍ تدرُّ الاستعطاف عليهِ من غرام حبيبته ، وهو على ظهر أداة مواصلاتهِ في شوطه الملهوف إلى الوصول إلى بيت حبيبته ، وكيف يتعرّض إلى قرصات موجات البرد ، ويلفحه نار الهجير ، فهو كظلٍّ ضئيل سوى ما نفى عنه الرّداء المحبّر .

ويثب الشّاعر في وصفه البديع ، فيؤطّر صورة من حرفهِ بألوانٍ من أطياف الشّمس ، ويرسمها كما ترسم الفجاءات في نقلةٍ لفتةٍ خياليّة كما ينتقل الظّلُّ خفيفًا من الزّوال إلى العصر ، فيرسم صورةً لبيت حبيبتهِ كأنّك تشاهده وتعيش معه ، في قصر تظلّله الأشجار ، وتسمع فيه خرير الجداول ، وزقزقة العصافير .. ويدورنا ، سنوضح ونفسّر حرفيّة هذه الرّسمة لما تحمله من خطوط رمزيّة انسكبت على خطوط هذه الرّسمة .

فالشّاعر رسم لحبيبته من دنيا عيشها ظلّ غرفة تقيها وهج الحياة ، وحولها ريّان ملتفُّ الحدائق مخضوضر اخضيضار الحياة والتفاف الشّجر الرّيّان ، لا ينبت إلا من ينبوع الماء ، والعصافير والطّيور تعشق الشّجر الأخضر وخرير الماء ، فالصّورة أطّرناها بتفسير يوضح ما رمز له الشّاعر بإشارات ضوئيّة رمزيّة من خطوط رسمها ، كما رسم لحبيبته عيشًا

نعيمًا هانئًا ، لا تسهـر الحبيبة من أجله آخر اللَّيل من أجل ضائقة اقتصاديَّة فهي في نعيم :

وَلَيلَةَ ذِي دَوْرَانَ جَشَّمَنِي السُّرَى
وَقَد يَجشَمُ الهَوْلَ المُحِبُّ المُغَرَّرُ

فَبِتُّ رَقِيبًا لِلرِّفَاقِ عَلَى شَفًا
أحَاذِرُ مِنهُم مَن يَطُوفُ وَأنظُرُ

إلَيهِمْ مَتَى يَستَمْكِنُ النَّومُ مِنهُمُ
وَلِي مَجلِسٌ لَوْلاَ اللُّبَانَةُ أوْعَرُ

وَبَاتَتْ قَلُوصِي بِالعَرَاءِ وَرَحْلُهَا
لِطَارِقِ لَيلٍ أوْ لِمَنَ جَاءَ مُعْوِرُ

وَبِتُّ أناجِي النَّفسَ أينَ خِبَاؤُهَا ؟
وَكَيفَ لِمَا آتِي مِنَ الأَمْرِ مَصْدَرُ

فَدَلَّ عَلَيهَا القَلْبَ رَيًّا عَرَفْتُهَا
لَهَا وَهَوَى النَّفسِ الَّذِي كَادَ يَظْهَرُ

فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوتَ مِنهُمْ وَأُطفِئَتْ
مَصَابِيحُ شُبَّتْ فِي العِشَاءِ وَأنْوُرُ

وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنتُ أرجُو غُيُوبَهُ
وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ

وَنَفَّضْتُ عَنِّي النَّومَ أقبَلْتُ مِشيَةَ
الحُبَابِ وَرُكْنِي خَشْيَةَ القَوْمِ أزوَرُ

ويبدأ الشَّاعر في تمحـــور قصَّتهِ ، بعد أن طاف بجوٍّ حـــوار بيــن أُختين ، يبدأ هنا قصَّتهُ بليلةِ ذي دوران ، عندما جشَّـــمه السُّــرى ، والمحــبُ المغرَّرُ يتجشَّم الأخطار والأهوال .

وليلـــة ذي دوران لم يكن بها قصور .. إنَّما كانت مطنَّبة بأطنـــاب الخيام الَّتي تخفق عليها قلوب العاشقين ، ويتيه في دروبها المحبُّـــون لصعوبـــة الاهتداء لخيمة الحبيبة ، لعدم تميُّز العلامة الفارقة .

فالشَّاعر يصــوِّر هذه اللُّقيا قصَّة محفوفة بالأخطار ، حيـــث كظــم أنفاسه ، وظلَّ يرعى ذلك الحـــيَّ حتَّى يداعب أصابع النَّوم أجفانهم ، وهو فـــي مجسٍّ أوعرٍ عاشه من أجل لبانته ، وعندما روَّح الرُّعاة وهدأ السَّامرُ ، وغـــاب القمـــر الفضِّيُّ ، كـــان يرجـــو غيابـــه ، وهـــذا البيـــت فيـــه مـــن النَّغـــم الموسيقيِّ ، والتَّصوير البيانيِّ السِّحريِّ ما يعجز الحرف عن تصويره .

وكما أشرنا : أنَّ الخيمـــات لا علامة تميِّزها إلاَّ أنَّ الشَّاعر لَمْ تفتـــه هذه اللَّفتة العبقريَّة ، فوثب الخيال فأعطانا صورة مشرقـــــة الضَّـــوء تصـــوِّر إحساسًا مرهفًا لا يصل لجوِّه إلاَّ المعذَّبون بنار الحبِّ والغـــرام ـــ فكـــان لـــهذا الإحساس الَّذي دلَّ قلبه لخيمتها هو سرٌّ من أسرار الرُّوح الَّتي تمتزج بالعشـــق وتكتوي بنيرانه ، وسرِّ الهوى الَّذي يجري في الرُّوح كالتَّيَّار الكهربائيِّ ، وهـــو يجهـــلُ هـــذا التَّيَّار الجاريَ فـــي دمه ، وهنـــاك سرٌّ طيب ينبعث من روحـــها له ، تحمله نسمات الحبِّ من خيمتها .. فكأنَّ هذا الاتِّصال الرُّوحيَّ رمـــز مـــن رموز الحبِّ النَّفسيِّ أنوار كاشفة له إلى طريق خيمتها ، تميِّزهـــا عـــن بقيَّـــة الخيام ، وقد أُطفئت كلُّ المصابيح ، وساد الصَّمت ، والظَّـــلام ، فالدَّليل لهـــا قلبهُ ، وهوى النَّفس ، وريَّاها .

فَحَيَّيْـــتُ إذْ فَـاجَأْتُهَـــا فَتَوَلَّـهَـــتْ
وَكَادَتْ بِمَخْفُـوضِ التَّحِيَّـــةِ تَجْـهَـــرُ

وَقَالَت وَعَضَّتْ بِالبَنَــانِ فَـضَحْـتَنِـــي

وَأَنـتَ امْـرُؤٌ مَيسُــورُ أَمْــرِكَ أَعْسَـــرُ

أَرَيتَكَ إذْ هُنَّا عَلَيـكَ ، أَلَـم تَـخَــفْ

وُقِيــتَ وَحَوْلي مِـن عَــدُوِّكَ حُضَّــرُ

فَوَاللّـهِ مَــا أَدْرِي أَتَـعجِيــلُ حَاجَـــةٍ

سَرَتْ بِكَ أَم قَدْ نَامَ مَــن كُنـتَ تَـحـذَرُ

فَقُلْتُ لَهَا بَلْ قَادَنِي الشَّـوْقُ وَالـهَـوَى

إِلَيـكِ وَمَـا عَيْنٌ مِـنَ النَّــاسِ تَـنظُــرُ

فَقالَتْ وَقَـد لاَنَــتْ وَأَفْــرَخَ رَوْعُهَـــا

كَــلاَكَ بِحِـفْظٍ رَبُّــكَ الـمُـتَكَـبِّــرُ

فَأَنــتَ أَبَـا الـخَطَّــابِ غَيـرَ مُدَافَـــعٍ

عَلَــيَّ أَمِيــرٌ مَــا مَكَـثـتَ مُؤَمَّــرُ

فَبِتُّ قَرِيـرَ العَيْــنِ أُعْطِيــتُ حَاجَتِـــي

أُقَبِّــلُ فَاهَــا فــي الـخَــلاَءِ فَأُكْثِــرُ

فَـيــالَكَ مِــن لَيْــلٍ تَقَاصَــرَ طُولُــهُ

وَمَــا كَــانَ لَيْلــي قَبْــلَ ذَلِكَ يَقصُــرُ

وَيَالَكَ مِن مَلْهــىً هُنَــاكَ وَمَجلِـــسٍ

لَـنَــا لَــم يُكَــدِّرْهُ عَـلَيْنَـــا مُكَــدِّرُ

يَـمُجُّ ذَكِــيَّ المِسْــكِ مِنهَــا مُفَلَّـــجٌ

رَقِيـقُ الحَوَاشِــي ذُو غُــرُوبٍ مُؤَشَّــرُ

تَــرَاهُ إذَا تَفتَــرُّ عَنــهُ كَأَنَّـــهُ

حَصَــى بَــرَدٍ أَوْ أُقحُــوَانٌ مُـنَــوَّرُ

وَتَرنُــو بِعَيْنَيهَــا إلــيَّ كَمَارَنَــا
إلى رَبْــرَبٍ وَسْـطَ الـخَميلَــةِ جُــؤذَرُ
فَلَمَّــا تَـقَـضَّـى اللَّيْــلُ إلاَّ أقَـلَّــهُ
وَكَــادَتْ تَـوالــي نَـجْـمِــهِ تَـتَغَــوَّرُ
أشَارَتْ بِأنَّ الحَيَّ قَــدْ حَــانَ مِنهُــمُ
هُبُـوبٌ وَلَـكِــنْ مَـوْعِـدٌ لَكَ عَــزْوَرُ
فمَــا رَاعَـنــي إلاَّ مُـنـَـادٍ تَرَحَّلُــوا
وَقَدْ لاَحَ مَفتــوقٌ مِـنَ الصُّبْــحِ أشقَــرُ
فَـلـمَّــا رَأتْ مَـنْ قَــدْ تَنبَّــهَ مِنهُــمُ
وَأيقَاظَهُمْ قَالَــتْ اشِــرْ كيْــفَ تَأمُــرُ
فَـقُـلــتُ أبَادِيهِــمْ فَإمَّــا أفُوتُهُــمْ
وَإمَّــا يَنَــالُ السَّيْــفُ ثَــأرًا فَيَثْــأَرُ
فَقَالتْ أتَحْقِيقًــا لِمَــا قَــالَ كَاشِــحٌ
عَلَيْنَا وَتَصْدِيقًــا لِـمَــا كَــانَ يُؤْثَــرُ ؟
فَــإن كَــانَ مَــا لاَبُــدَّ مِنــهُ فَغَيــرُهُ
مِـنَ الأمْــرِ أدْنــى لِلْخَفَــاءِ وَأسْتَــرُ
أقُــصُّ عَلَــى أختَــيَّ بَـدْءَ حَدِيثِنَــا
وَمَالِــيَ مِــنْ أن تَـعْـلَـمَــا مُتَأخَّــرُ
لَعَلَّهُمَــا أنتَـطلُبَــا لَكَ مَـخْرَجًــا
وَأن تَرحُبَــا صَـدْرًا بـمَا كُنـتُ أحْصَــرُ
فَقَامَتْ كَئِيبًــا لَيـسَ فـي وَجْهِهَــا دَمٌ
مِـنَ الـحُـزْنِ تُـذري عَبْـرةً تَتَحَــدَّرُ

فَقَامَتْ إلَيهَا حُرَّتَانِ عَلَيْهِمَا
كِسَاءانِ مِن خَزٍّ : دِمَقْسٌ وَأخضَرُ
فَقَالَتْ لأُخْتيهَا أعِينَا عَلَى فَتًى
أتَى زَائِرًا وَالأَمرُ لِلأَمرِ يُقدَرُ
فَأقبلَتَا فَارْتَاعَتَا ثُمَّ قَالَتَا
أقِلّي عَلَيكِ اللَّومَ فَالخَطْبُ أيسَرُ
فَقَالَتْ لَها الصُّغْرى سأُعْطِيهِ مُطْرَفِي
وَدِرْعي وَهَذَا البُرْدَ إن كَانَ يَحْذَرُ
يَقُومُ فَيْمشي بَينَنَا مُتَنَكِّرًا
فَلاَ سِرُّنَا يَفْشُو وَلاَ هُوَ يَظْهَرُ
فكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَن كنتُ أتَّقي
ثَلاَثُ شُخُوصٍ : كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ
فَلمَّا أجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ قُلْنَ لي
ألَم تَتَّقِ الأعْدَاءَ وَاللَّيلُ مُقْمِرُ ؟
وَقُلْنَ أهذَا دَأبُكَ الدَّهرَ سَادِرًا
أما تَسْتَحي أم تَرعَوي أم تُفكِّرُ

❦ ❦ ❦

فيضع الشَّاعر : ابن أبي ربيعة خطوط القصَّة ، منذ ليلة ذي دوران ، وكيف كان التَّرقُّب للِّقاء ، ومرورها بمخاطر جسيمة ، فهو يتحدَّث في حوار مع حبيبته ، وكيف هبط عليها كنزول الطَّلِّ في ثغور الزُّهور ، أو كالماء على قلب الصَّديان ، ويتحاوران حديث قلبين مُزِجَا امتزاج الماء في

الدَّم محفوفًا بأشــواك وأخطار خشيــة الفضيحـــة ، ويختــم ابن أبـــي ربيعـــة ليلـــة ذي دوران ، فصـــلا من فصـــولِ قصَّتـــهِ ، بخاتمـــة فيهــــا زخــم روعة ، وخلاص نجاة بأُسلوب شيِّق مغرٍ :

فكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَـن كنـتُ أتَّـقـي

ثـلاَثُ شُخُوصٍ : كَاعِبَـانِ وَمُعْصِـرُ

ما هذا المَجنُّ أيُّها الشَّاعر ؟ إنَّه مجنٌّ أحدُ وأمضى مـــن السُّــيوف والسِّهام ، فمــن أقــوى من القــدودِ والنُّهــودِ والعيــونِ الفاتنـــات الرَّاميـــات بأسهمٍ ، ريشها الهدبِ ، فهذه القصَّة الغراميَّة ، فيها تحاوُرٌ بيــن لغـــة القلــوب والعيون فهيَ رسائل شوقٍ في لقاءٍ ظامئٍ ، شرب منـــه الحبيبان كؤوســا مــن ينبوع لهفة وشوق .

وختام القصَّة يختمها ابن أبي ربيعة بخاتمة عجيبة صوَّرها الشَّـــاعر شريطًا ســينمائيًّا كمنظـــر متحركٍ حتَّى تكادَ تعيــش هذا المشــــهد ، خـــامس خمسة !

فأنت تقرأ هذه القصيدة الرَّائيَّـــة وكأنَّك تقـــرأ شـــاعرًا قاصًّـــا مـــن الشُّعـــراء القصصيِّين من القـــرن العشريـــن ، وقـــد أُســـدل عليـــها خاتمـــة السِّتار ، كما يسدل الممثِّل ستاره على مسرحيَّته .

ويصحُّ أنْ نقول : إنَّ " نزار قبَّاني " في شعره نفحة من نفحات ابـــن أبـــي ربيعـــة ، كالوصف للمشط ، والكفِّ ، والبنان ، والفستان ، والجـــورب والمعصم ، والأنامل ، وما يماثل ذلك ، فنقـــول في شـــعر " نـزار " أو فـــي بعضهِ شعرٌ رَبَعِيٌّ .

وقصيـــدة ابن أبي ربيعة الّتي عنينا بالبحث عنها هيَ فـــي ديوانـــه كاملة ، ومن أحبَّ الاطّلاع عليها ، فليرجع إلى الدّيوان ، وابن أبي ربيعة حـــدّد مكان وقوع قصتّه ... أشار إلى المكان الّذي وقعت فيه القصّة والتّحـــاوُر بيـــن عناصر القصّة وأبطالها - إلاّ أنّه أغفل الزّمن . وهل كان بقصد أو مـــن بـــاب الصّدفة ؟! لا نعـــرف ذلك لأنّ القصّة فـــي ذلك العصر لَمْ تكتمل عناصرُهـــا الفنّيّةُ ، ولم تعرف بهذا العنـــوان والتّسمية ، إلاّ في القرن العشرين ، ونكتفـــي بهذه اللّمحة التّحليليّة ، عن شعر ابن أبي ربيعة .

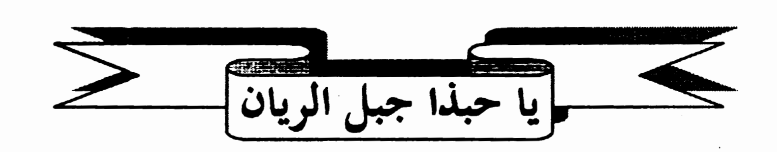
جـريـر

ابن أبي عطيَّة بن حذيفة بن كليب التَّميميُّ

٢٨هـ - ١١٠هـ / ٦٥٣م - ٧٣٣م

نشأ جرير في اليمامة ، وعاش عيشة بدويَّةً لا مدنيَّة ، وهاجر إلى البصرة ، فعاش بها فترةً ثمَّ أخذ يضرب في أرض الله ، فالتقى بطاغية زمانه : ((الحجَّاج بن يوسف)) فمدحهُ ، واتَّصل بعده بالملوك الأُمويِّين بدمشق ، فمدحهم ، فأسبغوا عليه النِّعم ، والمال الوفير .

وجرير له من الشِّعر الغزليِّ ما يثير العواطف ، ويحرِّك القلوب ، كما إنَّ هجاءه سيفٌ صارمٌ ، وهجاءٌ مدقعٌ ...



بَانَ الخَلِيطُ وَلَوْ طُوِّعْتُ مَا بَانَا
وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الوَصْلِ أقْرَانَا

حَيِّ المَنَازِلَ إذْ لاَ نَبْتَغِي بَدَلاً
بِالدَّار دَاراً وَلاَ الجِيرَانِ جِيرَانَا

قَدْ كُنتُ فِي أَثَرِ الأَظْعَانِ ذَا طَرَبٍ
مُرَوَّعًا مِنْ حِذَارِ البَيْنِ مِحْزَانَا

يَا رُبَّ مُكْتَئِبٍ ، لَوْ قَدْ نُعِيتُ لَهُ
بَاكٍ وَآخَرَ مَسْرُورٍ بِمَنْعَانَا

لَوْ تَعْلَمِينَ الَّذِي نَلْقَى أوَيْتِ لَنَا
أَوْ تَسْمَعِينَ إِلَى ذِي العَرْشِ شَكْوَانَا

كَصَاحِبِ المَوْجِ إذْ مَالَتْ سَفِينَتُهُ
يَدْعُو إلى اللهِ إسْرَارًا وَإعْلاَنَا
يا أيُّها الرَّاكِبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ
بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا لُقِّيتَ حُمْلاَنَا
بَلِّغْ رَسَائِلَ عَنَّا خَفَّ مَحْمِلُهَا
عَلَى قَلاَئِصَ لَمْ يحْمِلْنَ حِيرَانَا
كَيْمَا نَقُولَ إذا بَلَّغْتَ حَاجَتَنَا
أنتَ الأَمِينُ ، إذَا مُسْتَأْمَنٌ خَانَا
تُهْدِي السَّلاَمَ لأَهْلِ الغَوْرِ مِن مَلَحٍ
هَيْهَاتَ مِن مَلَحٍ بِالْغَوْرِ مُهْدَانَا

كان لهذه القصيدة دورٌ في دنيا الأدب منذُ ولدت ، وصاغها شاعرها : جرير صُوَرًا متحرِّكةً ، فقد ولع بها الأدباء ، والنُّقَّاد ، واحتفل بها التَّاريخ ، فالشَّاعر : جرير يفتتح قصيدته بصورة مؤلمةٍ ، صورة للبِعاد ..!

إنَّ الفراق مُرُّ المذاق ، فإنَّه فراق يطول ، أو يقصر يتجرَّع الحبيبُ كؤوسًا يعبُّها من دن فراقٍ مرٍّ ، فالفراق فراقان : فراق قصير ، وهو الهجرانِ .. قد يتلاقى الحبيبان ويظفران بظفرِ اللِّقاء على حاشية من حواشي الأيَّام ؛ وفراق لا لقاء فيه ولا رجعة بعده ، وهو فراقُ الحِمام ، فهنا تغمرنا ألطاف الله ، فينسينا ذلك الفراق ، والحديث نديره علي هجران الحبيب ، كما هو في صورة إحساس الشَّاعر المرسوم في رسمته .

إنَّ حبيبه قد بان – أيْ : بعد – ولو كان له سلطان أقوى من سلطان الغرام يطاع به ، لما تقطَّعت أسباب الوصل ، ولكنَّه لا أمر له

ولا حول ولا خيار ، وجرير هنا يرسم صورةً في منظرٍ كئيبٍ ، فيه وفاءٌ لأنَّـه لا يرغب أن يبدل تلك الدَّار ، بدارٍ أخرى ، ولا أهلاً غير أولئك الأهل .

ويستمرُّ في حرفه المتحرِّك ، يجوب القفار ، في ركبٍ يعيش حياة لهو وطرب ..! أمَّا هو ، فغارق في شجونه مروَّعٌ يلعقُ أحزانهُ .. فهل يجمع الطَّربَ والحـزن ؟ إنَّها صورةٌ رائعةٌ بما في منظريها من التَّناقض والتَّباين .

والشَّاعر : جرير يؤطِّر صورتهُ ، بصورةٍ فيها من الضِّدَّين المختلفين .. فربَّما شخص يبكي ، وآخر يعاني ، وثالث مسرور بالَّذي يعانيه ذلك العاشق ، وينتقل – فجأةً – ليرفع آلامه وشكواه ، إلى ذي العرش الَّـذي يعلم أسرار القلوب وما تخفيه الصُّدور ؛ حيث إنَّ شكواه لحبيبته ضاعت ، كما تضيع الذَّرَّاتُ في يدي العواصف ، فهيَ لا ترقُّ له ، ولا تشعر بموقد نار الحُبِّ الَّذي يعيش جرير على أتونـهِ .

ويصوِّر جريرٌ العاشقَ ، كربَّانِ سفينةٍ ، وسط أمواجٍ عاتية وقد مالت السَّفينةُ وأصبحت مهدَّدةً بالغرق ، ويفيق من حياة الحرمان والهجران فيعود إلى حياة (دبلوماسيَّة) يصوغ فيها الرَّسائل الشَّوقيَّة والغراميَّة ، فيزجيها إلى حبيبته ، لعلَّها تفتح باب الوصل .

وما هيَ الرَّسائل ؟ هيَ حروف قلب ملتهب بالصَّبابة ، في شعر يصوِّر معاناة العاشق يطوفُ في الآفاق ، فهو كالصَّحيفة السَّيَّارة ، ويطلب إلى من يحمل هذه الرَّسائلِ : رسائلِ الحبِّ الَّتي تُختصر في رموز تكتب بإشارة جفنٍ ، أو خفقة قلبٍ ، تصل كما يصل التَّيَّار الكهربائيُّ في خفقة مصباح .

وجرير يصف بيئة ذلك العصر الَّذي يعيش على أرضيَّتـهِ ؛ إذْ لا كهرباء فيه حتَّى يمثِّل تلك الرَّسائل بما صوَّرناها ! غير أنَّنا نفسِّر تلك الإشارات والرُّموز ، بما خطَّطنا له من شرح ... فجرير يريد أن يضع هذه

الرَّسائل : رسائل الصَّبابة في كفٍّ أمينةٍ غير خوَّانة ، حتَّى توصلها إلى في حبيبته !

ويزفُّ سلامه كقطرات من الأضواء ، تنسكب على ثغور المِلاح ، وكالأعطارِ تضوَّعُ من الزَّنبقِ والعمارِ .. فتنسكب روحًا شفَّافًا ، يفتح له أُفقًا من الوصل :

إنَّ العُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ
قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلاَنَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حَرَاك بِهِ
وَهُنَّ أضْعَفُخَلْقِ اللَّهِ أرْكَانَا

وقفة ، أيُّها القارئُ العزيز ! لهذه الصُّورة المتحرِّكة الَّتي صوَّرها الشَّاعر ، عن العيون .. وما أدراك ما العيون ؟ إنَّها العينُ الَّتي ينعكس على مرآتِها رؤيةُ الحياة ، وما فيها من صُوَرٍ أخَّاذةٍ ، مِنْ فرحٍ ؛ وحزنٍ ؛ وابتسامةٍ واكتئابٍ ، إنَّها من أدقِّ خلقِ الله .. إنَّها الجسم الصَّغير الَّذي ينطوي في رؤيتهِ الكونُ بأسرهِ ...

العيون الحوراء هيَ الَّتي تصرعُ الأبطال ، وتقتلُ الشُّجعان ، وتتركُها لا حراك بها ، ولا تفيق من سكرتها حتَّى كأنَّها في سكرةٍ أبديَّةٍ . وصوَّر الشَّاعر مَصَارع الأبطال الَّذين تصرعهم العيون ، وهم ذوو العقولِ الَّذين يعقلون ، ويعرفون أسرار السِّحر والجمال ، ويقدِّرون ما فيها من صُوَرٍ فتنةٍ ، فيعبُّون من كؤوسها حتى تسري في كيانهم ، فيُمْسُونَ ، وهم لا حراك بهم ، وهيَ تتراءى لنا أضعف خلقٍ في صورة الإنسان ، لكنَّها أنفذ من السِّهام ، فهيَ تنفذ للقلوب قبل شقِّ الجلود ... صورةٌ رائعة كروعة الفجر وهو يتمطَّى على قمم عرائس النَّخيل ، وثغور الأشجار .

الفرزدق

همَّام بن غالب بن صعصعة

٢١هـ – ١١٠هـ / ٦٤١م – ٧٣٢م

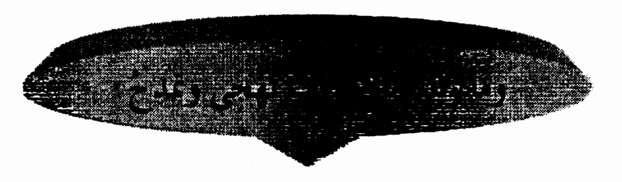
ولـــد فِيْ البصرة بالعراق ، سنة ٢١هــ الموافـــق ٦٤١م ، وكـــان أجداده من أشرف بيوت تميم ، فنشأ الفرزدق مزهوًّا بأمجـــادِ قبيلتهِ ، وحقٌّ لـــه أن يفخر ، لأنَّ جَدَّهُ صعصعةَ عظيمُ القدرِ ، ذائعُ الصِّيتِ ، محيي الوئيـــدة فـــي العصر الجاهليِّ ، وقيل : إنَّهُ فدى وابتاع ثلاثمائة وستِّين بنتًـــا ، كـــلٌّ واحـــدةٍ بناقتينِ وجملٍ ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

وَمِنَّـــــا الَّـــــذِي منــــع الوائِـــداتِ

وأحيــــا الوئِيـــــد فـلــــم تُـــوأدِ

وقد عرف بلقب الفـــرزدق لضخامة وجههِ وجهامتهِ ، وكنِّي بـــــأبي فراس ، وقد أصبح شاعرًا ذائع الصِّيت ، وأحد الأركان الثَّلاثة الَّذيـــن رفعـــوا الحكم الأُمويَّ ومجَّدوه .

والفرزدق كان له في ميدان السِّياسة جـــولاتٌ ، وصـــولاتٌ : فـــهو سياسيٌّ مغامر ؛ يمدح ملوك الأُمويِّين ، ويهجوهم ويقول :



وكانت له عقيدةٌ صلبة تشدُّه بحبٍّ أهل البيت ، حيث يدلُّ على هـــذه العقيدة موقفهُ الخطير من الحدث السِّياسي ؛ حيثُ تجشَّم فيهِ أخطـــارًا ... وقـــد روى التَّاريخُ هذه القصَّة الواقعيَّة .. وتِلْكَ قصَّةٌ تـــدلُّ علـــى عظمـــة آل بيـــت الرَّسول الأطهار .

وللفرزدق موقفٌ سياسيٌّ خطير ، عندما حجَّ هشام بن عبد الملك ، وكان وليًّا للعهد حين حجّه ، وطاف بالبيت العتيق ، وأراد استلام الحجر ، فلم يستطع لكثرةِ النَّاسِ وازدحامِهم فنُصب له مقعدٌ ، أي : كرسيٌّ ، ليجلس عليه ، فحاطت به الشُّرطة ، وأعيان من الشَّام .

فأقبل الإمام / زين العابدين – عليُّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب ، عليه وعلى آبائه وأبنائه أفضل الصَّلاة والسَّلام – فطاف بالبيت ، فأخذ الجمهور ينفرجون ويفتحون له الطَّريق ، لاستلام الحجر بدون جنود ، هيبةً له ، للطَّاعة الَّتي تغمره من خالقه ، تذلُّلاً وخضوعًا له ، ومن خضع لجبَّار السَّماوات والأرض ، يخضع له من في الأرض ، فتعجَّب أهل الشَّام ! كيف ينفسح الجمهور ، وينفرجون لهذا الرَّجل النَّحيف ، ويستلم الحجر ، بينما الحاكم الَّذي تحفُّ به ثلَّة من القوَّاد والجنود ، لم يتحصَّل على هذا المجد والعظمة ؟! فقال أحد أعيان الشَّام : مَنْ هذا الَّذي انفرج له الجمهور وانكفأ له البشر ؟ فأجاب هشام : لا أعرفه ! تجاهلاً منه ، لئلاَّ يرغب فيه أهل الشَّام .

فكان الموقف السياسيُّ الجريء من الفرزدق الَّذي لم يُقدِّر للعواقبِ حسابًا لجوابه ، أنا أعرفه !! فأنشد قصيدته السِّياسيَّة الَّتي فجَّرها قنبلة ذريَّة في ذلك الموقف الرَّهيب ، وارتجل قصيدته الميميَّة الَّتي تعطي صورةً واقعيَّةً عن أئمة أهل البيت ، وعن سيرة جدِّهم العطرة : الرَّسول الأعظم : محمَّد بن عبد الله – صلَّى الله عليه وآله – وتُعَرِّفُ ما لهم من مقام في الكتاب ، والسُّنَّة ، وعند المسلمين ، فسجن هشام الفرزدقَ ، بين مكَّة والمدينة بعد أن فجَّر قصيدته بارودًا ، بصوتٍ يملأ ذلك الفضاء ويهزُّه هزًّا عنيفًا ، فلم يرهبه هذا السِّجن ، ولم يُخِفْهُ سلطانهُ ، فهجاهُ قائلاً :

أتسجنني بين المدينةِ والّتي

إليها قلوبُ النَّاسِ يهوي مُنيبُها

يقلّبُ رأسًا لَمْ يكنْ رأسَ سيّد

وعينًا لهُ حولاء بادٍ عيوبُها

فعندما بلغ هشامًا هذا الهجاء ، أمر بإطلاق سراحه ، كما أرسل له الإمام زين العابدين هديَّة فأرجعها وقال : إنَّما مدحتك لوجه الله لا للمال ، فأعادها عليه الإمام ، وقال : نحن أُناسٌ لا نرجعُ في هديَّتنا ، إذا أهديناها .

هَذا الَّذي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ

وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

هَذا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ

هَذَا التَّقِيُّ النَّقيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

هَذا ابْنُ فَاطِمَةٍ إنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ

بِجَدِّهِ أنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا

وَلَيْسَ قَوْلُكَ : مَنْ هَذَا ؟ بِضَائِرِهِ

العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا

يُسْتَوْكَفَانِ وَلاَ يَعْرُوهُمَا عَدَمُ

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لاَ تُخْشَى بَوَادِرُهُ

يَزِينُهُ اثْنَانِ : حُسْنُ الْخَلْقِ وَالشِّيَمُ

حَمَّالُ أثقَالِ أقْوَامٍ إذا افْتُدِحُوا

حُلْوُ الشَّمائِلِ ، تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ

مَا قَالَ لاَ قُطُّ ، إلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ

لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاءهُ نَعَمُ

عَمَّ الْبَرِيَّةَ بالإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ

عَنْهَا الْغَيَاهِبُ وَالإمْلاَقُ وَالْعَدَمُ

إذَا رَأتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا

إلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ

فَمَا يُكَلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَسِمُ

بِكَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ

مِنْ كَفِّ أرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ

رُكْنُ الْحَطِيمِ إذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

اللَّهُ شَرَّفَهُ قِدْمًا ، وَعَظَّمَهُ

جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ

أيُّ الْخَلاَئِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمُ

لأوَّلِيَّةِ هَذَا ، أوْ لَهُ نِعَمُ

❦ ❦ ❦

نحن أمام لوحة فنِّيَّة ، تكامل في رسمتها عناصر الفنّ فيصدق عليها كلمةُ معنى " شعر " لا لفظهِ فحسب ، وترتبط هذه القصيدة العصماء ، بحدثٍ سياسيٍّ استمدَّ الشَّاعر : الفرزدق صُوَرَهَا من

أجوائهِ ، وممَّا يزيدها فنًّا وجمالاً : إرسالها ارتجالاً بعـوف الطَّبيعـة ؛ حيـث ارتجلها الشَّاعر ، كأنَّها من محفظة الذِّكرى ، فإذا قرأتها بتأمُّل وإمعان تحسُّـها قصيدة متفجِّرة من رياح ذلك الجوِّ .

ويزيدها روعةً كونها وليدة لحظتها تتدفَّق معينًا ، وتنساب انسـياب موج النَّهر ، فهيَ تصوُّر عقيدة صلبة ، وحياة إسلاميَّة ؛ حيـث تصف سـيرة مجد بعض صفحات ، من كتاب حياة منقذ الإنسانيَّة : الرَّسول الأعظـم ، وآل بيتـه الأطهار ، الَّذي لا يصـل لذروة مجـده أحد مـن البشـريَّة ، وذريَّتـه الطَّاهرة ، الَّذين هم إشعاعة من ضوئـه ، فأنت تقرؤها كـأنَّك تقـرأ قصيـدة لشاعر من القـرن العشريـن ، فـي أسلوبِها الشِّعريِّ ، ومعانيهـا المتدفِّقـة غير المتكلَّفة ، وفيها ربطٌ وحنويٌ ، لا نبوة فيها ولا نفـور ، لا مـن كلمـات تنفِّـر المسامع منها ، إنَّما هي شلاَّل ينحدر كقطعة واحدة ، وحَّـدت صُوَرَهَـا وجسَّدت فـي حرفٍ يرمز إلـى معنًى واحدٍ ، فهـيَ كشريط مرئـيٍّ يتحـرَّك أمام الأعيـن ، ينقلك إلى ما وراء القرون البعيدة ، قرابة ما يزيد على ثلاثـة عشر قرنًا ، تعيش مع هذا الحدث السياسـيِّ كأنَّك تمرُّ به اليوم ، وأنـت فـي الحرم الطَّاهر ، فتشهد ذلك المنظر يتجدَّد أمام عينيك .

فالقصيدة تربو على سبعة وستِّيـن بيتًـا ؛ وهـيَ فـي حرفـها المخضوضـر في لغة شعريَّة مميَّزة ، لم تهبـط من الذِّروة ، من ألفـها إلـى يائها ، تنساب في أُسلوبٍ رفيعٍ ، ولم تقيِّدها القافية أو الوزن ، بقيـود ، فـهيَ منطلقـة فـي أُفقهـا كضـوء الشَّمـس فـي آفاقهـا ، يبصرها علـى حـدٍّ سواء : البصـيرُ ، وغيـر البصير .

وعندما نحلِّل أُسلوبها والدَّوافع الَّتي أوجدت هذه القصيدة فـي ذلـك الجوِّ المبطَّن بضباب الأخطار ، نكبرُ هذا الموقف الجـريء ، وهـذا الحـرف البيانيَّ الَّذي انطلق كالمارد ، يحطِّم أمامه كلَّ السُّدود والحواجز ، غـير مبـالٍ بالقيد أو السِّجن أو القتل .

إنَّ للحرف عزمةً أمضى من السِّلاح ، ومن (الأواكس) ؛ فليس يغني عنه ذلك السِّلاح الَّذي يمزّق البشر ، فهو أمضى منه وأبقى وأخلد ، على آفاق الزَّمن والحياة .

ويعجبني قول بعض الشعراء :

رُبَّ أقلامٍ تُضاهي الأسلْه

فِي شبْاهَا وحدودِ المشرفِ

هيَ أخْرى للفتى معتقله

حيثُ لاَ زحفَ لغيرِ الأحرفِ

ونختتم صفحات العصر الأُمويِّ ، ونفتح صفحات كتاب العصر العباسيِّ .

العصر العباسي

إنَّ دراستنا مقصورةٌ على دور العناصر الشِّعرية ، وكيف تجري في آفاق الحياة ، تنبثق منها حروفٌ توجِّه تلك الحياة وذلك المجتمع ؟ فقرأنا صفحاتٍ من كتابِ العصور : الجاهليِّ والإسلاميِّ والأُمويِّ ، عصرًا بعد عصر ، ورأينا كيف كان الشِّعْرُ عنصرًا من عناصر الحياة ، يؤثِّر بأُسلوبه ، في الحياة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة ، ويرسم بحروفه الفرح ، والحزن ، والمدح ، والفخر ، والهجاء ، والرِّثاء ؟

ولَمْ تقتصر الأساليب الشِّعريَّة على هذه الأهداف ، بل تطوَّرت إلى لحنٍ غنائيٍّ يمتزج في شبابةٍ غنائيَّة ، تحدو بها الرُّعاة ، وهم يسوقون قطيع معزهم ، تتدفَّق أصواتهم في تلك الشَّبابة السِّحريَّة ، وتتغنَّى به الفتياتُ في مغازلهنَّ ، والرِّجالُ في محافلِهم ، والعشَّاقُ في وجدها المبرح ، كما يعزف به المغنُّون وترًا غنائيًّا ، وهم يشربون نخب الكؤوس .

وهذه العناصر المتلوِّنة بألوان الصُّوَرِ الشِّعريَّة ليست طارئة ، فهيَ منذ العصر الجاهليِّ ، تسير في شوطها وأهدافها الَّتي تحدَّثنا عنها .

غير أنَّ النَّقلة الحضاريَّة الَّتي انبثقت أشعَّتُها أضواء من سماء الإسلام ، هذَّبته وطوَّرته فرقَّت كلماته ؛ وحوَّلته من حياةٍ صحراويَّةٍ ، إلى حضارةٍ مدنيَّةٍ ، وصبغته بصورِ التَّرفِ والنَّعيم ، يستمدُّها من سماء المدن ، لا من رمال الصَّحراء ... وذلك في العصر الأُمويِّ ؛ حيث ترُفت حروفُهُ ، وتحضَّرت كلماته ، فكان له الدَّور ، في أسمار ملوك الأُمويِّين ، تغنِّي به الجواري ، عازفاتٍ على نخب الكؤوس .

وجاء العصر العباسيُّ فازدهرت الحضارةُ ، وأشرقت المدنيَّةُ ، فانفتحت الثَّقافة انفتاحًا مبينًا ، على عقولٍ وأفكارٍ ، بأجواء وآفاق أوسع من الآفاق الماضية ؛ حيث هيَّأ لهم الإسلام ظفرًا من فتوحٍ عادت على

المسلمين ، بكنوز لم يحلموا بها من ذي قبل ..! فكان هذا الفتح فتحًا تمازجيًّا ثقافيًّا بِصُوَرِ ألوانٍ من آفاق مختلفة ، ومن صورها وأفكارها : صفحات من آفاق الثَّقافة اليونانيَّة .

فهذه الألوان الثَّقافيَّة والفكريَّة امتزجت بالثَّقافة العربيَّة ، امتزاج الماء بالدَّم ! ولا ننسى إطلالةً من آفاق الثَّقافة الأندلسيَّة ؛ حيث كان للعربِ فتحٌ وحكمٌ استدام حقبةً ، فهذه النَّقلة الفتوحيَّة صبغت بلونها اللُّغة العربيَّة ، كما صبغت العربيَّة سماء الأندلس ، فاصبح الشِّعر له دورٌ تولَّد من هذه الحياة وتكوَّنت أساليبُ جديدةٌ ، كأشعار الموشَّحات ؛ وكان هذا الشِّعر يُستوحى من طبيعةٍ خصبةٍ ، ومن جمال بشريٍّ سحريٍّ .

كما امتزجت بالحضارات الأخرى التي فتحها المسلمون ، فذابت هذه الحضارات في اللُّغة العربيَّة كما تنحلُّ الأمواج في البحر .. ونقصد بانحلالها وذوبانها : أنَّها صارت حرفًا من حروف الضَّاد ؛ غير أنَّها أعطت هذا الحرف لونًا من ثقافتها ، كما أُعطيت الكثير من ثقافة العرب .

فكان للحضارة اليونانيَّة لونٌ من انفتاحٍ علميٍّ ؛ وللحضارة الأندلسيَّة ضرب من الفكر الأدبيِّ ، فكان لهذه الانصهارات نموٌّ ، كما ينمو الغصن الوريق ، في الرَّوابي الخضراء ، حتَّى اخضوضرت اللُّغة العربيَّة بباقاتٍ من الموشَّحات الشِّعريَّة الَّتي كان لها الانفتاحُ في سماء الشِّعر .

وتُرجمت شرائح من العلوم العقلانيَّة كالمنطق ، وبعض الفلسفة ، فكانت بغدادُ حاضرة الفكر في ذلك العصر سماءً تموج بنجوم العلماء ، والمفكِّرين ، والأُدباء ، ويطمحُ لها كلُّ نابغةٍ عربيٍّ ، أو غير عربيٍّ : أن تظلَّه سماؤها ، وينهل من معينها ؛ حيث في ذلك العصر أُنشئت دور للفكر ، وفتحت المعاهد العلميَّة ، مثل المستنصريَّة الَّتي بناها المستنصر بالله : الحاكم العباسيُّ ٦٢٣ – ٦٤٠هـ ، ولا تزال مشادةً حتَّى يومِنا

هذا ، ومدرسة دار سابور الّتي أسّسها سابور بن أردشير ببغداد ، وزارها أبو العلاء المعري ، فقال فيها ، من قصيدة :

وغنّتْ لنَا فِي (دار سابورَ) قينةٌ

مِنَ الورقِ مِطرابُ الأصائلِ ميهالُ

فأصبحت بغداد أُفقًا علميًّا ، وجوًّا رحبًا ، بمعاهدها الفكريَّة ، يطمح لها كلُّ من أراد الدِّراسة لعلم من العلوم ، أو لونٍ من ألوانِ الثّقافة سواء العربيُّ ، أو الغربيُّ ، أو الشّرقيُّ ! فإذا أمّها ذلك الطّالب اعتمر العمامةَ ، ولبس الجبّة والقباء ؛ لأنّها الشّعارُ والرّمزُ العربيُّ لطالب العلم في ذلك العصر ، فلماذا أقفرت بغداد وعادت جدبًا يبيسا على فمِ الأيّام من حضارة ذلك الفكر ، بعد ازدهارها حتّى أمسينا نؤمُّ جامعات الغرب ، وانعكست الصُّورة .. فإذا أراد العربيُّ أن يدرس علمًا من العلوم ، أو لونًا من ألوان الفكر ، ارتدى السُّترة ، ولبس (البنطلون) ، ووضع رابطة العنق وأمَّ المعاهد الأوربيَّة ، أو الأمريكيَّة ، لتلقِّي العلوم بها ... وهكذا تنقلب الحياة إلى الضدِّ .

ولعلَّ هذا الانقلاب جاء ، نتيجة عوامل كسبتها أيدينا ، وليس من هدفنا تحليل العوامل ، والأسباب الّتي عكست مفهوم تطوُّر الحياة العلميَّة بالأمس ، بعكس ما هيَ في اليوم ، إنّما هيَ سحابةٌ تجهّمت في هذا الأفق ، وبحثنا عن دور الشِّعر وتأثيره في تطوُّره في الحياة ، في تعاقب عصورها .

فكان للشِّعـرِ أكبـرُ دورٍ فـي هـذا العصـر المسـمَّى بـالعصر الذهبـيِّ ، لأنَّ ملوكـه فتحـوا خزاناتِـهم وأغدقـوا علـى بعـض العلمـاء والمفكِّرين ، حتَّـى روى التَّاريخُ ، عندما كتب الزَّمخشريُّ كتابًا فـي قواعـد النَّحو ، وُزِنَ بالذَّهب ، فأُعطِيَ ما عادل وزنه تشجيعًا للفكـر ، ولا تنـس دور الشُّعراء الَّذين يعيشون على مائدة بلاط القصر .

وفـي هـذا العصـر ، كثـرت الفتـوح ، فغـزا المسلمـون بـلاد الغـرب ، فملـكـوا الجـواريَ ، والغلمـان ، فكـان موسمًـا للشِّعـرِ ، والأدبِ ، والغنـاء ، والجـواري ؛ حيـث الأديـبُ يعلِّـمُ جاريتـه ، ويهذِّبُهـا ، ويحفِّظهـا الشِّعر ، ويدرِّبُهـا علـى علـم القواعـدِ العربيَّةِ ، ويعلِّمها ألحان الغناء ، ليبيعها على ذوي البلاط ، وقد قصَّ التَّـاريخُ قصَّةً طريفةً ، عَنْ جاريةٍ تلحِّنُ أبياتًا وتغنِّيها من قصيدةٍ ، أمام أحـد الملـوك العباسيِّين :

أظلـومُ ، إنَّ مصـابكَـمْ رجـلٌ

يُهـدي السَّـلامَ تحيَّـة ظلـمُ

وكان فـي ذلك السَّمر أديـب ناقد ، فقال لها لقـد لحنـت ، حيـث رفعت " رجل " ، وهو منصوبٌ ، فكان جوابُها هكذا علَّمني أُستاذي ... فـهذه القصَّة التَّاريخيَّة تعطينا صورةً لذلك العصر الَّذي كرَّس فيـه الأُدبـاء والنُّقَّـاد حياتهم للعلم والشِّعر والأدب الَّـذي تألَّق فيه الفكر ، إلى قمةِ التألُّق فـي ذروة العلمِ والثَّقافة ، عندما لمعت نجوم من سماء هذا العصر ، وتبارى فيه الشُّـعراء والأُدباء والعلماء ، حتَّى حفل التَّاريخُ بهم ، ولَفَتَ إليهم أنظار الغربِ والشَّرق .

وبلغ هذا العصرُ قمَّـةَ المجد ، في عهـد المأمـون ابـن هـارون الرَّشيـد ؛ حيـث كـان المأمـون عالمًـا ، وأديبًـا ، ويميِّـز بيـن الجوهـر ، والفحم ... وقد زخر ناديه بالعلم والفكر والمناظرات ، في العقـائد والمذاهب ، على اختلافِ ألوانها في نقاش أبحاثٍ دقيقةٍ ، كالولايةِ ، وكقِـدَم القرآنِ وحدوثـهِ ، كما روى التَّاريخُ .

وفي هذه الجلسات ، تعرضُ فيها صُوَرُ ألوانِ انفتاحٍ من ذوي الفكـر والأدب ، في حرِّيَّةٍ غيرُ مقيَّدةٍ ، فانتشى الفكر ، وكتبت الكتب ، فكان للحـرف دورُ تقديرٍ ، تميَّز به عن جميع العصور ، وفي طليعتـه الشِّـعر – ولا سـيَّما الشِّعـر الغنائيَّ الَّـذي تُلحنهُ الجواري ، وتعزفه في أسـمار اللَّيـل ، فـرقَّ الشِّعـر ، وتحضَّر ، فكان يقطرُ نسائم عطريَّة ، كأنفـاس عطـور جـواري القصور ، ولطفًا كأنفاس الفجر البليلة الَّتي تداعب ثغور الزُّهور .

ونضـربُ علـى ذلك مثـالاً واحـدًا – لا علـى سبيـل الحصـر – فالشَّاعر : ابن الجهميُّ كان يستمدُّ شعرهُ مـن طبيعـة الصَّحـراء القاسيـة ، فحينمـا هبـط فـي بغـداد ، كـان يصـف ممدوحـه بالوفـاءِ كالكلب ، وبالصِّراعِ كالتَّيس :

أنـت كالكلـبِ فـي حفـاظك للـودِّ

وكالتَّيـس فـي قـراع الخطـوبِ

وعندما ترفت مشاعـره ، وصبغتهـا الحضـارةُ الفكريَّـة فـي بغـداد ، وألهمته صبغةً من بيئتها ، رقَّت العاطفةُ الصَّحراويَّـة إلـى عاطفـةٍ حضاريَّةٍ :

عيـون المها بيـن الرُّصافـةِ والجسـرِ

جلبن الهوى من حيـثُ أدري ولا أدري

إنَّ للبيئـــةِ عنصرَ إلهامٍ ، يلعبُ دورًا في تـــأثُّرِ النُّفـــوسِ ، وخلـــق المشاعـــر ، فنشهدُ كيـــف كتب الشِّعرُ صُوَرًا من كتـــابٍ ملوَّنٍ بفنـــونِ هـــذه الحياة ، وكان في طليعة هذا الرَّعيل ، من دون في شعره صُـــوَرًا مـــن دنيـــا القصور ، وليالي بغداد ، الشَّاعر " أبو نُواس " .

أبو نواس

الحسن بن هانئ

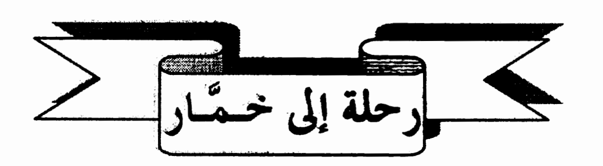
١٤٦هـ - ١٩٨هـ / ٧٦٣م - ٨١٤م

ولد أبو نواس في الأهواز ، وقيل في البصرة ، وكانت طفولته معذَّبة بائسة ... أخذ العلم من علماء البصرة ، وتحصَّل على ثقافةٍ واسعةٍ ، وكان إلى جنب ذلك ميَّالاً إلى حياةِ العبثِ والمجونِ ، اتَّصل بالبرامكة ، وآل الرَّبيع ، فأفاد مالاً كثيرًا .

واتَّصل بالرَّشيد ، ثمَّ قصد (الخصيب) في مصر ، فمدحه ثمَّ هجاه ، ولمَّا صار الأمين خليفة ، أصبح أبو نواس شاعره الخاص .

وقد نسج التَّاريخ قصصًا من الخيال ، حول أبي نواس ، واتِّصالاته ببلاط القصر أيَّام هارون الرَّشيد ، وما تقع من صور حكاياتٍ تدور بين الرَّشيد وجواريه ، وقَدْ حفل بهذه القصص " إعلام النَّاس " ، " ونفحة اليمن " ، " وألف ليلة وليلة " .

توفِّيَ الشَّاعر بعد حياة لهوٍ وشرب ، ومجون ، وقد تاب قبل وفاته ، وكتب قصائده في الزُّهد ، هكذا روى التَّاريخ عنه الحياتين .



رحلة إلى خمَّار

دعِ الرَّبعَ ما للرَّبْعِ فيكَ نصِيبُ
ومـا إنْ سبتْنِي زينبٌ وكَعُوبُ

ولكنْ سَبتْنِي البابليَّةُ إنَّها
لمثْليَ في طولِ الزَّمانِ سَلُوبُ

جفَا الماءُ عنهـا فـي الـمـزَاجِ لأنَّهـا

خيَـالٌ لـهـا بيـن العِظـامِ دبيـبُ

إذا ذاقَها مَـنْ ذاقَهـا حلَّقَـتْ بِـهِ

فلـيـس لـه عَقْـلٌ يُعَـدُّ أديـبُ

وليلـةِ دَجْـنٍ قَـدْ سَرَيْـتُ بفِتْيـةٍ

تـنـازعُـهـا نـحـو الـمُـدامِ قـلـوبُ

إلـى بيْـتِ خـمَّـارٍ ودون مَحلِّـهِ

قـصـورٌ مُـنِـيـفَـاتٌ لـنـا ودروبُ

ففُـزِّعَ من إدْلاَجِنَـا بعـد هَجْعـةٍ

ولـيـس سـوَى ذِي الكِبْريـاءِ رقيـبُ

تناومَ خوفًـا أنْ تـكـونَ سِـعَايَـةٌ

وعـاوَدَهُ بعـد الرُّقـادِ وَجيـبُ

ولـمَّا دعوْنـا باسْمِـهِ طـار ذُعْـرُهُ

وأيْقَـن أنَّ الرَّحْـلَ منـه خصِيـبُ

وبـادرَ نـحو البـابِ سعْيًـا مُلَبِّيًـا

لـه طـرَبٌ بالزَّائريـن عجيـبُ

فأطْلَقَ عن نابَيْـهِ وانْكَـبَّ ساجـدًا

لنا وهـو فيمـا قـد يظـنُّ مُصِيـبُ

وقال : ادخلوا ..حُيِّيتُمُ مـن عصابـةٍ

فمنزلكُـمْ سهْـلٌ لـديَّ ، رحيـبُ

وجـاءَ بـمصْبـاحٍ لـه فأنـارَهُ

وكـلُّ الَّـذي يبْغِـى لديـه قريـبُ

فقلنا : أرحْنَا هـاتِ إن كنـــتَ بائعًـا

فـإنَّ الدُّجَـى عـــن مُلْكِـــهِ سيغِيـــبُ

فأبْـدَى لنـــا صهْبـاءَ تَـــمَّ شبابُهـــا

لـها مـــرَحٌ فـــي كأسِهـــا ووثُـــوبُ

فلمَّـا جَلاهَـا للنَّدامَـــى بـــدَا لـهَـــا

نسيـــمُ عَبيـــرٍ ساطـــعٍ ولهيـــبُ

وجاءَ بها تـخْــدُو بهـــا ذاتُ مِزْهَـــرٍ

يتُـــوقُ إليهـــا النَّاظـــرون ربيـــبُ

كثِيبٌ علاه غُصْـــن بـانٍ إذا مشـــى

تكـــاد لـــه صُـــمُّ الجِبـــالِ تُنيـــبُ

وأقْبَـلَ مـحمـــودُ الجْمَـــالِ مُقَرْطَـــقٌ

إلى كأْسهـــا لا عيْـــبَ فيـــه أريـــبُ

يشَـمُّ النَّـدامَى الـــورْدَ مـــن وجنَاتـــهِ

فليـــس بــه غيـــرَ الـملاحـــةِ طِيـــبُ

فمـــا زال يسْقِينَـــا بكـــأْسٍ مُجِـــدَّةٍ

تُـــوَلِّي وأخْـــرَى بعـــد ذاكَ تَـــؤُوبُ

وغنَّى لنـــا صوتًـــا بلحْـــنٍ مُرَجَّـــعٍ

سرى البـــرقُ غريبًـــا فحـــنَّ غريـــبُ

فمنْ كان منَّا عاشقًـــا فــاض دمْعُـــه

وعـــاوده بعـــد السُّـــرور نَحيـــبُ

فمن بين مسرورٍ وبـاكٍ مـــن الـهـــوى

وقد لاح مــنْ ثـــوْب الظَّـــلامِ غُيُـــوبُ

وقد غابت الشِّعْرَى العَبُــورُ وأقْبلــتْ

نـجــومُ الثُّريَّـــا بالصَّبـــاح تـثــوبُ

❦ ❦ ❦

إنَّ هذهِ (السِّيمفونيَّة) لأبي نواس ، تعطينا لونًا من ألـــوان صُــوَرِ التَّرف الَّذي غرقت فيه مدينة بغداد ، في العصر العباسيِّ ، وكيف كانت تعيــش في حياة اللَّهو والطَّــرب والسُّكــر ؟ فأبــو نــواس جسَّد هذه الحيـــاة : حيــاة اللَّعـــب ، في مناظـــر تسلسليَّة ، وعرضها كما يعـــرض الشَّـــريط السِّــينمائيُّ لقطاته ، لقطةً فلقطةً .

فقَــدْ ندَّد بالَّذين يتغزَّلون ، أو يصفون الأطلال ، وأعلن عن عشـــقهِ البابليَّة لا بهند وزينب ، وبدأ يصف رحلته إلى الحانة ، وكيف مرَّ في طريقـــهِ يدلجُ ، بيـــن القصـــور إلى بيت معشوقتهِ : ابنةِ الكرميِّ ، تصحبه ثلَّـــةٌ مـــن الفتيان ، وهم في شوق ملتهب إلى رشفة الكأس ، يدلجون على جنحِ طائر مـــن الغرام ، حتَّى وصل بهم إلى البيتِ الَّذي به غرام الفؤاد ، وكان فـــــي هزيــع متأخِّر من اللَّيلِ ، يرعب من يزار في ذلك الوقت ، فكانت هذه الزَّورة عـــاملاً مخيفًا ، عندما دقُّوا الباب على صاحـــب الحانة ، فعلا صدى هـــذه الطَّرقـــات امتلاء روع صاحـــب الحانـــة ، فزعًا وخوفًا ، ولَمْ يفـــرخ روعه إلاَّ عندمــــا هتفوا باسمـــهِ ، وهـــدأت ثـــورة خوفـــه ، وسعى لهم سعيًا ، على الـــرَّأس لا على الأقدام ، وحيَّاهم تحيَّة التَّاجر الَّذي يصرِّف بضاعته .

ومضـــى الشَّاعـــر : أبو نـــواسٍ ، في قصيدته يصف صُوَرَ تلـــك اللَّيلة ، وما فيها من مشاهدٍ تسلسليَّة ... ولا نريد أنْ نقف على كلِّ بيـــت منـــها لنجسِّده في صورته ! إنَّما أوردنا هذهِ " السِّيمفونيَّة " بكلِّ ما فيها مـــن صُــوَرِ

شاعريَّةٍ ، وارتباط في وحـدة الصُّوَرِ والمعاني ، ولـم يشر لها النُّقَّاد بتحليـل أو نقد .

كما تصوِّرُ هذهِ القصيدة حياة التَّرف واللَّهو ، الَّتي أشرنا لها ، علـى من طـوت من نعيم وتـرف تلك الأيَّام الَّتي مرَّت على بغـداد فـي العصـر العباسـيِّ ، الَّتـي تحوَّلت فيهـا بغـداد إلى زورقٍ غـارقٍ في بحـر نعيـم وترف ، بجانبِ صرع من الطَّوى ، ودمعةٍ لاذعةٍ ، في جفون أرباب الأكواخ .

وقد طغى النَّعيم والتَّـرف ، حتَّى روى التَّاريخ فصولاً منـه ، لمـا تتمتَّع به الجواري من رقَّه وبذخ ، كانـت جارياتُ البلاط تستعمل إنـاءً مـن الذَّهب ، بدل الدَّلـو ، يوضـع فيه خيوطًا من الإبريسم ، أي : مفتـولاً مـن الحرير ، بدل الحبل ، لتدليَ به في نهر دجلة لأخذ الماء .

ونكتفي بهذه اللَّمحة المقتضبة ، عن هذا العصر ، لأنَّ دراستنا عـن دور الشِّعر ، وتأثيره في الحيـاة ، لا عن صُوَرِ التَّاريخ وتطوُّره ... وما نمـرُّ بهِ منْ لمحـاتٍ تاريخيَّةٍ عن هذه العصور ، فهيَ تشبهُ الفصـل التَّعريفـيَّ أو التَّكميلـيَّ ، فلنسر إلى شاعرٍ آخر ، وهو أبو فراس الحمدانيُّ .

أبو فراس

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان

٣٢٠هـ - ٣٥٧هـ / ٩٣٢م - ٩٦٨م

ولد في مدينة الموصل بالعراق ، من أسرة كريمة المحتد ، وقتل أبوه ، في خدعةٍ دبرها لهُ ابنُ عمِّهِ ، وأبو فراس لا يزال طفلاً ، فأخذه ابنُ عمِّهِ سيفُ الدَّولة فتربَّى في بلاطه ، وتدرَّب على أساليب الفروسيَّة والبطولة ... فكان بطلاً شجاعًا مُعلِمًا لا يبالي بالجحافل ، وأمَّرهُ سيفُ الدَّولةِ على منبج وحرَّان .

وفي إحدى تنزُّهاته ، وكان يحيط به ثلَّةٌ قليلة من الجند ، خرج عليه جيش من الرُّوم لا طاقة له بهم ففرَّ من معه وبقيَ وحده يجابه الجحافل حتَّى وقع في أسر الرُّوم ؛ فكان على سيفِ الدَّولةِ تقديمُ الفداءِ لفكِّ أسرهِ وإطلاقِ حرِّيتهِ ؛ غير أنَّ سيفَ الدَّولةِ طاول في الفداء حتَّى عاش وراء القضبان الحديديَّة سبع سنوات ، فكان لهذا الأسر جروح نزيزة تحولت إلى قصائد في أوتارٍ باكية ، فيها شكوى مأساويَّة ، وعتابٌ مرير لابن عمِّه : سيف الدَّولة في أُسلوب رقَّة وودٍّ مبطَّن بالحزنِ ، والإباء ، والبطولةِ ، وودٌ صادقٍ لابنِ عمِّهِ ، وحنينِ أوتارٍ تسيل عواطف إلى زوجهِ وأمِّهِ وأهلهِ ووطنهِ ، وأكثرُ هذه (السِّيمفونيَّات) الرُّوميَّات موجَّهة لسيف الدَّولة .

ولمَّا طال أسرهُ والمماطلة في تقديم الفداء ، تدخَّلت أمُّ أبي فراس لتستدرَّ عواطف سيف الدَّولة بصفتها أمًّا وامرأةً ذات رقَّة ، ولها مقام الدَّلال ؛ لأنَّها أمُّ زوجتهِ أمِّ أبنائهِ فهيَ تدلُّ بمكانتها ، لذلك بذلت جهودًا وشوطًا بعيدًا في سعيها ، لتستدرَّ حنوَّه ، وتذيب الجليد - إن كان هناك جليد - في تقديم الفداء ! تضبَّب بين سيف الدَّولة وابنها أبي فراس !

وبرغم هذا وذاك لم تلن قلبهُ السياسيَّ المتلوِّن ، فأخذ يماطلُ سيف الدَّولة في الفداء ، حتَّى ماتت أمُّه بحسراتها أسيفةً ، لم تر ابنها ، وماتت وهو

بعيدٌ عنها ، قابع وراء قضبان الحديد ...! وكان لهذا المطال نزيزٌ من الجراح تجسَّدت في قصائده الرُّوميَّات الباكيات ، فينوحُ كما تنوحُ الحمائم ، والحمامة الطَّليقةُ قد تعيش مع إلفها مِنْ فنٍ إلى فنٍ آخر ... أما شاعرنا أبو فراس ، فهو أسيرُ قضبانٍ حديديَّة يفصل بينه وبين أحبابه بحار وصحاري .

وصوَّر هذا الفراق وهذا البعد في قصائده الرُّوميات ، كما يصوِّرُ الرَّسامُ لوحاتهِ الغنيَّة النَّاطقة ... فكان لهذا المطال في عدم الإسراع في الفداء لهبُ وهجٍ من العبقريَّة ، تفجَّرت في قصائدِ الرُّوميات الَّتي خلَّدت أبا فراس ، وأصبح من عمالقة الشِّعر .

إنَّها لوحات من الفنِّ الرَّفيع ؛ غير أنَّنا نجهل السِّرَّ الَّذي دعا سيف الدَّولة للمماطلة في الفداء لابنِ عمِّهِ ، وأخي زوجتهِ ، وخالِ أبنائهِ ، وأحد قوّادهِ المخلصين ؛ فلا يزال الضَّباب التَّاريخيُّ يحيط بهذا السِّرِّ ، ولم تتَّضح الرُّؤية ، فتشرق الأضواء فينهتك هذا السِّرُّ .

وبعبارة مختصرة إنَّها السِّياسة الَّتي أبوها الزئبقُ الفرَّارُ ...! فلبث أبو فراس يعاني معاناة مريرة في سجنهِ ، ولم يخطر يومًا ما بمخيِّلته : أن يقف ابنُ عمِّهِ منه هذا الموقف الشائن البغيض ، وبعد لأيٍ طويلٍ وأيَّامٍ عجافٍ تعست العجلةُ سبعُ سنين كسني يوسف - على نبيِّنا وعليه أفضل الصَّلاة والسَّلام - قدَّم سيف الدَّولة الفداء ، وبعد فكِّ حرِّيَّة أبي فراس ، عاش مع سيف الدَّولة سنةً واحدةً ، توفِّيَ بعدها سيف الدَّولة ، وللآمال المشبوبة الطَّامحة في نفس أبي فراس كربيع شبابه المخضوضر ، أراد أن يمدَّ ظلاله على رقعة فسيحة تسايرُ رغباتهِ البطوليَّة ، وأنوارِ شبابهِ ... فحدثت مشادَّة عنيفة بينه وبين ابن أخته أبي المعالي : ابن سيف الدَّولة ، فأغرى بأبي فراس أحدَ خاصَّةِ أبي المعالي فأرسل له جيشًا ...! تصادم الجيشان في معركة ، كانت معركة أبي المعالي

ابن سيف الدَّولة ترجحُ كفَّتُها بالعتاد والجند ، فسقط أبو فراس جريحًا في الميدان ، ينزُّ من جراحه ، فمات في ريعان شبابهِ ، وقال قبل اللَّحظات الأخيرة من موته قطعة باكية مأساويَّة حزينة ، نعى بها نفسهُ ، يخاطب بها ابنته :

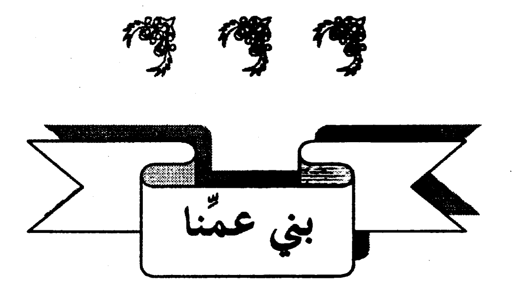
أبُنيَّتي لا تحزني
كلُّ الأنام إلى ذهابِ

أبنيَّتي صبرًا جميلاً
للجليل من المصابِ

نوحي عليَّ بحسرةٍ
من خلف سترك والحجابِ

قولي إذا ناديتني
وعييت عن ردِّ الجوابِ

زين الشَّباب أبو فراس
لم يمتَّع بالشَّبابِ



أمَا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوَابُ
وَلاَ لِمُسِيءٍ عِنْدَكُنَّ مَتَابُ

لَقَد ضَلَّ مَن تَحـوِي هـوَاهُ خَرِيـدةٌ

وَقَد ذَلَّ مَـن تَقْضِـي عَلَيـهِ كَعَـابُ

وَلَكِنَّنـي وَالحَمْـدُ للَّـهِ حَـازمٌ

أعِـزُّ إذا ذَلَّـتْ لَهُـنَّ رقَـابُ

وَلاَ تَـمْـلِكُ الحَسْنَـاءُ قَلْـبِيَ كُلَّـهُ

وإنْ شَمِلَـتْهَـا رِقَّـةٌ وَشَبَـابُ

وَأجرِي فلا أعطي الهوَى فضْلَ مقـوَدي

وَأهْفُـو وَلاَ يَخْفَـى عَلَـيَّ صَـوَابُ

إذا الخِـلُّ لَـمْ يَهْجُـرْكَ إلاّ مَلالَـةً

فَلَيْـسَ لَـهُ إلاّ الفِـرَاقَ عِتَـابُ

إذا لَمْ أجِدْ مِـنْ خُلَّـةٍ مَـا أُرِيـدُهُ

فَعِنْـدِي لأخْـرَى عَزْمَـةٌ وَرِكَـابُ

وَلَيس فرَاقٌ ما استَطَعـتُ فـإن يكُـنْ

فِرَاقٌ عَلَـى حـالٍ فَلَيْـسَ إيَـابُ

صَبُورٌ وَلَوْ لَـمْ تَبـقَ مِنّـي بَقِيّـةٌ

قَؤولٌ وَلَـوْ أنَّ السُّيُـوفَ جَـوَابُ

وَقُورٌ وَأحْـداثُ الزّمَـانِ تَنُوشُنِـي

ولِلْمَوْتِ حَوْلـي جَيْئَـةٌ وَذَهَـابُ

والحَظُّ أحْـوَالَ الزّمَـانِ بِمُقْلَـةٍ

بها الصِّدقُ صِدقٌ وَالكِـذّابُ كِـذابُ

بِمَنْ يَثِـقُ الإنْسَـانُ فِيمَـا يَنُوبُـهُ

وَمِنْ أينَ للحُـرِّ الكَرِيـمِ صِحَـابُ ؟

وَقَدْ صَـــارَ هَـــذا النَّـــاسُ إلاّ أقَلَّهُـــمْ
ذِئَـــابًا عَلَـــى أجْسَادِهِـــنَّ ثِيَـــابُ
تَغَابَيتُ عَـــنْ قَوْمِـــي فظَنُّـــوا غَبَـاوَتِي
بِـمَفْـرِقِ أغْبَانَـــا حَصًـــى وَتُـــرَابُ
ولَـوْ عـرَفُونـــي حَـــقَّ مَعَرِفَتـــي بهِـــمْ
إذًا عَلِـمُوا أنّـــي شَهِـــدْتُ وَغَابُـــوا

لم يكن أبو فراس : الفارسَ المقدام الَّذي يمتلكُ أَزمة ميدان النِّضـــال فحسب ، فأبو فراس شاعرٌ مفنٌّ ، وراسمٌ لحياة مأساويَّة ، برغم كونهِ أمـــيرًا يعيـــش فـــي القصـــور ، وبيـــن الحدائـــق المخضوضـــرة ، والجـداول المتدفِّقة ، وزغردة الطُّيور ، وهمسات النَّسيم ، وحفيف الأوراق ، وغرق فـــي دنيًا نعيم ، ولكنَّ التَّحولُ المفاجئ من نعيمٍ إلى جحيمٍ إلى أسرِ مريرٍ ، والبطـــل الشُّجاع أصعب شيءٍ عليه في حياته الميدانيَّة : الأسـر ... ومـــا أدراك مـــا الأسر ، فهو يفضِّل الموت على الأسر والفرار ؛ غيـــر أنَّ القضاء ولا رادَّ لـــه أدخل أبا فراس في قفصِ أسرٍ مرير ، قابعًا وراء القضبان الحديديَّـــة ، تفصلـــه صحاري وبحور وحدود فتحوَّل ذلك النَّعيم إلى أحداثٍ جســـامٍ ، وأيُّ أحـداث أمضُّ وأمرُّ على بطلٍ فارسِ ميدانٍ ، وأميرٍ يقع في شرك الأسر ، بين قيـــودٍ وقضبـــانٍ لا يتحرَّك ، ولا يـــرى روعـــة الفجـــر ، ولا يمتطـــــي صـــهوة الخيل ، ليصارع الأبطـــال في ميدانٍ محتشـــــدٍ بلجـــب ، وخميـــس لامـــع بالسُّيوف والرِّماح ، فهو بعيد كلَّ البعد عن أحبابهِ ووطنـــهِ ، لا يعـــرف عـــن أخبارهم أو أخباره إلا كخلسة من حرف يتسرَّب لهم على موجة مـــن موجـــات بحر الرُّوم ، فهو وسط قومٍ غرباء اللِّسان واللُّغة ، غرباء الجنس والقوميَّة !!

فهل هذه الحياة المأساويَّة المكبَّلة بالحديد ؛ والقيود ؛ وبنحر الحرِّيَّة ، تبقي للشَّخص ظلاًّ من حياة رفاهيةٍ ونعيم ، أو لمعة فكر تشرق عليه من كوَّة سماء الأدب ؟! ولكنَّ العبقريَّة لا تموت ، وإن عاشت في جوٍّ ملبَّد بالشَّقاء غير الجوِّ الَّذي درجت عليه ، من حياة نعيمٍ مخضوضرٍ خصبٍ ، تتنفَّس الحرِّيَّةَ في سلطة حاكمٍ سلطانٍ يأمر فيطاع .

غير أنَّ العبقرية قد تنمو وتنبت وردًا ، وتشرق نجومًا تضيء من حياة سماءٍ مأساويَّة ، يبطِّنها الحزن المرير والقلق النَّفسيّ ... الَّتي تتأرجح بين تلك القضبان ، فتصهر العبقريَّة في مجمر الآلام والشُّجون .

غير أنَّ هذه الحياةَ جعلت الشَّاعرَ في بوتقةٍ متفجِّرةٍ ، كالبارود من وهج ألمِ العبقريَّة الَّتي تتطاير كذرَّات ضوئيَّة تحطِّم القضبان ، لتشتعل في سماء الحياة شموسًا تضيء الحالكات ، بوعيٍ حسٍّ مرهفٍ ، ينفذ إلى ما وراء الأسرار ، فجاءت قصائده الرُّوميَّاتُ تعبيرًا يجسِّد عاطفة جيَّاشة ، وتفجُّر قلبٍ ، وإحساس ضميرٍ ، ولهفة شوقٍ وطنيَّة تصوِّر الهجر المبرِّح لبلاده وأهله ، ودموع ألحان باكيات ، وأوتار حزينة تنبع من معاناةٍ مريرةٍ .

فالقصائد الرُّوميَّات لوحات زيتيَّةٌ في ذروة الفنِّ ؛ لذلك عُنيت بالدِّراسة والنَّقد ، واختلف النُّقاد في تلك القصائد ، هل تعلو في مضامينها ، على شعر المتنبِّي أو تساويه ؟ فدار حولها حوار فكريٌّ طويل ...! وأنت عندما تقرأ قصائد الرُّوميَّات تشعر بهزَّة روحيَّة تسري في كيانك ، وفي ذرَّاتِ جسمك كما تهزُّك النَّشوة ، أو كما ينقلك ذلك الطَّيف الحزين ، فيصوِّر لك تلك الحياة ، ويجسِّد لك المأساة – فكأنَّك تعيش مع أبي فراس في القسطنطينيَّة : " عاصمة الدَّولة الرُّومانيَّة " ، رهن ذلك المحبس وراء القضبان الحديديَّة .

ولعلَّ من الخير أسر أبي فراس وسجنه ، فيعود بردود خير على اللُّغة العربيَّة ، بثراءٍ ؛ وفتوحِ كنوزٍ تكشف عن موهبة شاعريَّةٍ لأبي

فراس ، تنخفض عن سمائها الشُّعراء ؛ حيث حلَّق في أُفقٍ بعيد المرمى ، فكلَّما ماطل سيف الدَّولة وأخَّر الفداء ، ولم يفِ لابن عمّه بما يجب عليه ، لخلاصه من الأسر ، كان لهذا التَّأخير انفجار براكين عبقريَّة بالألم ، ولهيب من شوط الشَّقاء المبرّح ، فنفح الدُّنيا بقصائد عصماء ، ولم نعرف السِّرَّ المضبَّب وراء صفحات التَّاريخ ، لتأخير سيف الدَّولة الفداء ... هل هو صرفُ صدفةٍ ؟ أو كان أمرًا سياسيًا غطَّى على معالمه التَّاريخ ، فالسِّرُّ مغلَّف في تلافيف الزَّمن السَّحيق ، ومغلقة عليه أبواب الماضي البعيد ، غير أنَّنا نستطيع أن نقول : إنَّ هذا التَّأخير كان نعمةً للفكر والضَّاد .

فالرُّوميَّات هيَ من الخوالد ، وتحلِّقُ بجناحي شاعرها إلى أُفقِ الخلود ، وتسجِّله في تاريخ الخالدين ، وما هذه (السِّمفونيَّة) الَّتي فيها عتابٌ مريرٌ لابنِ عمِّهِ – سيف الدَّولة – وصفٌ يجسِّد مرارة المعاناة إلاَّ مصداقٌ واقعيٌّ لما استشففناهُ مِنْ مماطلة سيف الدَّولة ، لتأخير الفداء ، وعدم رضى أبي فراس بهذا التَّعامل معه ، يكشفهُ لنا هذا الحرف الحزين الَّذي صوَّر لنا هذه التَّجربة الواقعيَّة من حياة شاعرٍ وفارسٍ .

فإلمامة بصوَر بعض لوحات هذه القصيدة الَّتي تتسلسل صوَرها كلمحات ضوءٍ بعضها من بعض ، أو كشلاَّل نهر ينحدر من علٍ ، في قطعِ موجةٍ متدافعة – أو كمرآةٍ ينعكس عليها ألوان الظِّلال والأضواء :

إذا الخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إلاَّ مَلالَةً
فَلَيْسَ لَهُ إلاَّ الفِرَاقَ عِتَابُ

وَقَدْ صَارَ هَذا النَّاسُ إلاَّ أقَلَّهُمْ
ذِئَابًا عَلَى أجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ

وَقُورٌ وَأحداثُ الزَّمَـانِ تَنُوشُنِـــي
وَلِلْمَــوْتِ حَوْلــي جَيْئَــةٌ وَذَهَــابُ

وَأَلحَظُ أحْـــوَالَ الزَّمَــانِ بـمُقْلَــةٍ
بها الصِّدقُ صِدقٌ وَالكِـذَابُ كِـذابُ

هذه صورة ناطقة بالأسى والعتاب المرير ، واليأس الَّذي فجر هـــذه الصُّورة لهيبًا يستمدُّه الشَّاعر من واقع الحياة :

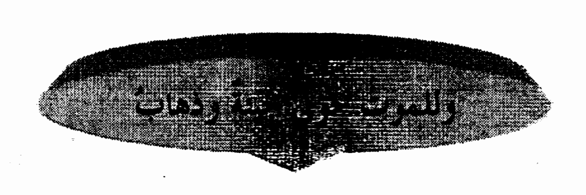


لا يفيد فيه التقرُّب أو التودُّد فدواؤه الفراق .

ويوغـل الشَّاعر فـي تصوير الواقـع فيرى النَّاس : إنَّهم صـــوَر ذئاب ، عليهم ثياب ، فهم لا يفون وإنَّما يأكل بعضهم بعضًا ! ويستمدُّ الشَّـــاعر هذه الحقيقة المرَّة من أحـداثِ الزَّمانِ ، ومن تجاربِ خبرتهِ المأســاويَّة الَّتــي كشفت له صورَ الحيـاة ، فهـذا عتاب مبطَّـن بمرارة لابـنِ عمِّـهِ : سـيف الدَّولة ، تجسِّد حياة الأخلاَّء ، وكيف التَّعامل معهـم في هذه الحياة ، وما هـــو دواء الملال : الدَّاءُ المستشري في أخلاق المجتمع - إلاَّ الفـــراق ، وإن كـان هــذا السِّلاح سلاحًا سلبيًّا .

ويمضي الشَّاعر في رسمته ، فيرسم لنا صورةً من حياتهِ المريـــرة الَّتي يعانيها في محبسين : السِّجن ، والغربة ، فيجسِّد ما يعانيــه مــن أحـداث ويؤطِّرها في صورةٍ واضحة الحرف .

إنَّ أحـداث الزَّمان تتناهبــه كما تتناهب السُّيوف جسم بطـــلٍ فــي وغًى ؛ فالموت يغمره في المساء والصَّبــاح ، كأنَّها لحظاتهُ الأخـــيرة وهــذه صورةٌ مأساويَّة رائعة :



ولا تزال مقلته مرآة تعكس أهل زمانهِ ، فلا تنطلي عليه الوعود المعسولة المدفوفة بالزُبدِ من الَّذين يقدرون على فدائه ، ولم يفدوه ، والإشارة إلى سيف الدَّولة ، فالصِّدقُ يراهُ صدقًا ، والكذبُ يراه على حقيقتهِ ، والبشر لم يعد بشرًا ، إنَّهم في صورة ذئابٍ لبسوا الخِداع والمكر ثيابًا ، هكذا رسم البشر : أبو فراس ، من معاناته وتجربتهِ المريرة ، ولعلَّ هذه الإشارة الحرفيَّة المغلَّفة بلمحاتٍ حزينةٍ ، تبطِّنُ ابنِ عمِّهِ : سيف الدَّولة ، فالصُّورة الَّتي عاشها سجينًا في بلاد الرُّوم ، قرابةِ سبعة أعوام ، ويمضي في هذه الرَّسمة فيختم لوحته الزَّيتيَّة ، بمشهدٍ رائعٍ فيه زخمٌ :

وَأطْلُبُ إبْقَاءً عَلَى الوُدِّ أرْضَهُ
وَذِكْرِي مُنًى فِي غَيرِهَا وَطِلابُ
كَذاكَ الوِدادُ المَحضُ لا يُرْتجَى لَهُ
ثَوَابٌ وَلا يُخشَى عَلَيهِ عِقَابُ
وَقد كنتُ أخشَى الهجرَ وَالشَّملُ جامعٌ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَفْتَةٌ وَخِطَابُ
فَكَيْفَ وَفيمَا بَيْنَنَا مُلْكُ قَيصرٍ
وَللبَحْرِ حَوْلي زَخْرَةٌ وَعُبَابُ ؟
أمِنْ بَعْدِ بَذلِ النَّفسِ فيما تُريدُهُ
أثَابُ بِمُرِّ العَتْبِ حِينَ أثَابُ ؟
فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الَّـذي بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ عَامِـرٌ
وَبيْنِـي وَبَيْـنَ العَالَـمِـينِ خَـرَابُ

إنَّ هذه الخاتمة قطعةٌ تذوب ألمًا وعتابًا ، يصوِّر الشَّاعر في بيانٍ رائع : كيف يعيش عيشة الحرمان ، ويشرب من كؤوس الغربة والبعاد ، ولا يحرِّك ابنُ عمِّه : سيفُ الدَّولةِ ساكنًا ، وهل هذا جزاءٌ للودِّ الخالصِ الَّذي لا يطمعُ فيه ثوابًا ، ولا يخشى عليه عقابًا ؟ وهل الأبطالُ الَّذين يضحُّون بأنفسِهم في سبيلِ إشادةِ أركانِ المُلكِ وبقائِه ، يُثابون بإهمالٍ غيرَ مُكْتَرَثٍ من قوَّادهم ، وبمطالٍ لا وفاء لهُ ، ويجزَون بشرِّ العقابِ ؟

وقد طافتْ بآفاقِ الشَّاعرِ هواجسُ لَطيافٍ تصوِّرُ لهُ أيَّامَ ربيعِ إمرتِهِ ولقائِهِ بابنِ عمِّهِ ، والشَّملُ جامعٌ ، فهو لا يطيقُ الهجرَ ، فكيف بهذا الفراقِ المرِّ الَّذي يفصلُهُ بينهما ملك الرُّومِ ، والبحرِ الَّذي له صولاتٌ وجولاتٌ ، لمحها وهو في زنزانتِه ، من موج بحر غضوب وتذكَّر أيَّام حلب وحرَّان ومنبج ، وكأنَّه على جناحِ ذكرياتٍ وفي كلِّ يومٍ بينهم لفتةٌ وخطابُ ، وكيف به وقد فصل البعدُ بينهما بدولاتٍ ، وبحورٍ ، وجدرٍ من السِّجنِ ، وقضبانٍ من الحديدِ ، فيصيغُ أبياتَه العتابيَّةَ ، في لهفةٍ لعلَّها تمرُّ على قلبِ ابن عمِّه مرورَ النَّسائمِ ، في رقَّةٍ وحنانٍ فتلينُهُ فيرقُّ لأَسرهِ ، فتهزُّهُ هذه الصُّورُ المسلسلةُ فتحرِّكُ العواطفَ الغافيةَ من جوِّ الإهمالِ الَّذي سدرَ فيه ابنُ عمِّه ، وهيَ تستمدُّ في أُسلوبِها الوفاء والإخلاصَ لابنِ عمِّه برغم ما يعانيه من حياةٍ تنسي كلَّ حبيبٍ حبيبهُ ، فهو لا يرى في حياتِه المظلمةِ المؤلمةِ فجرًا يشرقُ ، إلاَّ من أنامل ابن عمِّه ، برغم صدود سيفِ الدَّولةِ عنه ، وعن هذه الرَّسائل الَّتي انطوت عليها تلك القصائد العتابيَّة العصماء ، لعلَّه يفرخُ روعهُ من الغضب ، ويرضى فيقدِّمُ له الفداء .

ونسجّلُ على أبي فراسٍ إشارةً نقديَّة ، وإن كانت من وراء جـــدران القرون ...! في خاتمة قصيدتهِ : البيتان اللَّذان خاطب بهما ابن عمّه متمنيًّا كــلَّ ما بينهما عامرًا وما بينـــه وبين العالمين خراب ، وهذه المقولة لا تصلح مـــن بشر لبشر ، إنَّما تصلح من عبــدٍ ، لخالقَ السَّماوات والأرض ، فهي تصـــدق على واقع الإخلاص من عبدٍ لربّه .

الشَّريف الرَّضيُّ " محمَّد بن أبي أحمد الحسين "
الملقَّب بالرَّضيِّ الموسويِّ العلويِّ
٣٥٩هـ - ٤٠٦هـ / ٩٧٠م - ١٠١٦م

وليَ نقابةَ الطَّالبيِّين ، وكانــت إليه إمارةُ الحجِّ والمظالمِ نيابةً عـــن أبيه ذي المناقب ، ثم تولَّى ذلك بعدَ مــوتِ أبيه مستقلاً ، وحجَّ البيــتَ مــرَّات وهو أميرُ الحجِّ ، وهو أوَّلُ طالبيٍّ جعــلَ عليــه السَّــواد شــعارًا يتمــيَّزُ بــه الطَّالبيُّون من غيرهم ، وكان أوحدَ علماءِ عصرِه .

وحديثي ليس عن العلاَّمةِ الشَّريفِ الرَّضيِّ المؤلِّف ذي الكتب الــثَّرَّة الجمَّة الفكر الواسعة الآفاقِ ، ولا الشَّريف الرَّضيِّ السِّياسيِّ ! ولا حديثي عـــن زعيمٍ مرَّت به أحداثٌ جسامٌ اكتوى بنارها ، وهو برعمٌ لم تتفتَّحْ أكمامُه لضــوءِ الشَّمس ، ونسمات الفجر حيث اعتقل أبــوه وقامت والدتــه فاطمــةُ الشَّــريفة بتربيته وأخاه : علم الهــدى المرتضى خير تربية ، ومزجت حنـــان الأُمومــة بحنان الأبوَّة تعويضًا عن غياب حنان الأبوَّة .

وفي هذه المحنة ، كتب الشَّريف ألوانًا من الحروف ، تصــوِّر هــذه الحياة الباكية المأساويَّة ، وأريد أن أتحدَّث عن موقـــع الشَّــريف الاجتمــاعيِّ ومكانته الاجتماعيَّة وندواته الأدبيَّة ، وكيف أنشأ مدرسةً فكريَّةً في مدينة بغــداد وخصَّص رواتب شهريَّة ، تصرف لطلاَّبها ، وتديرُها لجنةٌ ماليَّة تشرف علـــى شؤون الطُّلاَّب ، كديوان محاسبة ينسِّق الدَّاخلَ والخارج - هذه المدرسة الَّتـــي هيَ فريدةٌ من نوعِها في عصره تضاف لسجلِّه العظيم ، في مكـــارم الإنســانيَّة تضيــق بحصرها الحــروف ، ومن أراد الاطــلاع علـــى هـــذه الحيــاة الخصبة ، فعليه بكتــاب " الطالبيِّين " ، " وعبقريَّــة الشَّــريف ، للدُّكتور : زكــيٌّ مبارك ، " وديوان الشَّريف الرَّضــيِّ " ؛ وكتبُ التَّــاريخ مفعمــةٌ تضــوَّع بــهذه العطور من هذه الدَّوحة .

فنتحدَّث عن شاعريَّةِ الشَّريف الرَّضيِّ المبدعة الَّتي بزَّت الشُعراء في حجازيَّاته ، فهنا لا تستطيع الشُعراءُ التَّنفُّس في هذا الجوِّ المفعم بألوان من صُوَرَ الفنون ، ولوحاتٍ من مهارة حرف يصوِّر حياةً لا تزالُ جديدة ، كتجدُّدِ الشَّمس في الحياة ؛ فقصائدُ الحجازيَّات قلوبٌ خافقة ، وأحداقٌ ناظرةٌ يموج فيها السِّحر الحلال ، ويرفُّ عليها الزَّنبق والورد :

يا ظبية البان ترعى في خمائله
ليهنك اليوم أنَّ القلب مرعاكِ

الماء عندك مبذولٌ لشاربه
وليس يرويك إلا مدمعي الباكِي

هبَّت لنا من رياح الغور رائحةٌ
بعد الرُّقاد عرفناها بريَّاكِ

ثمَّ انثنينا إذا ما هزَّنا طربٌ
على الرِّحال تعلَّلنا بذكراكِ

سهم أصاب وراميه بذي سلم
من بالعراق لقد أبعدتِ مرماكِ

وعدٌ لعينيكِ عندي ما وفيتِ به
يا قرب ما كذبتْ عينيَّ عيناكِ

حكت لحاظك ما في الرِّيم من ملح
يوم اللّقاء فكان الفضل للحاكِي

كأنَّ طرفك يوم الجزْع يخبرنا
بما طوى عنك من أسماءِ قتلاكِ

أنت النعيم لقلبي والعذاب له
فما أمرُّك في قلبي وأحلاكِ
عندي رسائل شوق لستُ أذكرها
لولا الرَّقيب ، لقد بلَّغتها فاكِ
سقى مِنى وليالي الخيف ما شربتْ
من الغمام وحيَّاها وحيَّاكِ
إذ يلتقي كلٌّ ذي دَينٍ وماطله
منَّا ويجتمع المشكوُّ والشَّاكي
لِمَّا غدا السِّرب يعطو بين أرحلنا
ما كان فيه غريم القلب إلاَّكِ
هامت بك العين لم تتبع سواك هوًى
من علَّم البين أنَّ القلب يهواكِ ؟!
حتَّى دنا السِّرب ما أحييت من كمد
قتلى هواك ولا فاديت أسراكِ
يا حبَّذا نفحةٌ مرَّت بفيك لنا
ونطفة غمستْ فيها ثناياكِ
وحبَّذا وقفةٌ والرَّكب مغتفلٌ
على ثرًى وخدتْ فيه مطاياكِ
لو كانت اللِّمَّة السَّوداء من عددي
يوم الغميم لما أفلتِّ أشراكي

وقفةً أيُّها القارئُ العزيـز ، أمام هذه اللَّوحةِ الزَّيتيَّةِ الغزلـة الَّتـي تصوِّر حياة حبٍّ وهيام ، في صـورةٍ رائعةٍ جديدةٍ ، وتعطي مكانـةً : موقـع المرأة الجنس الرَّقيق ، فهيَ الرِّئة الَّتي يتنفَّسُ منها المجتمعُ .

افتتح الشَّاعـرُ سيمفونيَّتَهُ بنداءِ ناعمٍ كهمس النَّسائم رقَّـةً فـي أُذن الفجر ، مكنيًا عن الحبيبة بالظَّبية ، والظِّباءُ في رشاقتهنَّ يُكنَّـىَ بـهنَّ عـن المـلاح ، فالشَّاعر خلق جـوًّا عاطفيًّا ، وجعل من قلبهِ خميلةَ مرعًـى لتلـك الظَّبيةِ ، إلاَّ أنَّ هـذا المرعى ليـس كالمراعـي ! إنَّما هـو أثمنُ كـنزٍ فـي الحياة ، وهو قلبه الإنسانيُّ الَّذي تنبضُ فيهِ الخلجاتُ ، وتتنفَّسُ دنياهُ ..!

وكما إنَّ المـاء الَّذي ينبـعُ من أعماق الأرض ويتدفَّقُ مـن قممِ جبالها ، وبين روابيها ، لا يطفـئ أُوامها ؛ وإنَّما الَّذي يطفـئ الأُوام دمـوع تذوب فيها القلوب ...! هل تتذوَّقُ هذه الصُّورة المتحرِّكة ؟

ويمضي الشَّاعر ، فيصف لنا سهام العيون ، الَّتي هيَ إحـدى آلات السِّهام الحديديَّة الحربيَّة ؛ فإنَّ عين حبيبته سهـام تنفذ ، وتشقُّ الجلـود علـى مسافة آلاف الأميال ! إنَّها " بذي سلمٍ " ، وهو ببغداد في العـراق ، فيصيبـه السَّهم ولا يخطئ ، وليست الصَّواريخ العابـرة القارَّات ، ولكنَّها سهام الحـبِّ الَّتي لا يحجبها حواجزٌ ، أو صحاري .

ومضـى الشَّاعـر في رسمته الزيتيَّة ، يصوِّر حروفًا مـن كتـاب الهوى : مشاهد مواعيد المعشوقين للعاشقين :

وعدٌ لعينيكِ عندي ما وفيـتِ بـه

يـا قـرب ما كذبـتْ عينـيَّ عينـاكِ

حكت لحاظك ما في الرِّيم مـــن ملـــح

يـــوم اللّقـــاء فكان الفضـــل للحاكِـــي

كأنَّ طرفكِ يـــوم الجـــزع يخـبـرنـــا

بمـــا طـــوى عنـــك من أسمـــاء قتـــلاكِ

وقفةً معي أيُّها القارئ في هذه الصُّورة المتحرّكة الرَّائعة المنســـكبة كأطيـــاف من ضـــوء الشَّمـــس ، وتأمَّل فـــي هـــذه المعانـــي الجديـــدة المبتكرة ، والتَّصوير الرَّائع الَّذي لم يسبق إليهِ ، ما هـــذه الرَّســـائل النَّابضـــة بالقلوب ؟ أهيَ رموز وإشارات تختصرهـــا العيون للعيون ، فـــي حـــروفِ وعودِ لا توفى ، فكأنَّها أمنيات ، تصاغُ في مطالِ ، ومـــا ألـــذَّ المطـــال عنـــد العاشقين !

إنَّ هذا التَّعبير وثبةٌ من وثبات التَّجديد في الشِّـــعر العربـــيِّ ، فـــي صورتهِ روعةٌ وزخمٌ ، فانظر إلـــى التَّشبيـــه عندما رســـم هـــذه الصُّـــورة وأطَّرها ؛ فعيون حبيبته تحكي لحاظ الرِّيم في الجمال والسِّحر ، وفضلتْها فـــي جمالهـــا وسحرهـــا ، وكان الفضـــل للحاكـــي ، ولمـــاذا يكـــون الفضـــل للحاكي ..؟ لأنَّها أشبهت عيون الرِّيم ، في الجمال والسِّحر ، وبزَّتها وامتـــازتْ عليها ؛ لأنَّ العيون البشريَّـــة ليســـتْ جامدةً كجمود عيـــون الرِّيـــم ...! إنَّمـــا تتحرَّك وتسجِّل وعوداً ، وتعطي إشارات ، وتكتب رسائل الحبِّ والشَّـــوق فـــي إشارات ضوئيَّة تخطُّها الألحاظ ، وترسلهـــا إلى القلوب ، وهذا معنًـــى مبتكـــر جديد ، ويفسِّره ويكمله :

عنـدي رسائل شـوق لسـتُ أذكـرها

لـولا الرَّقيـب ، لقـد بلَّغتهـا فـاكِ

وتأمَّل معي هذه الصُّورة ؛ ففيها من الرَّوعة والفنِّ ما يقصر عنه ألوان الشِّعر .

والشَّريف الـرَّضيُّ في هذه القصيدة ، كان رسَّـامًا يطلـع علينـا برسمات جديدة :

هامت بكِ العين لم تتبع سـواكِ هـوًى

من علَّـم البيـن أنَّ القلـب يهـواكِ ؟!

ما هـذه الفتنة الرَّائعـة ؟ فالقدماء كانـوا يعدُّون العيـونَ رُسُـلاً للقلـوب ، أمَّا شاعرنـا الكبير ، فيـرى أنَّ العيون عالم منفصل عـن عـالم القلوب ، وهذه من الصُّوَر الخلاَّبة المبتكرة المتحرِّكة كضوء الشَّـمس ، علـى آفاق الحياة ، والقصيدة بيـن يديك ، إن شئتَ أن تقرأها فاقرأها تعش في جـوٍّ حبٍّ آفاقٍ ضوئيَّةٍ ، وصورَ جديدة ، كجدَّة الفجر في تألُّقهِ في كلِّ صباح .

ونختتم العصر العباسيَّ العصر الذهبيَّ ، بالشَّاعر العملاق الشَّـريف الرَّضيِّ " بولدير العرب " ، إن صحَّ هذا التَّعبير ! والمقولة الصَّحيحة الواقعيَّـة بذاتهـا أن نعكـس المعنى ، فالشَّريف هو شريف الغرب والعـرب ، قبـل أن يولد " بولدير " ؛ فبولدير ، إن كان قـد قـرأ أشعـار الشَّريـف من طريـق لغتـهِ ، أو اللُّغـة العربيَّـة ، فشعـره اقتباس من هذا الشَّاعر ، الَّـذي جـدَّد الشِّعر ، وسيبقى شعره جديدًا ، إلى أن يشاء الله محو هذا الكوكب .

إنتكاسة الفكر

مرَّت على الفكرِ انتكاسةٌ ، تحولَ فيها نتاجُهُ من نثرٍ وشعرٍ ، إلى كلماتٍ تقليديَّة جوفاء ، لا تَحْمِلُ حروفُها جوهرَ الفكر ، إنَّما تُعيدُ أصداءَ ألفاظٍ تقليديَّة ، لا تمثِّل واقعَ حياة قائليها ، ولا تعكسُ حياةَ العصرِ الَّذي يحيونهُ وصوَرَهُ ، وفي رأيي : الشِّعرُ ما صوَّر حياةَ عصرِ الشَّاعرِ ، ومعاناته ، وتجاربَه النَّفسيَّة ، وعكس عصر ذلك الشَّاعرِ ، كمرآةٍ تنطبعُ على صفحاتِها صورَ ذلك العصرِ .

فالشِّعرُ الجاهليُّ كان مرآةً لعصره ، كما إنَّ عصرَ النُّورِ - عصرَ الإسلامِ - قد عكَسَ جوانبَ من نواحِي عصرِهِ ، وحتَّى العصرِ الأمويُّ ، والعصرِ العباسيُّ ، وإن كانت شريحةٌ مِنْ بعضِ شعراءِ تلك العصورِ ، درجُوا على أُسلوبٍ تقليديٍّ كالبكاءِ على الأطلال ، والتَّغزُّلِ بمراتعِ الظِّباء ، وتشبيه الأرداف بالكثبان ، والشَّاعرُ يعيش في قصرٍ ، في مدينةٍ من المدنِ الحضاريَّة ، لا صلة له بالكثيب ، أو بالمراعي .

وبكلمةٍ مختصرةٍ لم يفلتْ شعراءُ العصرِ الإسلاميِّ ، والعصرِ الأمويِّ ، والعصرِ العباسيِّ ، مِنْ بعضِ قيودِ الشِّعرِ الجاهليِّ ، الَّذي شدَّهم ، عُلقةً تراثيةً ، والتُّراثُ يجري في الدَّمِ ، فالتَّخلُّصُ منهُ ، والانفلات من ربقتهِ عسيرٌ جدًّا .

وأنا لا أدعو إلى نبذ التُّراث ؛ فمن لا ماضيَ لهُ لا حاضر له ، ولكنَّ المفكِّر يعيشُ بعقليَّةٍ حضاريَّة تواكبُ تطوُّر عصرهِ ، وما يمرُّ بهِ مِنْ فنونٍ وإبداعٍ ، وصورٍ جديدةٍ يولِّدُها ذلك العصر ، فعليهِ الاقتباسُ منها ، والتَّجديدُ ، ولا يحنُّ إلى حياةِ عصرٍ لم يشاهدها ولم يعايشها ، إنَّما قرأها في قصائد شعراء عايشوا ذلك العصر ، ودرجوا على صعيدهِ ، والَّذي هو أدهى وأمرُّ : الانتكاسة الفكريَّة الَّتي كانت أشدَّ تضبيبًا على الفكر ، فعاش

الفكرُ الأدبيُّ على مائدة التَّقليد ، يلوكُ ألفاظَها دون معانيها ، في ليلٍ من هذه الفترة ، مولعًا بالجناس ، والبديع ، والطِّباقِ ، والازدواجيَّةِ ، والسَّجع ، لا يصل للمعاني الضوئيَّة ، إنَّما يردِّد ألفاظًا تقليديَّة ، وكادت اللُّغةُ العربيَّة تلفظُ أنفاسها الأخيرة ، أو هيَ في سياقِ الاحتضار ، أو تتدلَّى رجلها إلى شفير القبر .

وهذه الفترة كما حدَّدها المؤرِّخون ، بدأت من عام ٦٥٦هـ - ١٢٢٠هـ ، وذلك في عصر المماليك ، لأنَّ المماليكَ قضوا على الدَّولةِ العبَّاسيَّة ، واستعملوا لغتَهم في التَّخاطب ، وفي الرَّسميَّات ، وجاء دور التَّتار ، والدَّولةُ العثمانيَّة التُّركيَّة ، فالدَّولةُ التُّركيَّة تستعملُ لغتها في الأساليب الرَّسميَّة ، وفي المعاهداتِ ، وفي الدَّواوين ، وحتَّى موظفوها نشروا اللُّغةَ التُّركيَّة بين الجمهور ، وبين طبقاتِ العوام في البلاد العربيَّة الَّتي حكموها ، وحتَّى بلغَ بهم الهَوَسُ - كما يقال - فنمت عندهم فكرة تتريك العرب ، وسلْخِهم من لغتِهم العربيَّة حتَّى يتتركَّوا ؛ لهذه العوامل السِّياسيَّةِ ، والبيئيَّةِ ، والقوميَّةِ ، والزَّمنيَّة ...! تلك أسلحة سدِّدت إلى قلب اللُّغة العربيَّة ، فأنزلتها من ذروتها الشَّمَّاء ، إلى سفح انحطاط .

وفي عقيدتي ورأيي ، لولا القرآن الكريم ، والحديث النَّبويُّ الشَّريف ، ونهج البلاغة ، وما تبقَّى لنا من كلمةٍ زرعها التَّاريخ ، وحفرها في محراب الزَّمن ، لقُبرت اللُّغة العربيَّة ، وأصبحت في خبر " كان " !

وبرغم هذه الفترة المضبَّبة بالظَّلام ، على أُفقِ الفكرِ العربيِّ ولغته ، ذرَّت في سمائِها نجومٌ متلألئَةٌ بألوانِ صورٍ متباعدةِ الآفاق كصفيِّ الدِّين الحلِّيِّ ، وابنِ نباتة ، وشهاب الدِّين ابن معتوق ، والشَّيخ جعفر الخطِّيِّ ، ولهم أمثالٌ ، طلعوا طلوع البدر ، في سماءِ ليلٍ داجن في تلك الفترة ، ولكنَّهم يعدُّون على ندرةٍ وقلَّةٍ للعوامل الَّتي أشرنا لها !

ومن ضمن القبسات الضوئيَّةِ الَّتي سطعَتْ في تلك الفترة ، الشَّيخ جعفر الخطِّيُّ ، فكان له طابعٌ ينفرد به ، ويميِّزهُ عن شعراءِ فترتهِ ، بما اختطَّه من منهجيَّةٍ شاعريَّة ، تخصَّص بها في أُسلوبٍ فريد ؛ حيث وصف ما يشاهده من مناظر طبيعيَّة في القطيف ، أو أوال ، ميَّزتهُ في أساليبِ شعريَّة ، اختص بها ، وميَّزته عن هذه الفترة ، وكأنَّه ليس من شعرائها ، حيث صوَّر عصرَه كما نجلوهُ عند الحديث عنه ، وإنْ كانت هذه الفترة ، لو وضعناها في مقاييس للموازنة الفكريَّة ، بالعصور الَّتي سبقتها ، أو بالنَّهضة الجديدة الَّتي جاءت بعدها فجرًا في سماء ليلٍ ، لتنحر ظلمته ، وتشرقُ شمسًا ، تشع من سماء الكنانة ، والشَّام ، وبغداد ، والجزيرة العربيَّة ، لما استطعنا أن نقيس تلك الفترة ، بما قبلها من العصور ، أو بالإشراقة الجديدة ، الَّتي سطعت في سماء القرن العشرين ، وكنَّا مقسطين ، ومسرفين كلَّ الإسراف ، في هذه الموازنة ، لأنَّ المقاييس ، والعوامل الزَّمنيَّة ، والتَّاريخيَّة ، تختلف من حيث الظُّروف ، والحياة السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، كلَّ الاختلاف بين العصر والعصر ، وبين الحياة والحياة ، فلا تصحُّ الموازنة إلا إذا اتَّحدت مفاهيم الصوَّر ، والعوامل التَّاريخيَّة والزَّمنيَّة ، لذلك لا يصحُّ لنا أن نقيسَ هذه الفترة الانحطاطيَّة ، بالعصور التَّقدميَّة فيما قبلها ، أو فيما بعدها من فكر القرن العشرين ، الَّذي كان انطلاقة ضوئيَّة ... وهل يوازنُ الظلامُ بالضَّوء ؟!

وبرغم ما تراكم من ضباب ركامٍ في هذه الفترة الانحطاطية ، الَّتي انتكس فيها الفكرُ العربيُّ ، وحاول أعداءُ اللُّغة العربيَّة ، القضاء عليها ... برغم هذا وذاك ، لم يستطيعوا القضاء على الفكر العربيِّ ، لأنَّ الفكر لا يموت ، برغم هذه الأسلحة الفتَّاكة الَّتي تحاربهُ وتسدِّدُ لهُ الضَّرباتِ ، في جوهرِ قلبهِ ، فقد لمع في ظلامها ، وشقَّ ضبابها أنجم سنشير

لبعضها ، ونختار بعضًا من نجومهـــا اللاَّمعـــة ، علـــى صفحـــاتِ تاريـــــخِ تلك الفتـــرة ، وكان لها دور ، وخلود ، لعبتهُ في التَّاريخ .

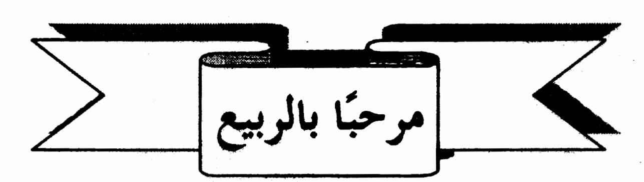
ومن تلك الشَّريحة صفيُّ الدِّين الحلِّـــيُّ ، وشهـــــاب الدِّيـــــن ابـــن معتوق ، وابن نباتـــة ، والشَّيخ جعفر الخطِّيُّ ... فنوردُ لكـــلٍّ منـــهم بعـــض النَّمـــاذج من أشعارهم ، ومختصـــرًا عن حياتهم ، ما سمحت به هذه المســـاحة من هذا الورق .

صفيُّ الدِّين الحلِّيُّ

٦٧٧هـ - ٧٥٠هـ / ١٢٧٨م - ١٣٤٩م

هو : عبدالعزيز بن عليٍّ الشهير بابن سرايا الطائيِّ ، شاعر الجزيرة ، ولد سنة ٦٧٧هـ ، ونشأ بمدينة الحلَّة من مدن الفرات ، فتأدَّب ونظم الشِّعر ، وأجاده ، وأصبح فيه أشعر شعراءِ عصرهِ ، كما قصر نموذجًا من شعره ، في خدمة ، ومدح الملك المنصور نجم الدِّين غازي بن قرَّة أرسلان ، أحد ملوك الدَّولة الأرتقيَّة { ديار بكر } ، واتصل بابنهِ الملك الصَّالح شمس الدِّين ، ثمَّ ذهب إلى الحجِّ ، وعرَّج منصرفًا منه على مصر ، فمدح الملك النَّاصر : ابن قلاوون ، وتُوُفِّيَ سنة ٧٥٠هـ .

ويعتبر صفيُّ الدِّين من أئمة البديع ، المتفننين في أنواعهِ المُغالين في استعماله في شعرهم ، بتكلُّفٍ لا يطاق ! وصفيُّ الدِّين برغم الولع الَّذي عايش فيه زملاءه من الشُّعراء ، والتَّسابق على هذه الألفاظ الطِّباقيَّة والبديعيَّة ، ترك ثروةً فكريَّةً ، كوصفه للرَّبيع ، وأنماط من الأدب المكشوف ؛ ولهذه الأصالة ، لم يضع في ضباب الزَّمن التَّيَّاه ، الَّذي لا يرحمُ ، ولا ينجو من عسفِ أمواجهِ إلاَّ أولئك " ذوو الحظوظِ " وظلَّ نجمًا يتألَّق في التَّاريخ ، وفي سماء الشِّعر .



وَرَدَ الرَّبيعُ ، فمرحَبًا بورُودِهِ
وبنُورِ بَهجَتِهِ ، ونَوْرِ وُرُودِهِ
وبِحُسنِ مَنظَرِهِ وطيبِ نَسيمِهِ
وأنيقِ مَلبَسِهِ وَوَشْيِ بُرُودِهِ

فَصلٌ ، إذا افتَخَــرَ الزَّمــانُ فإنَّــهُ
إنســانُ مُقلَتِــهِ ، وبَيــتُ قَصيــدِهِ

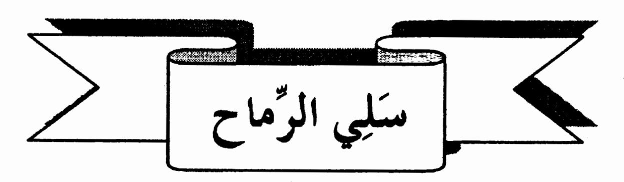
يُغني المِزاجَ عــن العِــلاجِ نَسيمُــهُ
باللُّطــفِ عنــدَ هُبُوبِــهِ ورُكُــودِهِ

يــا حَبَّــذا أزهــارُهُ وثِمــارُهُ
ونَباتُ ناجِمِــهِ ، وحَــبُّ حَصيــدِهِ

وتَجاوُبُ الأطيــار فــي أشجــارِهِ
كبَناتِ مَعبَــدَ فــي مَواجِــبِ عُــودِهِ

والغصنُ قَدْ كُسِــيَ الغَلائــلَ بعدمَــا
أخــذَتْ يــدا كانــونَ فِــي تَجريــدِهِ

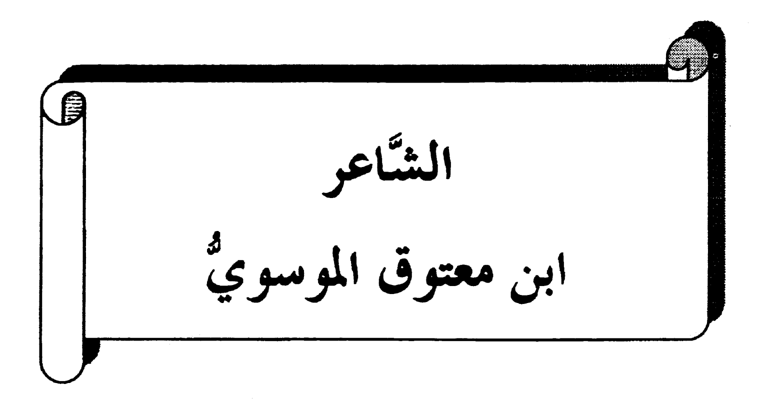
هذهِ قطعةٌ تصفُ فصل الرَّبيع ، الَّذي هو شبابُ الزَّمــن ، وروحــهُ المتحرِّكة في أغصانــهِ ، وفي أطيارهِ ، وفي أجسادِ الإنسان الَّذي يعيــشُ فــي ذلك الفصل ، الَّذي يجد لك الحياة بأثرها ... والشَّاعر : صفيُّ الدِّين فــي هــذه القطعــة يخــرجُ علــى مدرســة التَّقليــد ، الَّتــي قَصَــرَتْ كلِّيَّاتــها علــى المدح ، والرِّثاء ، والهجاء والغزل .



سَلِي الرِّمَاحَ العَوَالــي عَــنْ مَعَالينَــا
وَاستَشْهِدِي البِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجا فينَــا

وَسَائِلي العُرْبَ وَالأَتــرَاكَ مـا فَعَلَــتْ
فــي أرْضِ قَبْــر عُبَيْــدِاللّـــهِ أيْدينـــا
لـمَّا سَعَيْنـا ، فمـــا رَقَّــتْ عَزَائِمُنـــا
عَمَّا نَـــرُومُ ، وَلاَ خَابَـــتْ مَسَاعِينـــا
يَا يَوْمَ وَقْعَــةِ زَوْرَاءِ العِـــرَاق ، وَقَـــد
دِنَّـا الأَعَــادِي كمَـا كَانُــوا يدَينُونـــا
بضُمَّــــرٍ مـــا رَبَطْنَاهَـــا مُسَوَّمَـــةً
إلاَّ لِنَغْــزُو بهـــا مَـــنْ بَـــاتَ يَغْزُونـــا

وهذه القصيدة للشَّاعر : صفيِّ الدِّين .. إنَّها نشيدٌ حماســـيٌّ ، ينفــخُ الحماســة ، ويؤجِّجُ اللَّهب الجاحــم في النُّفوس ، ويثـــيرُ الحميَّــة ، والنَّخــوة العربيَّة الَّتـــي تغنَّـــى بها الشُّعــراءُ الوطنيُّون ..! وقــد صبغهــــا بألــــوان الفخر ، والاعتزاز ، واقتبس من هذه القصيدة : الشَّاعر الأخطل الصَّغير فـــي قصيدتهِ النُّونيَّة الَّتي قالها في فلسطين ، بعد تسليمها من قبل الإنجلـــيز ، عـــام ١٩٤٨م لليهود .


الشّاعر
ابن معتوق الموسويُّ

هو شهاب الدِّين ابن معتوق الموسويُّ ، شاعر العراق في عصره ، وسابق حلبته في رقَّة شعره ، ولد سنة ١٠٢٥هـ ، ونشأ بالبصرة ، وبها تعلَّم ، وتأدَّب ، وقال الشِّعر ، وأجاده ، وكان في نشأته فقيرًا ، فاتَّصل بالسَّيِّد : علي خان ، أحد أمراء البصرة من قبل الدَّولة الصَّفويَّه الإيرانيَّة - وكانت وقتئذٍ تملك العراق والبحرين - ومدحه مدحًا رقيقًا ، وأكثر شعره مقصورٌ عليه ، وعلى آل بيتهِ ، فغمره بإحسانه .

وابن معتوق شاعرٌ من شعراء العقيدة ، مدحَ آل البيت ، في ديوانه المطبوع ، عام ١٨٨٥م ، بالمطبعة الأدبيَّة ببيروت ، المشتمل على ٢٣٩ صفحة من القطع المتوسِّط ، ومات سنة ١١١١هـ .

ويمتاز شعره بالرِّقَّة ، وكثرة المجازات ، وللطَّابع الأصيل الفكريِّ الَّذي نما في أفقِ نفسهِ ، أفلتَ من جدار فترته ، ولمعَ كوكبًا ، يسطع في سماءِ دنيا الأدب ..!

ومن رثائه قصيدته الَّتي يصف بها روعة المصاب ، وصبغة الحزن بالدَّم الَّتي أراقتهُ أميَّةُ ، في اليوم العاشر من الشَّهر الحرام ، فنبت هذا الدَّم نجومًا تضيء الطَّريق للأحرار ، وتصبغ النُّفوسُ بالمصاب الدَّامي لمصرعِ الإمام الحسين (ع) ، ويستهلُّها بصورةٍ حمراء ، تحمل الشَّجا والحزن ، لذلك الهلال ، وتعبيرًا لما جرى على سبط الرَّسول - صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ - من مصابٍ دامٍ بشعٍ ، أرعفَ قلب الدَّهر حتَّى يومنا هذا ، وحتَّى يرثَ الله الأرض ..!

وقد وصف هلال محرَّم ، بصورةٍ صيغت من حزنٍ ، وألم ، نوردُ منها مقطعًا .

هلَّ المُحرَّمُ فاستهِلَّ مُكبِّرا

وانثر بهِ دُرَرَ الدُّموعِ على الثَّرى

وانظر بغرَّتهِ الهلالَ إذَا انجلى

مسترجعًا متفجِّعًا متفكّرَا

واقطف ثمار الحزنِ مِنْ عرجونهِ

وانحر بخنجرهِ بمقلتِكَ الكرَى

وانس العقيقَ وإنس جيرانَ جيرانَ النَّقَا

واذكر لنا خبرَ الطُّفوفِ وما جرَى

واخلع شعارَ الصَّبرِ مِنْكَ وزرَّ مِنْ

خلعِ السَّقامِ عليك ثوبًا أصفرَا

فثيابُ ذي الأشجانِ أليقُهاَ بهِ

ماَ كانَ مِنْ حمرِ الثِّيابِ مُزرَّرَا

شهرٌ بحكمِ الدَّهرِ فِيهِ تحكَّمت

شرُّ الكلابِ السُّودَ فِي أسدِ الشَّرَى

للّهِ ، أيُّ مصيبةٍ نزلت بهِ

بكت السَّماءُ لها نجيعًا أحمرَا

خطبٌ وهى الإسلامُ عِنْدَ وقوعِهِ

لبست عليهِ حدادها أمُّ القرَى

أوماَ ترىَ الحرمَ الشَّريفَ تكادُ مِنْ

زفراتهِ الجمراتُ أن تتسعَّرَا

وأباَ قبيسٍ فِي حشاهُ تصاعدت

قبسات وجدٍ حرُّها يُصلي حِرَا

علم الحطيمُ بهِ فحطمهُ الأسَى

ودرَى الصَّفا بمصابهِ فتكدَّرَا

واستشعرت منهُ المشاعرُ بالبلاَ

وعفَا محسَّرُهاَ جوًى وتحسَّرَا

قُتل الحسينُ فيالهَا مِنْ نكبةٍ

أضحى لها الإسلامُ منهدمَ الذُّرَا

قتلٌ يدلُّك إنَّمَا سرُّ الفدا

فِي ذلك الذِّبحِ العظيم تأخَّرَا

رؤياَ خليلِ اللَّهِ فِيهِ تعبَّرت

حقًّا وتأويلِ الكتابِ تفسَّرَا

رُزءٌ تداركَ مِنْهُ نفسَ محمَّدٍ

كدرًا وأبكى قبرهُ والمنبرَا

أهدى السُّرور لقلبِ هندٍ وابنِهَا

وأساءَ فاطمةً وأشجى حيدرَا

ويلٌ لقاتلهِ أيدري أنَّهُ

عادىَ النَّبِيَّ وصنوهُ أم مَا درىَ ؟

شُلَّتْ يداهُ لقد تقمَّصَ خزيةً

يأتي بهَا يومَ الحسابِ مؤزَّرَا

❀ ❀ ❀

هذه القصيدة الَّتي تصفُ المصاب الدَّاميَ ، والَّتي كانت تعبيرًا ، وتجسيدًا ، لما يتحلَّى بهِ هذا الشَّاعرُ مِنْ عقيدةٍ صلبة ، تجاه نبيٍّ

الرَّحمةِ وآلهِ – صلــى الله عليهِ وآلهِ – ولعلَّه اقتبس بعــض صوَرهــا ، مــن الشَّاعر أبي العلاء المعرِّيِّ .

وعلى الأفقِ مِــنْ دمــاءِ الشَّهيديــنِ

علـــــيٌّ ونـجلـــــهِ شاهـــــدانِ

فهماَ فِي أواخـــر اللَّيــــلِ فجـــران

وفِـــــي أوليـاتـــــهِ شـفـقـــــانِ

أو مما نقله التَّاريــخ ؛ حيثُ جاء في الصَّواعق المحرقـــة ، لابــن حجر العسقلانــيِّ ، ما رفــع حجــرٌ ، أو مدرٌ في يومِ العاشر ، بعــد مقتــلِ الإمام الحسين ، إلاَّ وجد تحتهُ دمٌ عبيطٌ ، ومعنى العبيط لغةً الطَّريُّ .

الشَّاعر

ابن نباتة المصريُّ

٦٨٦هـ - ٧٦٧هـ / ١٢٨٧م - ١٣٦٦م

هو جمـــال الدِّين محمَّد بن محمَّد ، المعروف بابنِ نباتـــــة ، أشـــعرُ شعراءِ المصريِّين زمن المماليك ، ولـــد سنة ٦٨٦هــ ونشأ بالقاهرة ، وتلقـــى العلم ، والأدب ، وأكبَّ على قراءةِ شعر القاضي الفاضل ، ورسائلهِ فرســـخت فيــه طريقتهُ من الولوعِ بالتَّورية ، والتَّلميح ، والطِّباق ، ولم يأت بعـــده مـــن شعـــراء مصـــر ، والشَّـــام مَنْ بلـــغَ غايتـــهُ فيْ لطف التَّصويـــــر ، ورقَّـــة اللَّفظ ، وانسجام العبارة ، مات سنة ٧٦٧هــ ، ومن شعرهِ قولهُ :

يا مشتكي الهمِّ دعْـه وانتظـرْ فَرَجًـــا

ودار وَقْـتـك مـن حيـــنٍ إلـــى حيـــنِ

ولا تُعانِدْ إذا أصبحـــت فـــي كَـــدَرٍ

فإنَّما أنـــت مـــن مـــاءٍ ومـــن طيـــنِ

الشَّاعر : ابن نباتة ، أفلت مِنْ قيودِ الفترة الانتكاسيَّة للفكر ، وتـــألَّق نجمًا في سماء الأدب ، غير أنَّني لم أعثر على ديوانٍ لهُ يحملُ ثمـــرة خصـــبِ حياتهِ ، ولم أجد عنهُ إلاَّ لمامًا ، في كتاب جواهر الأدب للسَّيِّد / أحمد الهاشـــميِّ المصريِّ ، واعتقادي أن رجال الفكرِ في الكنانةِ ، لا يتركون أثرًا مِـــنْ آثـــارِ مفكِّريهم إلاَّ عنوا بهِ ، وأخرجوه للحياة الفكريَّة ، يطير في أجوائها ، ويتنفَّـــسُ الأكسجين ، وعدم رؤيتي لا تدلُّ على عدم الوجود لديوانـــهِ ، لـــهذه العوامـــل اكتفيتُ بهذهِ اللَّمحةِ القصيرة .

الشَّاعر الشَّيخ : جعفر الخطِّيُّ

((نشر بمجلة الواحة بالعدد التاسع عشر

الربع الأخير ٢٠٠٠م – ص٩٠))

هو أبو البحر شرف الدِّين ، جعفر بن محمَّد بن حسن بن عليٍّ بن ناصر بن عبد الإمام الخطِّيُّ البحرانيُّ العبديُّ ، نسبة إلى بني عبد القيس ، وقد لقِّب : « أبا البحر » وكان بين الاسم وهذا اللَّقب التقاء ، وانسجام في المعنى ؛ حيث إنَّ الجعفر هو : النهر أو البحر ..!

هو أحد شعراء القطيف من الشُّعراء الَّذين لمعوا في فترة انتكاسة الفكر ، وكان هذا الشَّاعرُ عبقريَّةً فذَّةً طلعت طلوع الكواكب في سماء ليل تلك الفترة ، وتميَّز بطابعٍ شعريٍّ عن قرنائهِ الَّذين أُولعوا بالحياة الشِّعريَّة التَّقليديَّة ... ولم يعطنا التَّاريخ بسطة بإسهاب عن معالم حياة هذا الشَّاعر ، وإن حفلت بقسم من أخبار حياتهِ بعض الكتب التَّاريخيَّة والأدبيَّة ، كسلافة العصر وكشكول البهائيِّ ، ومنن الرَّحمن ، وكتب أخرى !

وليس الخطِّيُّ شاعرًا فحسب ! بل كان لهُ دورٌ كبيرٌ في ألوانٍ من العلم ، كالفقهِ والأُصولِ ، والفلسفةِ ، والحكميَّات .. وبسطة من علم النُّجوم ؛ غير أنَّ حديثي عن الخطِّيِّ الشَّاعر ، لا الخطِّيِّ العالم .

وإنَّ هذه الشَّخصيَّة الَّتي تمرَّدت في شعرِها على عصرها لَمْ تعطَ ما تستحقُّهُ من احتفاءٍ ، وإن وُجدتْ بعضُ التَّدوينات الَّتي لم تستوعب حياة هذا الشَّاعر الَّذي كان فلتة من فلتات العبقريَّة ، في تلك الفترة الخالية من جوهر الفكر ؛ حيث لم يترسَّم شعره خُطى الشعر التَّقليديِّ ، ومعالم حروفها الَّتي هيَ تقليدٌ محضٌ لألفاظٍ جوفاء ، لا هدف ولا جوهر ! فيها ، بل كتب شعره من مرآةِ نفسهِ ، ومِنْ ألوانِ عصره .. وبرغم هذا التَّحرُّر من قيود تلك الفترة إلاَّ أنَّه قد

علِقت به رواسبُ من صور التُّراث والتَّقليد استعملها في شعرهِ كلفظة المطــيّ[1] يستعملها في أداة المواصلات ، ولعلَّه لم يركب مطيَّةً ! ووادي العقيــق ، ووادي الغضى ، وغير ذلك من بعض التَّركيبات والكلمات . والكثيب أي : الكتلة مــن الرَّمل ، ولعلَّه لم يرِ واديَ الغضى ، أو واديَ العقيق ولكنَّه تأثُّر وصبغــة مــن التُّراث ، لم يستطع التَّفلت من بعض هذه القيود برغم ما تحرَّر من قيــود تلــك الفترة ، ودرج على منهجيَّة غير الشُّعراء من زملائه المعـــاصرين ، فكـــان شعــرهُ صــوَرًا لطبيعـــة القطيف ، وألوانًا تصوِّر حياة القطيف ، وتنعكس في بعــض القصائد فتراه يستعمل (منز – ودرز) وهي لهجــة قطيفيَّة ، ندلِّل على ذلك من قصيــــدة له يرثي بها طفلاً ، ويعزِّي والده فيه : –

لعمــرُ أبــي لقـــد رمـــت اللَّيالـــي
بحـــزٍّ فـــي الحلـــوق وأيُّ حـــزِّ

لبــدرِ غـــاب قبـــل تـمـــامِ نـــورِ
وغصـــنٍ جـــفَّ قبـــل تـمـــامِ درز

وطفلٍ مـــاتَ لَـــمْ يركـــب جـــوادًا
ســوَى حضـــنِ الوليـــدةِ والـمنـــزِّ

المنـــزُّ يطلـــق علـــى مهد الطِّفل ، والدَّرز يعبر به عن الشَّــجر إذا أورقَ ، فهو يكتب ما يعايشه من طبيعة حاضرٍ يمرُّ على أرضيَّته ، فهو يســجِّلُ حياةً يعيشُها ، ويتفاعل مع أحداثها ، ومناظرها الطبيعيَّة ؛ لأنَّ القطيفَ واحـــةٌ خضـــراءُ ذاتُ نخيلٍ باسقة ، وأشجـــار مورقـــة وعيون ثـــرَّة تُطـــلُّ علـــى

[1] إن كان الشاعرُ يقصدُ بالمطيِّ كلَّ ما يمتطيهِ الشَّخصُ ويحملهُ فالتَّعبيرُ ينسجمُ وعصره . وإن قصد بــهِ الإبــل فهو لم يركبها ، فتكونُ تقليدًا محضًا .

ضِفافِ الخليج ، من جهتها الشَّرقيَّة . وفي الجهةِ الغربيَّة تتوسَّد أذرعة الرِّمال الذَّهبيَّة .

أمَّا نشأة هذا الشَّاعر ومتى ولد ؟ فقد وجدتُ تاريخًا لميلادهِ مدونًا في كتاب (**معالم الأدب العربيِّ في العصر الحديث ، تأليف / عمر فرُّوخ**) صفحة ٣٣١ – المجلَّد الثَّاني ، يروي تاريخ ميلاد الخطِّيِّ على نحو التَّقريب ، لا الواقعيَّ ؛ حيث سجَّل أنَّ ميلاده (**نحو سنة ٩٨٠ للهجرة ١٥٧٢م**) ولم يسند تاريخ الميلاد إلى رواية أو وثيقة تاريخيَّة .

وأمَّا كيف نمت حياته الأدبيَّة والعلميَّة فليس عندنا إلا بعض الرِّوايات تُردَّدُ على ألسنة المجتمع القطيفيِّ ، منذ القدم تتلاقفُها جيلاً بعد جيل ، إذا لم تُنقص منها أو تزد عليها ! فيقال إنَّه من قرية التَّوبيِّ ، ولد بها ولكنَّهم لا يعرفون يوم الميلاد ، ولا العام ، وتقول الرِّواية الشَّعبيَّة : إنَّهُ ينتمي إلى قبيلة آل الشَّيخ الَّتي لا تزالُ موجودةً في التَّوبيِّ .

ويؤيِّدُ هذا الانتساب ما رواه لي أخي العلاَّمة / الشَّيخ عبد الحميد الشيخ عليٌّ الخنيزيُّ الخطِّيَّ : أنَّه سمع من « عليٍّ الشَّيخ » من أهالي التَّوبيَّ : أنَّه من ذريَّة الشَّيخ جعفر الخطِّيِّ ، وكان لديهم ديوانهُ مخطوطًا فأُصيبوا بحريقٍ ، فاحترق الدِّيوان ، فصار رمادًا ؛ لأنَّ بيوتَهُم من سعفِ النَّخلِ ، كما كتب العلاَّمة الشَّيخ / عبد الحميد الخنيزيُّ الخطِّيُّ قصيدةً عصماء ، في الشَّيخ جعفر الخطِّيِّ سنوردُ منها نموذجًا : –

يا هزارًا أقصتهُ كفُّ الزَّمانِ
عن مغانيهِ في الصِّبَا الرَّيَّانِ
لَمْ يكد يلمحُ الصَّباحَ عَلَى الأُفْـ
ـقِ فغشَّى عينيهِ ليلُ دخانِ

أوحش الرَّوضُ يـوم أقصيـتَ عنـهُ

وتعــرَّى مِــنْ نضــرةٍ وافتتــانِ

وتـهـزُّ الـصَّبـَـا الغصونَ ولاَ تســ

ــحبُ فيــهِ عواطــرَ الأردانِ

والسَّواقِي قد ألْجَمَ الذُّعــرُ فاهـَـا

والقمــاري ذبيحــةُ الألحــانِ

مصرعٌ حوَّلَ الجنــانَ جحيمًــا

يتلظَّــى مفجَّــرَ البركــانِ

أصحيــحٌ ياجعفــرٌ ياهزارَ الــ

ــشِّعرِ يَابكــر ربَّــةِ الإلهــامِ

قــد نحرتَ الشَّبــابَ فِي مذبــحِ

اليــأسِ وودَّعتَــهُ بحرقــةِ ظــامِ

أفضنَّتْ عليك ياجعفــرُ الخَــطُ

وجــادت بصفوِهــَا للِّئــامِ

أتعاطيــك يَــاهــزارَ الرَّوابِــي

علقمًــا والغــرابُ أشهــىَ مُــدامِ

قم تلفَّــت ياشاعــري فالمغانِــي

آهــلاتٌ لمــَّا تــزل بالطَّغــامِ

اللَّيالــِي - لاَ تبتئــسْ - مولعاتٌ

بخســوفِ البــدور ليــل التَّمــامِ

وفي ضوءِ هذه الرِّواية التَّاريخيَّة ، يكونُ مسقط رأسهِ التَّوبيَّ الَّتي هيَ قرية من قرى القطيف ، ذاتِ رياضٍ وعرائسِ نخيل وعيونٍ ثرَّةٍ وفيرة ، تميس فيها عرائسُ أشجار اللَّيمون والأترجِّ والتِّينِ ، وأشجارُ فواكه متنوِّعة ، والعيون الثرَّة النَّابعة من جوف الأرض ، وهيَ كُثرٌ في هذه القرية ، قبل أن يمشيَ عليها اليبابُ ويحرق ربيعها ..!

وعاش الخطِّيُّ بائسًا لم تحنُ عليه ظلال نخيل القطيف الباسقة ، وأشجارُها الوريقة حتَّى وصل إلى مستوى عيشة فقرٍ مدقعٍ ، يعجز حتَّى عن شراء عمَّةٍ له ، كما صوَّرها في قصيدته التَّائيَّة الَّتي سنوردُها بعد هذه الدراسة .

ولم تكتفِ أشباح الفقر بما ضبَّبته حوله ، من سيوفٍ تنهش في جسمه ، وأشواكٍ تنتثرُ في دربهِ ، فتدميهِ حتَّى طاردته في وطنهِ ، فتشرَّد ولجأ إلى أوال ، وسجَّل مطاردته ، في شبحٍ مخيفٍ ، من قصيدةٍ كتبها معتذرًا للشَّيخ عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم بن عبد المحسن ، سنة ١٠١٩هـ ، وأرسلها إلى ممدوحهِ بالقطيف ؛ نورد منها ما يدلُّ على رؤيتنا : -

ولولاَ وجوهٌ فِي القطيفِ أخافُهَا

لمَا طالَ بالبحرينِ عنكَ ثوائي

إنَّ في هذا البيتِ لتصويرًا دقيقًا ؛ فأنَّك ترى أشباح الخوف المرعبة تتمدَّد في كلماتهِ ! ولا نعرف العوامل والأحداث الزَّمنيَّة الَّتي أخافته وشرَّدته إلى أُوال ، وإن كانت هناك بعض الحكايات ، لم تسند لوثائق تاريخيَّة ؛ ولعلَّها واقعيَّة ... إنَّ الخطِّيَّ كان متعلِّقًا بأُمراء بني مقلَّد ! ويحكى : قد جرى على هذا الأمير أحداثٌ دبَّرها له خصومهُ فأوقعوا بهِ ، وهذه إحدى العوامل التَّاريخيَّة السِّياسيَّة – إن صحَّت – الَّتي دعت الخطِّيَّ للتَّشرُّد .

ولا نستطيع أن نقدِّر المدَّة الزَّمنيَّة الَّتي قضاها في أُوال ، غير أنَّ هناك بعض التَّواريخ – لقصائدِهِ قد تحدِّد الفترات ! فقصيدته التَّائيَّة الَّتي كتبها ، مهنِّئًا أحد أشراف القطيف ، بعيد الفطر سنة ١٠١٧هـ ، تدل على أنه لا يزال مقيمًا في القطيف لم يبدأ تشرده إلى أوال ومتى بدأ هل هو في هذا العام ، أو العام الثَّامن عشر بعد الألف الهجريِّ ، وإنَّنا لا نستطيع أن نحدِّد الزَّمن الَّذي بدأ تاريخهُ لتشرُّد الخطِّيِّ ، وسكناهُ في أُوال : هل هو بدأ قبيل العام التَّاسع عشر بعد الألف ، أو في العامِ نفسهِ – كما دلَّت عليه قصيدتهُ الَّتي مدح فيها الشَّيخ : عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم بن عبد المحسن ؟ وقد ترك لنا صوَرًا من شعره تصوِّر قرى أُوال كالقميعيَّات ، وبوري ...

والخطِّيُّ – كما أعطينا عنه تعريفًا : أنَّه من طراز لم يتأثَّر كلَّ التَّأثُّر بأُسلوب الفترة الانتكاسيَّة الفكريَّة ، وهو يكتب ما يشاهده من حياةٍ تنطبع في مخيِّلتهِ ، وتنعكس عليها في مرآة صافية ، من البيئة الَّتي يعيش على أرضيَّتها ؛ فندلِّل على ذلك بمقاطع ، من قصيدته الَّتي يصف بها قرية " بوري " : –

عج بالمطيِّ على معالمِ بوري
بمحلِّ لذَّاتي وربعِ سروري

وأطلْ بها عنِّي الوقوفَ ، فما أرى
شوقًا يحرِّكني لها بقصيرِ

واستنشِ ريَّاها ففي عرصاتها
عند العبور بهنَّ نشر عبيرِ

واستوصِ نشر عبيرها بي إنَّهُ
قمنٌ بنشرِ عبيري المقبور

لـم تـجعل العبــراتُ خـــدِّي معبــرًا

إلاَّ عَلَـــى مـــرِّي بهـَــا وعبـــوري

لا أمطـرتْ ديـــمُ الرَّبيـــعِ بساحتـِــي

إن لـــم أحـــلَّ بربعِهـــا الـمـمطـــور

هل لي إلـى تـــلك الـمنـــازلِ عـــودةٌ

يهدا بهـَــا نفســـي وفـــرطُ زفيـــرِي

فتكفَّ من فيـــضِ الدُّمــوعِ ، فـذَا وذَا

مـحوًا ســوادَي مقلتِـــي وضميـــرِي

إن يُصْبِنِـــي ذكـــرُ الدِّيـــار فإنَّـــهُ

لأُنـــاثِ أصبيـــةٍ بهـَــا وذكـــور

وجدي الصَّغيرُ بها لأصغـــرِ صبيتـــي

وكبيـــر أشواقـــي بهـــا لكَبيـــرِي

وقفةً أيُّها القارئ معي ، لهذا المقطع من قصيدة للخطِّيِّ حين يرسـلها شواظًا من قلبٍ يذوبُ أنَّاتٍ وتفجّع حسراتٍ إلى وطنهِ الثَّاني : أُوال ؛ حيث ترك عائلتهُ وصبيتهُ صغارًا وكبارًا ، ففراقُ الأهلِ مرٌّ المذاقِ فهو يرسل هذه الأنَّـات من شيراز ، من ربوع إيران من ضفافِ الخليج ، تسبحُ على موجاتهِ للسَّـائرة بوهجِ أحرفِ الشَّاعر المنطوية على لهبٍ من تشوُّقٍ ، إلى ضفاف أُوال ، وقبـل أن نؤطِّـر الصُّورة ، نأخذ عليـه ما أشرنا له آنفًا من بعـض الاسـتعمالات التُّراثيَّة ، ككلمة " عُجْ – والمطيِّ " وهو الَّذي قد تفلَّت من قيود تلك الفترة .

ويختم صورة قصيدته ويؤطِّرها بصورةٍ رائعة ، بعـد أن وصـف معالم " بوري " من طبيعة النَّخل والماء : –

وجدي الصَّغيرُ بها لأصغـــرِ صبيتـــي

وكبيـــر أشواقـــي بهـــا لكبيـــرِي

قسمةٌ عادلةٌ ؛ حيث قسم حبَّه إلى وجدٍ صغيرٍ ، وخصَّ بـــه صبيتـــه الصِّغار ، وشوق كبير لأبنائهِ الكبار .

ولما في البيت من صورةٍ مشرقةِ الظِّلالِ رائعـــة اللَّفـــظ والمعنـــى فالخطِّيُّ في هذه الصُّورة عكس الحبَّ الَّذي درج عليهِ الآباءُ ، فهم يرون الحـــبَّ الكبير للصَّغير ، حتَّى يكبر إلاَّ أنَّ الخطِّيَّ – في هذه الصُّورة الشِّعريَّة – ناقض هذه المقولة ، كما ترى ! ثمَّ يستمرُّ في هذه القصيدة : –

مـــن لا يطيـــقُ فـــراق يـــومٍ واحـــدٍ

لكـمُ فكيـــف يكـــونُ بعـــدَ شهـــور

آه وقـــلَّ عـلـــى أوالَ تـأوُّهـــي

فـإذا جننـــتُ بهـــَا ، فغيـــرُ كثيـــرِ

مــاكنـــت مبتاعًـــا أزقَّـــة فـــارسٍ

بالفيـــحِ مِـــنْ عرصاتهـــا والـــدُّور

هيهات ! مـاشيـــرازُ وافيـــةً بـمـــَا

في تلك لـــي ، مِـنْ نعمـــةٍ وحبـــور

بلـــد تعـــادل صيفُهـــا وشتاؤُهـــا

فـي الطِّيـــبِ للمقـــرور والـمحـــرور

لقد كنت ، يا أبا البحر ! وفيًّا لأهلك وأحبَّائك ، وأصدقائك ، فـــأراك كلَّما بعُدت بجسمك ، قربتَ بروحك وحبِّك ...! وهكذا شيمة الشُّعراء الأحـــرار الَّذين يذوبون شموعًا ، لتسرج فتضيء لأوطانِهم وأحبَّائهم .

وإنِّـــي لأُخاطبك من وراء جدر السِّنين الطِّوال ، لأقول لك : إنَّــك لا تتحمَّلُ فراقَ يومٍ واحدٍ ، فكيف بفراقِ شهورٍ ...؟!

إنَّها في عدِّ التَّاريخ الزَّمنيِّ : في حسابِ دفترِ أبي البحر لعـــدَّةٍ مــن قرونٍ ، وهو بعيدٌ عن الأهل والوطن ...! إنَّك صوَّرت هذا الفراقَ في ألــوانِ صورَ من شعرِك ، وهذا ما أشرنا إليهِ في رؤيتنا لشعرِك ... إنَّك لـــم تترسَّــم شعراء هذه الفترة ، فتحنَّ إلى الأطلالِ والفقًا عليها ذارف الدُّموعِ ، وإن لم تتفلَّت كلَّ التَّفلُّت ، من بعض تقاليدِ التُّراثِ ! فشوارعُ شيرازٍ وأزقَّتها لا تعادلُ عنــدك معلمًا من معالم " بوري " ولم تروِ ظمأ قلبك الصَّديان ولم تشبع مناظرها عينــك المسمَّــرة في مناظرِ حدائق بوري ؛ فأنت لا تزال ظامئ الحسِّ إلـــى إطلالـــة ضوءٍ ، من شمسِ سماءِ أُوال !

ويستمرُّ الشَّاعرُ في هذه القصيدة الحنينيَّة : -

لا شيء أبهجُ منظــرًا مـــن صحـــوهِ
والشَّمـــسُ فيـــهِ كـــدارةِ البلُّـــور

ومتـى أغـام أراكِ خيمـــةَ سنـــدسٍ
غشَّـــى سماوتهـــا دخـــانُ بخـــور

ويعود الشَّاعر إلى ذكريات عذبةٍ ، فيصوِّر مناظر شهدها ، في سماء أُوال ... ولم تنســه النَّقلة الجديدة في شيراز هذه الذِّكريـــات ، فيصـــف يـــوم الصَّحو في سماء أُوال ، في بهجته ؛ فكأنَّ شمسه قطعة مـــن البلُّـــور تتمـــاوجُ طيوفها الشَّمسيَّة ، على صفحةِ مياه الجداول ، أمام عينيهِ يومًا داكنًا فـــي رؤى الشَّاعر ومخيِّلتهِ ، يصوِّر جوَّهُ خيمةً من شجرٍ أخضر قد غشَّى سماءه موجةٌ مِنْ دخانِ البخور .

كما نورد له نموذجًا ، من طبيعة إحساسه وذوقه المرهف ، حين يصفُ دولاب القميعيَّات بأُوال ، فيعطيك مشهدًا من طبيعةِ رياضها ونخيلها ، فكأنَّك تعيشُ مع الشَّاعر : -

ياغاديات السُّحبِ لا تتجاوزي
في السَّقي دولابَ القميعيَّاتِ
سقيًا يفي بحقوقِ باقِي عيشنَا
فيهِ ويسلفنا حقوقَ الآتِي
لم أنسَ أيَّامًا جنيتُ مبكّرًا
ثمر المنَى فيهَا ولا ليلاتِي
روضٌ كما شرفت مطارفُ سندسٍ
تكدو عليهِ نواجمُ الزَّهراتِ
يستوقفُ الأبصارَ بين شقيقةٍ
حمراء ياقوتيَّة الورقاتِ

❦ ❦ ❦

كما رسم في قصيدته السُّبيطيَّة ، وهو يعبرُ بحرها ، بين " توبلي ومري " حين الجزر ، ومعهُ ابنهُ رسم حدثًا من الأحداث الغريبة ، وكان فيها رسَّامًا لمناظر متسلسلة ، منذ بدأ الحدث : حينما قفزت السَّمكةُ السُّبيطيَّةُ من البحر السَّاكن ، لتشجَّهُ ، فتسيل دماء وجنته اليمنى ، فتعيده منطويًا على جراحاتٍ ، فيلبسُ داره ، وينطوي على ألمٍ مرٍّ ألْهَمَهُ جوُّ هذا الألم هذه القصيدة ، غير أنَّنا نأخذُ عليهِ ما علق في دمهِ ، من تركة التُّراث

القديمة ، كالنَّخوةِ بقبيلةِ بكرٍ وتغلبَ ، وهتافَهُ بهما لأخذ الثَّأر من سمكة ضعيفةٍ لا تثبتُ إلاَّ أمام أبطال شهيِّ الأكل ، كما نستحسنُ منهُ بعض المبالغات في تهاويل الحادث .. ونقف ، ونسأل الشَّاعر : ماذا يقصد من أخذ الثَّأر ؟ هل أخذ الثَّأر عند الخطِّيِّ صيد هذه السَّمكة عينها الَّتي شجَّت خدَّه ، وتقطيعها وشيُّها بالنار فيأكلها بنهمٍ وقوَّة ...؟

فإنَّ هذا لسَّمك من اللَّحم الأبيض اللَّذيذ الَّذي له طعمٌ ونكهةٌ ! فليتنا نحظى بمأدبة عليها طبق من السَّمك السُّبيطيِّ المشويٍّ ، وتكون من ذرِّيَّة السَّمكة الَّتي شجَّت خدَّ شاعرِنا ؛ فنظفر بالثَّأر .

وهذه القصيدة .. أبدع فيها الشَّاعرُ في أُسلوبِها وصورَها ؛ فهيَ تواكبُ العصر حتَّى يومِنا هذا ! ونوردُ من هذه القصيدة مقاطع : -

برغمِ العوالِي والمهنَّدةِ البترِ
دماءٌ أراقتها سبيطيَّةُ البحرِ

ألا قد جنى بحرُ البلادِ وتوبلِي
عليَّ بما ضاقت بهِ ساحةُ البرِّ

فويلٌ بني شنٍّ بن أفصى وما الَّذي
رمتهُ بِهِ أيدي الحوادثِ مِنْ وترِ

دمٌ لم يرق مِنْ عهدِ نوحٍ ولا جرى
عَلَى حدِّ نابٍ للعدوِّ ولا ظفرِ

تحامتهُ أطرافُ القنا وتعرَّضت
له الحوتُ ، يابؤسَ الحوادثِ والدَّهرِ !

لعمرُ أبى الأيَّامِ ، إن باءَ صرفُها
بثأرِ امرئٍ مِنْ كلِّ صالحةٍ مُثري

فلاَ غـرو ؛ فالأيَّــامُ بيـن صروفِهــا

وبين ذوي الأخطار حربٌ إلى الـحشــرِ !

ألاَ أبلغ الـحيَّيــنِ : بكــرًا وتغلبًـا

فمَا الغوثُ الاَّ عنـد تغلــبَ أو بكــرِ

أيرضيكمُا أنَّ امــرءاً مــِنْ بنيكُمــا

وأيَّ امـرئٍ للخيــرِ يدعــي وللشــرِّ

يراقُ عَلَى غيـرِ الظُّبَــا دمُ وجهــهِ

ويجري عَلَى غيـرِ الـمثـقَّفــةِ السُّمــرِ

وقفةً معي أيُّها القارئ ؛ لنعيش مع الخطِّيِّ في نكبتهِ الكبرى ، كمــا يراها ويصوِّرُها في هذه القصيدة الَّتي انبعثت من معاناة ألمٍ ، فكان للسُّــبيطيَّة فضــلٌ ؛ إذ أثارت ألــم الشَّاعر وجرحــت كبرياءه ليسكبهما حرفًــا في وتــرٍ باكٍ ، ونخوة تفيضُ حماسًا ، ويهدِّد لأخذ الثَّأر ، ويستنجد بوائل وبكر .

إنَّه حدثٌ أُريقت فيهِ دماءٌ ، لكن لا بحدِّ سيف ، ولا بطرفِ عسَّــالٍ فصوَّر الخطِّيُّ هذا الحدث منذ فاتحتهِ بصورَ لوَّن فيها الشَّاعر الحــدث وأطَّــره بروعةٍ ، وإن أخذنا عليه – كما قلنا – بعض التَّهاويل ، غير أنَّها مهما أخــذت من طابعٍ تراثيٍّ تقليديٍّ في أُسلوبها ، تختلف كلَّ الاختلاف ، وتتباينُ عن شعراء فترتهِ وهو يعدُّ من بينهم عبقريَّةً نادرةً وأُسلوبًا متطوِّرًا .

ويمضــي الخطِّيُّ في هذه القصيدة ليتابع الحدث التَّصويــريَّ فــي حروفهِ ، كشريطٍ سينمائيٍّ فهيَ وليدةُ إحساسٍ ومعاناة .. لذلك تفجَّرت ، بركــان لهيبٍ حماسيٍّ : –

أنَا الرَّجلُ المشهورُ ، مَـا مِـنْ مـحلَّـةٍ
مِنْ الأرضِ إلاَّ قَـدْ تـخلَّلهَـا ذكـرِي

فإن أمسِ فِي قُطرٍ مِنْ الأرضِ ، إنَّ لِـي
بريد اشتهارٍ فِـي مناكِبِهـا يسـرِي

تولَّعَ بِي صرفُ القضاءِ ولَـمْ تكـن
لتجرِي صروفِ الدَّهرِ الاَّ عَلَـى الحـرِّ

توجَّهتُ مِنْ مـرِّي ضحًى ، فكأنَّـمـا
توجَّهتُ مِنْ مرِّي إلـى العلقـم الـمـرِّ

تلجلجتُ خـورَ القريتيـنِ مشمِّـرًا
وشبلي معي ، والـمآءُ فِي أوَّلِ الـجـزر

فمَـا هـو إلاَّ أن فُجئـتُ بطافـرٍ
مِنْ الحوتِ فِي وجهي ، ولاَ ضربةَ الفهـرِ

لقَدْ شـقَّ يـمنى وجنتَـيَّ بنطحـةٍ
وقعتُ بهَـا دامِـي المحيَّـا عَلَى قطـرِي

فخيِّـلَ لِـي أن السَّمـاواتِ أطبقـت
عَلَيَّ وأبصرتُ الكواكـبَ فِـي الظُّهـرِ

❦ ❦ ❦

وقفةً لنسمع الخطِّيَّ ، وهو يتنبَّأ لنفسهِ مِنْ كمائمِ الحاضر ، فيستشـفُّ أضواءً تنعكسُ على مرآةِ مستقبلٍ عطرٍ بذكرهِ ، سيَّارًا كما يسير الـبريد فِـي عصرنا من مدينةٍ إلى أُخرى . إنَّ هذه التنبُّؤات قد تحقَّقت ، وأصبحـت أيُّـها الخطِّـيُّ حقيقةً واقعيَّةً يلمسُهـا المفكِّرون والأُدبـاء ، مجسَّدةً فـي حروفِـك

الخالـــدة ، وراحَ الخطّيُّ يرســـمُ بريشـــة الفنِّ منظر الحـــدث ، فـــي صـــورةٍ متحرِّكة ، كشريطٍ سينمائيٍّ تشاهـــدُ مرئيَّاتـــهُ :

فلســتُ بمولَى الشِّعــرِ إن لَــمْ أزجَّـــهُ
بكلِّ شرودِ الذِّكـرِ أعــدى مِــنْ العــرِّ

أضرَّ عَلَى الأجفانِ مِنْ حــادثِ العمـــىَ
وأبلىَ عَلَى الآذانِ مِــنْ عــارضِ الوقـــرِ

يخافُ عَلَى مَنْ يركبُ البحـــرَ شرُّهـــا
وليس بـمأمــونٍ عَلَـــى ســالكِ البـــرِّ

تجوسُ خـــلال البحـــرِ تطفـــحُ تـــارةً
وترسو رسوَّ الغيـصِ فِـي طلـــبِ الــدُّرِّ

تنـــاول مِنْـــهُ مـــَا تعالـــَى بسبحـــهِ
وتـــدركُ دون القعـــرِ مبتـــدرَ القعـــرِ

لعمرُ أبِـي الـخطِّـيِّ ، إن بَـات ثـــأرهُ
لذي غيرِ كفءٍ ، وهو نـــادرةُ العصـــرِ

فثأرُ عليٍّ بَـــات عنــــد ابـــنِ ملجـــمٍ
وأعقبهُ ثأرُ الـحسيـــنِ لـــدى شـمـــرِ

❦ ❦ ❦

ويؤطِّرُ الخطِّيُّ قصيدتهُ ، بأُسلوبٍ تاريخيٍّ يوازنُ فيهِ معاناتهُ وضياع ثأرِه ، عند هذه السُّبيطيَّةِ ، وليس هو الوحيدَ الَّذي ضاع ثأرهُ ؛ فـــإنَّ العبـــاقرة الأحرار دائمًا يقسو عليهم الدَّهرُ ، وتضيعُ أوتارهم ..! ولم يقـــف علـــى هـــذه

الشَّريحة بل يوغل إلى أبعد الحدود ، فيضربُ مثلاً بأرفعِ قمَّةٍ ، فقد ضاع ثأرُ الإمامِ عليٍّ – عليه السَّلام – عند ابنِ ملجمٍ ، وضاع ثأرُ الإمام الحسينِ – عليه السَّلام – عند شمرٍ !

وهذه مبالغةٌ ترقى إلى حدٍّ يُنتقدُ عليها ... فما ثأرهُ عند سمكةٍ ضعيفةٍ لا حول لها ولا قوَّة ، بالقياسِ لما قاسهُ في موازنتهِ الَّتي لا تنطبقُ على الواقع الملموس ؟ فبينهُ وبين الإمامين عليٍّ والحسين – عليهما السَّلام – ما بين القمَّةِ والسَّفحِ ، أو ما بين السَّماءِ والأرضِ ، إن جاز هذا التَّعبير !

ونشكرُ السُّبيطيَّةَ كلَّ الشُّكر ؛ إذ أوحت له هذه القصيدة مِنْ معاناةٍ مرَّةٍ ، فهيَ تستمدُّ مِنْ حدثِ تجربةٍ ، وإن بالغ الخطِّيُّ بفخرٍ ما بعده فخر مِنْ أُسلوبٍ ورثهُ مِنْ التُّراثِ في دمهِ ، وسار فيه على منهجيَّة الشُّعراء القدامى ؛ غير أنَّهُ يختلفُ عن شعراءِ فترتهِ ، إذ يكتبُ جُلَّ حروفهِ مِنْ واقعهِ الَّذي يعيشه ، وبيئتهِ الَّتي درج على صعيدِها !

وتنفَّس الخطِّيُّ في هذا الجوِّ الكئيب المدمي لهُ ، بسلاحِ الشِّعرِ ؛ فالشِّعرُ سلاحٌ لا يقف أمامهُ الأبطال ، ولو كانوا دارعين ! وهذا من رؤيتِنا ، ما كان للشعرِ من دورِ تأثيرٍ في الحياة !

ونريدُ هنا أن نفسِّر ما أرادهُ الخطِّيُّ بضربهِ مثلاً : أن ثأرهُ عِند السُّبيطيَّة كالثَّأر عند قاتل الإمام عليٍّ – عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام – وثأر قاتل الإمام الحسين – سلام الله عليه – ولا موازنة بينهما وبينه ! والخطِّيُّ لعلَّه – عندما ضرب هذا المثل – لعقيدتهِ الصُّلبة ، أراد التَّبرُّك بذكر أهل البيت فإنَّ ذكرهم كلُّهُ خيرٌ ، والخطِّيُّ قد نعى على الَّذين يبكون ، أو يتباكون على الأطلال ، وهيَ أدراسٌ بالية أو أحجارٌ صمَّاء ..! فاسمعه : –

ماذا يفيدُكَ مِنْ سؤالِ الأربُعِ

وهيَ الَّتي – إن خوطبت – لَمْ تسمعِ

سفه وقوفُك فِي رسومٍ رثَّةٍ
عجماءَ لاَ تدري الكلامَ ولاَ تعِي

فذر الوقوفَ عَلَى محانِي منزلٍ
عافٍ لمختلفِ الرِّياحِ الأربَعِ

وامسك عنانَ الدَّمعِ عن جريانهِ
فِي دمنةٍ لاَ تحمدنْك ومربعِ

اللهُ جارُك ، هل رأيتَ منازلاً
عطلتْ فحلَّتهَا عقودُ الأدمعِ

واستبقِ قلبًا لا تعيشُ بغيرهِ
وشعاعَ نفسٍ إن يغبْ ، لَمْ يطلعِ

فانظر الخطِّيَّ في هذه القصيدة يجاهرُ برأيهِ النَّقديِّ ويوجِّهه للَّذين يتباكون على الأطلال ودرجوا على سيرة التُّراث التَّقليديِّ ... فالتُّراث يسري في دم البشر ، ولا يكادُ يتخلَّص منه ، حتَّى أحفاد الأحفاد ! ولكنَّ الخطِّيَّ يرسلها ثورةً عارمة تجتاح عقول التُّراثيِّين المنغلقة ، والجامدة كالصُّخور .

ونريدُ هنا أن نشير إلى حياة ترتبط بحياة تاريخ الخطِّيِّ ؛ فنحن لا نعرف العوامل التَّاريخيَّة ، على الحقيقة الَّتي دعتهُ إلى تركِ « أوال » والسَّفر إلى شيراز ، بربوع إيران – عام ١٠١٦هـ – هل من العواملِ الدَّعوةُ الَّتي جاءتهُ من السَّيِّدِ خلف ابن السَّيِّدِ عبد المطَّلب : ملك الدَّورق ، حينما وقع بينه وبين أخيهِ نزاعٌ ، فسمل أخوهُ عينهُ ! فكتب

للخطِّيِّ ، يبثُّ له شكواه ، مما عمله أخوه فيه ، ويعتب عليه ويطلب منه السَّفر إليه ، فلبَّى هذه الدَّعوة والْتقى به في مدينة شيراز ...؟

وهذه الدَّعوةُ من ملك الدَّورق للخطِّيِّ ، لتسليةِ الملكِ وبثِّهِ همومهُ ، وتضميد جروحهِ تدلُّ على عظمةَ شخصيَّة الخطِّيِّ ، ولمعانِها في أُفق الحياة ، وما ينطوي عليهِ من سياسةٍ بعيدة المرمى ، يُفزَعُ إليها في المُلمَّات ، فاهتبل الخطِّيُّ هذه الفرصة ، فألقى بين يديهِ القصيدة الَّتي أولُّها : -

أبا هاشمٍ ! أُهدي إليكَ تحيَّةً
تحيِّيك ريَّاها برائحةِ العطرِ

ونستشفُّ من بعض تواريخ القصائد : أنَّه عاد إلى مدينة « أُوال » ولعلَّ للخطِّيِّ زورات متكرِّرة إلى « شيراز » وهذا الظَّنُّ التَّاريخيُّ نأخذه من بعض تواريخ القصائد ؛ فقصيدته التَّائيَّة الَّتي كتبها مهنِّئًا أحد أشراف القطيف ، بعِيد الفطر ، وسنوردها آخر دراستِنا هذهِ ، تاريخُها : ١٠١٧هـ . وقصيدتهُ الرَّائيَّة الَّتي يصف بها حدث السُّبيطيَّة ، عندما عبر خليجًا يفصل بين « مرِّي » و « توبلي » بمدينة « أوال » يؤرِّخ الحدث عام : ١٠١٩هـ . والحدث وقع له في « أوال » فهذا دليلٌ تاريخيٌّ ، على أنَّه لم يستقرَّ في ربوعِ « إيران » كلَّ الاستقرارِ ، بل هو كالظِّلِّ في نقلاتٍ بينهما .

ويؤسفنا أنَّ أكثر قصائد الدِّيوان لم تحمل طابعًا تاريخيًّا والطَّابع التَّاريخيُّ مرآةٌ تستكشفُ منه الأحداثُ الزَّمنيَّة ، وتطوُّرُ أُسلوب الشِّعر في حياةِ الشَّاعرِ ، فتعطي عنه أُسلوب التَّطوُّر والرُّقيِّ ... فلهذه العوامل ، لا نستطيع أن نتابع سير الخطِّيِّ في تجواله ؛ غير أنَّنا نستشفُّ : أن سفرتهُ الأُولى إلى « إيران » الَّتي رحل في إثرِ دعوةِ السَّيِّد خلف في هذه الرِّحلة ، اجتمع

بالعلاَّمة الكبير : الشَّيخ البهائيّ ، ودارت بينهما مساجلة أدبيَّة ، وأقدر العلاَّمة البهائيُّ الخطِّيَّ وطلب منه أن يعارض قصيدتهُ الَّتي مطلعُها : -

سرى البرقُ مِنْ نجدٍ فهيَّج تذكاري
عهودٌ بحزوى والعذيبِ وذِي قار

مدح بها صاحب الزَّمان - عجَّل الله فرجهُ ، وسهَّل مخرجه - فأعطى العلاَّمة البهائيُّ الشَّيخ جعفرًا الخطِّيَّ : مهلة شهرٍ لمجاراةِ قصيدتهِ سالفة الذِّكر فأجابه الخطِّيُّ طالبًا أسبوعًا ، ثمَّ استثنى الخطِّيُّ ، وانتحى ناحيةً من المجلس فكتب خريدتهُ العصماء ..! هكذا ، تقول الرِّواية التَّاريخيَّة ؛ كما أكبرها العلاَّمةُ البهائيُّ ، وأثنى عليها ، وقرَّظها ... ونوردُ منها مقطعين : -

هي الدَّارُ تستسقيك مدمعها الجاري
فسقيًا ، فأجدى الدَّمعُ مَا كان للدَّار

فلاَ تستضع دمعًا تُريقُ مصونهُ
لعزَّتهِ مَا بين نؤيٍ وأحجار

فأنت امرؤٌ قَدْ كنتَ بالأمسِ جارهَا
وللجار حقٌّ - قَدْ علمت - عَلَى الجار

عشوت إلى اللَّذات فيها على سنا
شموسِ وجوهٍ مَا يغبن وأقمار

فأصبحتَ قَدْ أنفقت أطيبَ مَا مضى
من العمرِ فيها بين عونٍ وأبكار

نواصعَ بيضٍ لو أفضن علـــى الدُّجـــى

سناهُنَّ لاستغنى عـــن الأنـجُم السَّـــاري

حرائـرَ ينظــــرنَ الأُصــــولَ بأوجـــهٍ

تغـــــصُّ بأمــــواهِ النَّضـــارةِ أحـــرار

معاطيرَ لم تغمــس يــــدٌ فِـي لطيمــــةٍ

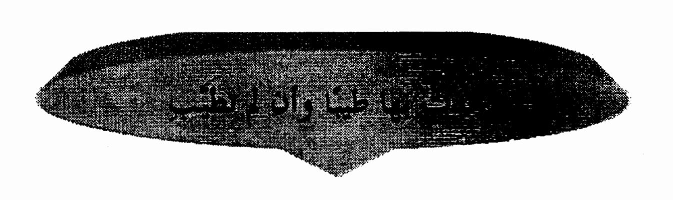
لـهـــنَّ ولا استعبقـــن جونــةَ عطَّـــار

❦ ❦ ❦

فعندما أكمل الخطِّيُّ قصيدتــهُ الَّتي عارض بـــها قصيــدة العلاَّمـــة البهائيِّ ، وأنشدها في ذلك المجلس الَّذي كتبها فيهِ ، فكانت بنتَ ساعتِها كان لها الوقعُ والدَّورُ الكبيرُ في نفس العلاَّمة ، وأخذت عليه آفاقــهُ الفكريَّـــة فأطراهـــا وقرَّظها ..! وهذا التَّقريظُ لهُ قيمتهُ ؛ لأنَّه صادرٌ من ناقدٍ كبيرٍ حاذق ، يعـــرف النُّضار ويميِّزهُ مِنْ الفحم .

والخطِّيُّ ، إذ يبدع في هذه القصيدة ، ويثور فيها على مـــن يسـكب دموعـــهُ على الأحجـــار ، ويتباكـــى على الأطـــلال ! فهو في أُسلوبهِ – كمـــا قلنا – تميَّز من شعراء تلك الفترة ، وأعطانا صورة لها طابعٌ يميِّزهُ ...!

وينهي هذا المقطع بأبيات فيها صورة رائعة ؛ فالفتيـــات النَّواصـــع البيض ، لو نفضن علـــى الدُّجى قبسةً من سناهُنَّ ، ليســـتعيض السَّـــاري فـــي دلوجهِ بنورهِنَّ عن ضوءِ النُّجومِ والأقمارِ ! واستغنى بعطرهنَّ الطبيعيِّ الخلـــق عن أعطار الزُّهور ، وهنَّ لم يتعطَّرن من جونةِ عطَّارٍ ولم يغمسن أيديهن فـــي لطيمةِ طيبٍ – أي قارورة طيبٍ – فهو مقتبسٌ من معنى بيت العربيِّ القديم : –



ونختم هذه القصيدة بهذه الأبيات الَّتي نظر الخطِّيُّ مستقبلهُ من مرآة الحاضر ، فانعكس على ضوئها مستقبلهُ المشرق ... سوف تكونُ لهُ شهرةٌ تملأ الحياة ، فصورَّ هذه الرُّؤية في هذه الأبيات : -

جُهلتُ عَلَى معروفِ فضلِي ، فلَمْ يكن
سواهُ مِنْ الأقوامِ يعرفُ مقداري
عَلَى أنَّهُ لَمْ يبقَ فِيما أظنُّهُ
مِنْ الأرضِ قُطرٌ لَمْ تُطبِّقهُ أخباري
ولاَ غروَ فالإكسيرُ أكبرُ شهرةً
ومازال مِنْ جهلٍ بهِ تحتَ أستار
متى بلَّ بي كفًّا فليس بآسفٍ
عَلَى درهمٍ : أنْ لَمْ ينلهُ ودينار

وهذه القصيدة تنبَّأ فيها الخطِّيُّ جوٌّ جديدٍ يمتدُّ بعد حياتهِ لماديَّة ، عندما يلفُّ مِنْ هذهِ الحياةِ الفانية ، إلى حياةٍ باقيةٍ خالدة ...! لقد صدقت رؤيتك ؛ فأنت حيٌّ في ذاكرة التَّاريخ ؛ فإنَّ أسفارك وبعدك عن عائلتك ، وعن موطنك الأوَّل « **القطيف** » وموطنك الثَّاني « **أوال** » إنَّها نقلةٌ تغرُّبٍ أعطت نموًّا وخصبًا ، وأنبتت أزهارًا تتضوَّعُ ذكرى عطرةً ، لشاعرنا الشَّيخ جعفر الخطِّيِّ ؛ لأنَّ العبقريَّة تنصهر في بوتقة الألم ...!

وما هذه الدِّراسة إلاَّ نفحةٌ من تلك القارورة المهرقة على حواشي التَّاريخ . ولولا هذه النَّقلةُ التَّغرُبيَّة لطُويَ سجلُّ ذكره ، وضاعت حياتهُ وشعرهُ

واسمه في تلافيف الزَّمن السَّحيق ! فهجرته إلى ربوع « إيران » أحد العوامل التَّاريخيَّة الَّتي أتاحت له فرصةً ذهبيَّة ... يلتقي على بساط العلم والفكر والأدب بالعلاَّمة الكبير الشَّيخ البهائيِّ ، وقد كانت لهذه الغربة حنينُ أوتارٍ تتشظَّى من فؤادهِ قطعًا باكية وأنَّاتِ شوقٍ فيها ولهٌ .

اسمعهُ في قصيدته الضَّاديَّة الَّتي وجَّهها من ربوع « إيران » إلى عائلتهِ بأوال ، نورد منها مقطع حنينٍ فأصغ معي ، لينشدنا الخطِّيُّ : –

خُذ في البُكا إنَّ الخليطَ مقوِّضُ
فمصرِّحٌ بفراقِهم ومعرِّضُ

وأذِب فؤادَك فالنَّصيرُ عَلَى النَّوى
عينٌ تفيضُ ومهجةٌ تتفضَّضُ

هاتيك أحداجٌ تُشَدُّ وهذهِ
أطنابُ أخبيةٍ تُحَلُّ وتنقضُ

ووراء عيسِهمُ المناخةِ عصبةٌ
أكبادُهم وهمُ وقوفٌ تركضُ

وقفوا وأحشاءُ الضَّمائرِ بالأسَى
تحشى وأوعيةُ المدامعِ تنفضُ

يتخافتُون ضنًى فمطلِقُ أنَّةٍ
ومُطامنٌ مِنْ زفرةٍ ومخفِّضُ

قبضُوا بأيديهم عَلَى أكبادِهم
والشَّوقُ ينزعُ مِنْ يدٍ مَا تقبضُ

فإذا همُ أمنُــوا الـمُراقــبَ عرَّضــوا
بشكاتِهــم وإن استرابُــوا أعرضُــوا

رحلــوا وارآءُ البكـــاةِ وراءهــم
شتَّـــى فسافـــحُ عبــرةٍ ومغيِّــضُ

أتبعتُهــــم نفسًــ ودمعًا ، نـــارُ ذا
تشوي الرِّيـــاض ، ومـــاءُ ذاكَ تُــروِّضُ

مَن ناشـدٌ لِــي بالعقيـــقِ حُشاشـــةً
طاحت وراءَ الرَّكبِ ساعـــةَ قوَّضُــوا

لَـمْ تلوِ راجعـــةً ولَـمْ تلحـق بهـــم
حتَّـى وَهَــتْ مـمَّـا تطيــحُ وتنهــضُ

❦ ❦ ❦

عندما قــرأتُ هذهِ القصيـــدة الضَّاديَّة للخطِّــــيِّ ، هاجـــت بـي الذِّكرى ، وطويت الأيَّام القهقرى ، إلى ما وراء السِّنين إلى أيَّامِ اليفاعة ، عندما كان والـــدي الإمام الخنيزيُّ يُلقي عليَّ دروسًا في العشيِّ ، وكـــان يقــرأ هـــذه الأبيات ، ويترنَّم إعجابًا بها ... فرحمك الله يا أبتي رحمة الأبرار ! فقد كنـــت المعلِّم والأُستاذ الأوَّل لي ، واليوم أعودُ وذاك الصَّدى يغمرُ كياني ؛ لأدرس هذه القطعة السِّيمفونيَّة ، وأحلِّلها ، والفضلُ في ذلك لمعلِّمي الَّذي فتح لي آفاقًا مـــن الأدبِ والعلم ، فالقصيدةُ تفيضُ حنانًا وشوقًا مبرِّحًا ، وعاطفةً تمدُّهـــا أشـــباحُ الفراق وتتمدَّدُ فيها أطيـــافُ الغربة ، وليسمح لنا الخطِّيُّ بنقـــداتٍ ! فـــالخطِّيُّ لازال مشدودًا بالتُّراث ، لـــم يتفلَّت منهُ كلَّ التَّفلُّت ، وإن تمرَّد علـــى عصـــرهِ وجاء بتجاربــهِ من ألوانِ بيئتــهِ ، بيـــد أنَّهُ قـــد يجـــري بعضُ النَّمِ الــتُّراثيِّ

في عروقــهِ ! فاستعمــل كلمــاتٍ هــي أدواتٌ لعصــورٍ انطـــوت بطــيٍّ استعمالها ، ككلمة « **العيس** » و « **الأخبية** » و « **وادي العقيق** » .

وشاعرُنا قضى رحلتهُ من ضفافِ « **أوال** » إلى ربوعِ « **إيران** » على متنِ قــلاعٍ تمخرُ في بحرُ الخليجِ العربيِّ ، ولم يستخدم في رحلتــهِ « **العيس** » ولا « **الأخبية** » وأين هو من « **وادي العقيق** » ؟ إنَّما أهلهُ في مدينــةِ « **أوال** » يعيشــون ، وبرغم هذا وذاك ، فقــد أبدع الشَّاعر ... برغــم صعوبــة هــذه القافية ، فلم يقع منها رويٌّ غير نابتٍ في موقعِه !

وتأمَّل معي هذه الصُّورة المتحرِّكة في دورانها ، كخفقــاتِ قلــوب المودِّعين أحبابهم ساعة الفراق :

قبضــوا بأيديهــم علـى أكبادهــم

والشَّـوق ينــزع مـن يـــد مـا تقبــضُ

... تأمَّل أيُّها القارئ ! في صورة هذا البيت ، كيف صوَّر الخطِّــيُّ الشَّــوق العارم الَّــذي هو تيَّارٌ كهربائيٌّ ينــزع الأكباد ، ولا يقـــفُ أمامــهُ حاجبٌ – مهما كان من قوَّةِ أيدٍ .

ويصوِّرُ الخطِّيُّ أنَّ حشاشتهُ قد ضاعت يوم الرَّحيل ، فـــي غمــرةِ الذُّهولِ ، كما يضيعُ قعبُ اللَّبن ، فتلك الحشاشة سقطت من الرَّكـــبِ ، حينمَــا قوَّضوا ، فهو يذكِّرني بالشَّاعر الكبير : الشَّريف الرَّضيِّ :

يضـــاع فينشـــد قعــب الغبـــو

ق وقلبــي يضـــاع فـــلا ينشـــد

فالخطِّيُّ يقبس هذه الصُّورة ، فيقول :

من ناشد لي بالعقيق حشاشةً

طاحت وراء الرَّكب ساعة قوَّضوا

والخطِّيُّ قد أفل في غربتهِ ، بعيدًا عن وطنهِ ، حيث غرُبَ وانطفأ في غربتهِ كما ينطفئُ الكوكبُ الَّذي تعقبه شعلة بيضاء عند موتهِ ، عام ثمانية وعشرين بعد الألف الهجريَّة ... حيث وافته المنيَّة ، بمدينة شيراز بإيران ، ودفن عند مرقد السَّيِّد الجليل : السَّيِّد أحمد ابن الإمام موسى الكاظم - عليه السَّلام - على مهاجرها أفضل الصَّلاة والسَّلام .

ولولا هذا التَّجوال ، وهذه الغربة ، لضاع الخطِّيُّ ، كما ضاع غيرهُ من مفكِّري القطيف ، وواأسفاه ! إنَّ بلادي لا تحتفل بمفكِّريها ، كأنَّهم لم يكونوا من كيان مجدها ، بل تقبرُ شموسهَا وتخسفُ أقمارهَا ، وتدفنهم في جدران السِّنين البعيدة السَّحيقة ، وتعيشُ على مائدةِ مفكِّري غير بلادها ، وهذه ظاهرةٌ متأصِّلة في نفوس القطيفيِّين ...!

وقد شخَّصتُ هذا الدَّاء وجسَّدتُهُ ، وناديتُ مفكِّرين بعلاجهِ والقضاء عليه ، في عدَّة أساليب من كتابتي ... لعلِّي أصبتُ الهدف ولعلَّهُ هو العلاج لهذا الدَّاء بإيقاظي المتناومين ، وإن ظهرت في سماءِ بلادي لمحةُ صحوٍ من بعض مفكِّريها عُنوا بتراثهم ، وكتبوا عنه إلاَّ أنَّهم قليلون ، آمل من الله أن يُكثر من هؤلاء الرِّجال المخلصين الَّذين يسرجون شموعهم ، لتضيء للأجيال القادمة في هذه الحياة ، وهذه غيرةٌ وطنيَّةٌ انبثقت من صميم قلبي ..! فأعود للشَّيخ جعفر الخطِّيِّ فأسجِّل حقيقةً مرَّةً : لو لَمْ يمت بعيدًا عن وطنهِ لضاع تاريخ موتهِ ، كما ظُنَّتْ بتاريخِ ميلادهِ الظُّنون ، وضبِّبت حول حياتهِ ونشأتهِ الغيوم .

وبرغم ظلم التَّاريخ له ، يُعدُّ سعيدًا ؛ إذ لا يزالُ يعيشُ حيًّا في محراب القلوب ، والألسنِ ، وبطون التَّاريخ ، وكُتب عنهُ بعض الدِّراسات ، ونظم فيه قصائد من الشِّعر ، وقد أشرتُ للخطِّيِّ إشارةً ضوئيَّةً

خاطفةً في كتابي : « **خيوط من الشَّمس** » في : « **الحياة الأدبيَّة** » والخطِّيُّ لم أعثر إلاَّ على ديوانهِ الَّذي جمعهُ راويتهُ : الغنويُّ ، ولم أعثر له على كتبٍ علميَّةٍ ولعلَّهُ ترك ثروةً فكريَّةً علميَّةً ، ولكن الزَّمن يُضيعُ الأحرار ويمحوهم من ذاكرة التَّاريخ !

فرحمك الله يا أبا البحر ، فأنت مفخرةٌ من مفاخر القطيف ، وحرفٌ أخضر يتدفَّقُ معينًا في جداول الأفكارِ ، راجيًا من أبناء القطيف أن يعدُّوا الدِّراسات والبحوث ، عن الشَّاعر العبقريِّ الَّذي – في رأيي – هو كيانٌ من الفكر الأدبيِّ القطيفيِّ .

وسنثبت له هنا قصيدتهُ التَّائيَّةَ من ديوانهِ المطبوع الَّذي قام بطبعهِ أديبٌ غريبٌ عن وطنهِ ، لا يربطهُ بهِ إلاَّ الفكرُ ؛ فإن بلادي – كما وصفتُها – تقبرُ مفكِّريهَا ، وتضيعُ تاريخهَا إلاَّ مَا استثني من ثُلَّةٍ خيِّرةٍ ، أرجو الله أن يمدَّها بالنَّشاطِ والتَّوفيق ، لتكمل مسيرتها في تاريخ الوطن !

وقبل أن أختتم هذه اللَّمحة ، عن شاعرنا الشَّيخ : جعفر الخطِّيِّ ، أُحبُّ أن أُشيرَ إلى خطإٍ تاريخيٍّ ، وقع فيه مخرجُ ديوان الشَّيخ : جعفر الخطِّيِّ الأُستاذ الخطيب : السَّيِّد عليِّ ابن السَّيِّد حسين الهاشميِّ – رحمه الله وجزاه الله خيرًا – حيث قال بالحرف : ولد شاعرُنا بالخطِّ ، وذيَّل في هامش الصَّفحة نفسها ، رقم (٤) الخطِّيُّ – بفتح الخاء المعجمة – وتكسر نسبة إلى الخطِّ : قرية من قرى البحرين ! ويؤسفني هذا التَّعريف من أديبٍ وخطيبٍ ، يجهلُ تاريخَ قطرٍ عربيٍّ عريقٍ ، له دورٌ في الحضاراتِ والسِّياسة والاجتماع ، منذ العصور القديمة .

فالخطُّ ليست هي قرية من قرى البحرين ، إنَّما هي قُطرٌ مستقلٌّ ، لم يسجِّل التَّاريخ في صفحاته يومًا مَّا أنَّها تابعٌ لجزيرة « أوال » ونوضح المفهوم العامَّ لكلمة الخطِّ :

هي اسم يطلق على القطيف والأحساء والبحرين ، كما تطلق البحرين على ما تحتويه كلمة الخطّ ، وتشاركهما هجر في مفهوم معناهما وإذا أُطلقت كلمة « **قطيف** » اختصت بالقطيف الَّتي حدَّدها التَّاريخ قديمًا ... وفي شعرِ ابنِ مقرَّب :

والخطُّ مِنْ صفوة حاذوها فما

أبقوا بها شبرًا إلى الظَّهرانِ

و « **أُوال** » تختصُّ بالجزيرة المعروفة بالبحرين اليوم ، وإذا أُطلقت كلمةُ « **الأحساء** » اختصَّت بالقطر المعروف اليوم بالأحساء ، فمن أراد أن يعرف حقيقة ما قلناهُ ، فليرجع إلى معاجم اللُّغة والبلدان وكتب التَّاريخ القديم ، كمعجم البلدان وغيره .

والشَّاعر الشَّيخ : جعفر الخطِّيُّ ولد على صعيد أرض القطيف ، ويؤيِّد ما نقوله الشَّاعر نفسه ، حيث أشار إلى ولادته وسجَّل طفولتهُ البلهاء ، ونشأتهُ على هذه الأرض الخيِّرة ، في قصيدتهِ التَّائيَّة : -

هلاَّ سألتَ الرَّبعَ عن سيهاتِ

عن تلكم الفِتيانِ والفتياتِ

فنطلب من الباحث المؤرِّخ لحياة المفكِّرين : أن يدرس ديوان الخطِّيِّ ، ليقف على الحقيقة الَّتي ذهبنا إليها وأيَّدناها بالأدلَّة التَّاريخيَّة .

وتعليقنا على ناشر الدِّيوان ، القصد منه : الحقيقة ؛ لتصحيح هذا الخطإ التَّاريخيِّ للأجيال والتَّاريخ ، والله الموفِّق ...

هلاَّ سألتَ الرَّبعَ عن سيهاتِ
عن تلكم الفِتيانِ والفتياتِ
ومجرُّ أرسانِ الجيادِ كأنَّها
فوق الصَّعيدِ مساربُ الحيَّاتِ
ومجدِّفات السُّفْنِ أدنى برَّها
مِنْ بحرِها ومبارك الهجماتِ
حيثُ المسامعُ لاَ تكادُ تفيقُ مِنْ
ترجيعِ نوتيٍّ وزجرِ حداةِ
إنَّ القطيفَ ، وإن كلفتُ بحبِّها
وعلتْ عَلَى استيطانِها زفراتي
إذ أين جُزْتُ رأيتُ فيها مدرجِي
طفلاً وأترابِي بِها ولداتِي
لأجلُّ مُلتمسِي وغايةُ منيتِي
أنِّي أقيمُ بتلكمُ السَّاحاتِ
فسقى الغمامُ إذا تحمَّل ركبهُ
تلكْ الرِّحابَ الفيحَ والعرصاتِ
واجتازت المزنُ العِشار فطبَّقت
بالسَّقي مِنْ « عنكٍ » إلى « بنكاتِ »
حتَّى توشَّحَ بالجميمِ وتكتسي
ربواتُها بنواجمِ الزَّهراتِ

أفلانُ إنِــي قَــدْ بدا لِــي عندكــم
غــــرضٌ يهجِّـــنُ ذكــرهُ أبياتِـــي
لاَ شيء أحقــر منـــهُ إلاَّ أنَّنـِـي
أعددتُـــهُ مِـــنْ أكبــر الزَّحــمــاتِ
فوصلتُهُ بِك ، وهْــو بعـــثُ عمامـــةٍ
فضِّيَّـــةٍ ذهبيَّـــةِ العذبـــاتِ
يحكي خدودَ البيضِ سائـــرُ لونِهـَـا
وكنائـــرِ فِــي حمـرةِ الوجنـــاتِ
أولونُ بيضكُــمُ ، إذَا مــَـا استنضيـت
ورجوعُهـَـا مُحمـــرَّةً الشَّفــراتِ
واصفح وغضَّ عن الإســاءةِ ، إنَّ من
شيمِ الكريـــمِ تجــاوزَ الهفـــواتِ
إذ من يكلِّفُكَ اليسيرَ كمــنْ يســـو
م الغيـــثَ واحـــدةً مـَـنْ القطـــراتِ
هذا وأقسمُ بالمحصَّبِ مِـنْ منـًـى
ووقــوفِ وفــدِ الحجِّ فِــي عرفـــاتِ
وبما أطيحَ هناكَ مِـــنْ شعـــرِ امــرئٍ
وبمَا أريـــقُ هنـَــاك مِـــنْ دمِ شـــاةِ
لولاَ اعتقادِي فِيـــك : أنَّــكَ تشتـــرِي
مـَا أشلـــت الأقـــوامُ مِـــنْ مدحاتِـــي
لـَمْ أثنِ وجدَ رجاي نحوكَ ، لاَ .. ولَـمْ
أفتـــح بمسألـــةٍ إليـــك لهاتِـــي

فـأنَـا وإن عضَّ الـزَّمـــانُ بغاربِــي

أو فلّــت الأيَّــامُ حــدَّ شباتِــي

لأصونَ عــن مــدحِ اللّئــامِ ترفُّعًــا

شعــري وأقصــرُ دونهــُم خطواتِــي

فاستجلها ، عـــذرآء بنـــتَ سويعـةٍ

مِنْ حرٍّ مَـا جـادتَ بِـهِ كلماتِـي

لو تُنشــدُ الطائــيَّ ألغــى عندهــا

أحبب إلـيَّ بطيـف سعـدى الآتــي

واستقبَل العيــدَ المبــارك موقــرًا

رمضانَ مــن صــومٍ ومِــنْ صلـواتِ

واغنم بـمَا أوتيتَ مِنْ أجرٍ عَلَى الـما

ضِـي وطـب نفسًــا بسعــدِ الآتــي

* * *

هذه قصيدةٌ تُمثِّلُ حياة شاعــرٍ بائسة ، ولكنَّه لم يسِر علــى صــوَر ألوان الشِّعر التَّقليديِّ ، في هذه الفترة المظلمة الَّتي ولع شعراؤها بألفاظٍ جوفــاء جُلُّ محاولاتهم الشِّعريَّة : طنينُ كلماتٍ ضخمةٍ كما يطنُّ الطَّبلُ ، وهـــو خــالٍ أجوفُ على الأُسلوب التَّقليديِّ ، فيبكي الأطلال ويتغزّل في حبيبــاتٍ خيالياتٍ وهميَّاتٍ مِنْ حــروفٍ من ظلال التَّاريــخ القديــم الَّتي ترتبــطُ بواقــعِ تلــك الشَّريحة ، وتعكسُ حياتهــم كمرآةٍ ينطبعُ عليهــا وجه التَّاريخ ولا تمثِّل حيــاة قائليهــا ...! بيد أنَّها بعيــدةٌ كلَّ البعــد ، ولا ارتبــاط لها بدنياهــم كالحيــاة التَّشبيبيَّة التَّقليديَّة ، بهند ، وليلــى ، علــى منهجيَّــة الشِّعـــر الجــاهليِّ ، أو

العصر الإسلامـــيّ ، أو العصـــر الأمويّ ؛ فشاعرُنـــا الخطّـــيُّ رفـض هـــذه الأساليـــب ، وانبثقت من مرآةِ نفســهِ ألــوانٌ يستمدُّهـــا ، من آفـــاقِ طبيعـــةِ بلادهِ .. لولا بعض المآخذ والنَّقدات الَّتي آخذناه عليها ، في هذه الدِّراسة !

فهذه القصيدة تنبعُ من تجربة ومعاناة عاناها الشَّاعر من لـــونِ دنيـــا بائسةٍ مرَّةٍ ، وصوَّر فيها الطُّفولةَ البلهاء ، ومدارجها ، حينما يدرجُ كما تـــدرجُ أسرابُ الجيـــاد ، ومثَّل لهـــوهُ وطفولتـــهُ وطبيعـــة حياة بلادهِ ، وبعــــد هـــذا الدَّور ، عاد ليسكب معاناته وفقره ، في هذه القصيدة ، في نغمةٍ حزينةٍ : -

إنَّ القطيـــف وإن كلفـــتُ بـحبِّهـــا

وعلــت عَلَـــى استيطانِهـــا زفراتـِــي

إذ أين جُزتُ ، رأيتُ فيهـَــا مدرجِـــي

طفـــــلاً وأترابِـــي بهـَــا ولداتِـــي

هذه صورةٌ متحرّكةٌ ، يصوِّرُ الشَّاعرُ فيها ذكرياتهِ الغافية على شـــفةِ الأيَّام ، والمتَّكئة على جبين الماضي ، لعلَّهُ يوقظها فيتعلَّل بها ! ولكنَّها لا تعـــود لهُ ، فليس لديهِ إلاَّ الحسرات وما تجدي الحسرات ! كما جسَّد فيها حبَّهُ لوطنـــــهِ الَّذي عاد طيفًا وخيالاً كمرودِ نورٍ يُكحِّلُ بهِ أجفانهُ من أيَّامِ الطُّفولـــةِ ، ولعبـــها فأشباحُها تسيـــرُ أمام عينيـــهِ ، وتلاحقهُ أينمـــا اجتـــاز في ربـــوع القطيـــف ومدنها ... وهذا لونٌ من أساليبِ الشِّعر الَّذي عندما تقرؤه تحسبُ الخطِّيَّ مـــن الرَّعيل الجديد ، ويبعده عن الشُّعراء الَّذين تباكوا على الأطلال البالية وتغزَّلـــوا بهنـــدٍ وليلى ، وبالكثيبِ .. إلى غيرِ ذلك من الألفاظ الَّتي تغنَّـــى بـــها أولئـــك الشُّعراء - وهم شعراء النَّكسة الفكريَّة ، والفترة المظلمة - فالخطِّيُّ يرسمُ معالم لهوهِ ومرحهِ ولذَّاتهِ مع لِداتهِ ، فحيثُ ما اجتاز بالقطيف من مدنها وقراها ، يرى

هــذه الصُّورة مطبوعــةً فــي قلبــهِ ، وأطيافهــا تتحــرَّك وتســير بيـــن عينيه ، ومرســومة على أُفق حياته !

ويعدُّ هذا الشِّعر ، في هذه الفترة ، وهذا الأُسلوب تمرُّدًا على الشِّــعر التَّقليــديِّ ، وانفلاتًا من قيــوده إلى أُفقٍ جديدٍ ، يرسم منــاظر حيــاة يعيشــها الشَّاعــر ... وهذه مفخــرة نسجِّلهــا للخطِّيِّ ، لولا بعــض المآخـــذ الَّتـي أشرنا إليها ...!

وفي هــذه القصيــدة - بالذَّات - عندمــا تقرؤها ، وتسيــرُ فــي جوِّها ، تلاحظ بعض الهنات ، كبيتهِ الَّذي عبَّر فيهِ بقولهِ :

وبما أطيـحُ هنـاك من شعــرِ أمــرئٍ

وبـمــا أريــقُ هنــاك من دمِ شــاةِ

فإنَّ التَّراكيب - في هذا البيت - غيرُ موفَّقةٍ ، والأُسلوب الشِّــعريُّ ضعيــفٌ ، ومعناهُ سخيفٌ فالشَّاعر لم يوفَّق في بعــض الأبيــات ، فــي هــذه القصيدة .

ونأخــذُ عليهِ ناحيــةً أُخرى : الأُسلوب النَّفســيَّ ؛ حيــثُ تَوَاضَــعَ الشَّاعر ، وصاغ قصيدةً من أجلِ عمامةٍ ، ولو ترفَّع عن ذكرها ، لكان أسمى بهِ مقامًا .

وأكتفي بهذه اللَّمحة الدِّراسيَّة ، عن شاعرنا الخطِّيِّ .

الشَّاعر / أحمد بن مهديٍّ بن أحمد بن محمَّد بن الشَّيخ نصر الله بن ابن أبي القاسم ابن عزِّ الدِّين ابن ((أبو السُّعود))

إنّني أُريدُ أن أختتم هذه الصّفحات : المجلّد الأوّل ، من ((الشّعر ودوره في الحياة)) بدراسةٍ عن زعيمٍ وطنيٍ وشاعرٍ من زعماءِ القطيف الكلاسيكيين ، فهو أحدُ شعرائِها وشخصيّاتِها ؛ فأحمد المهديُّ ألمع سياسيٍّ لمع في تاريخ القطيف السّياسيِّ ... وقد لعب دوراً خطيرًا في حياة القطيف الوطنية ، ولم يقتصر على أُفق القطيف السّياسيِّ ، ومحيط أرض وطنه ، بل حلّق بجناحين ، إلى أُفق ((الكويت)) و ((البحرين)) !

ونستطيع أن نقول - بعبارة مختصرة : مدَّ جناحيه على أُفق الخليج واتّصل بحكومة الأتراك العثمانيَّة بالبصرة والآستانة - عاصمة الأتراك - ويعضّد هذا الرّأي التّاريخيَّ الوثائق المتبادلة ، بينه وبين حكّام الكويت ، وحكام أوال المعروفة بالبحرين - اليوم - كما له دورٌ سياسيٌّ مشهور ؛ حيث قام بحركةٍ ، عندما استشرى الخلاف بين الأميرين الأخوين : عبد الله ، وسعود ابني فيصل آل سعود ، أيّام الدّولة السّعوديَّة الثّانية .

وهو يعدُّ من المخلصين للأمير عبد الله ، فانحاز له ، وعندما تغلّب سعود على عبد الله ، سجنه في الرّياض ، فصادر أملاكه .

وقد روى لي أحد أحفاده : الأديب الشّيخ منصور حسن نصر الله : أنَّ إطلاقه من السّجن بسبب تدخُّل أميرة من الأسرة الحاكمة ، للوثائق الّتي تربطهم بأبيه مهديٍّ ، وللعلائق الوثيقة الّتي تمتدُّ في جذور التّاريخ ، فتشفّعت له لدى الأمير : سعود ، فأطلق سراحه من السّجن ، وذهب عن طريق قطر إلى البصرة ، وجاء بسريَّة عسكريَّة ، على متنِ سفنٍ حربيةٍ تركيَّة ، فاحتلّت

القطيف ، والأحساء ، وصيَّرتهُ حاكمًا برتبةِ « **قائم مقام** » فاستردَّ أملاكهُ الَّتـــي صودرت منهُ .

ولد أحمد بن مهديٍّ ، في القلعة – حاضرة القطيف يوم ذاك – وتربَّى فـــي حجـــر والده أحد زعمـــاء القطيـــف السِّياسيِّين : مهديٍّ بن محمَّد نصـــر الله ، وتربَّى في هذا الأُفق ، وفتح أجفانهُ في حياةٍ خصيبةُ الزَّعامة الَّتي تُديرُ في عصرها مقاليد القطيف ، أو بعض عواملها السِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة .

ولكنَّنا لـــم نعثر على أخبارٍ عن تاريخِ ميلادهِ كتاريخٍ موثَّقٍ يُعتمـــدُ عليهِ ؛ غير أنَّ بعض الرِّوايات غير الموثَّقة تروي ميلادهُ في عام ١٢٤٨هـــــ ولم تنبئْنا عن نشأتهِ وتطوُّرها ، وحياتهِ التَّعليميَّة ، في الكتاتيب وفي أيِّ عامٍ من سنِّهِ وضع في الكتاتيب ، بصفتهِ ابن زعيمٍ ؛ غير أنَّ الرَّجل فرض نفســـهُ بمـــا تحلَّى به من زعامةٍ خصبةٍ ، عبقت كما تعبقُ الـــورودُ بـــالعطور ، وأزهـــرت ونمت كما ينمو الغصن الوريق في الرَّوضةِ الغنَّاء ، ومن فكرٍ أدبيٍّ كـــوَّن لـــه مجموعةً شعريَّةً تتألَّف من أربعةِ مجلَّدات لعلَّها تبلغ ثماني مائة صفحة ، مـــن القطع المتوسَّط ، ويؤسفنا كلَّ الأسف : أن ولد هذا الشِّـــعرُ فـــي تلـــك الفـــترة الانتكاسيـــة الفكريَّة الَّتي لـــم يتفلَّت من ضبـــابِ سمائِهـــا ، وقيـــودِ بديـــعِ ألفاظها ، وطباقها ، والسَّيـــر على مدرج الشِّعر التَّقليـــديِّ ، كالتَّبـــاكي علـــى الأطلال والتَّغنِّي بهوى هندٍ وليلى ، وهو لم يشرب من كأسِ أوصافِ هنـــدٍ ولا ليلى رشفةً واحدةً ، ولا يعرفُ تلك الأطلال في أيِّ بيئةٍ تقعُ بالتَّحديد !

فـــشـــعـــرهُ لا يـــصـــوِّرُ دنيـــــاهُ ، ولا يمثِّـــــلُ بيئتـــــهُ ذات النَّخيـــل ، والأشجارِ ، والعيونِ ، ولا يستمدُّ من صورَ طبيعتها الخلاَّبة ؛ فكأنَّما هو شعرٌ صحراويٌّ قُطع من الصَّحراء الجافَّة الَّتي لا ماء فيها ولا كلأ ، فشعرهُ شعـــرٌ تقليـــديٌّ لا يمـــتُّ بنســـبٍ أو سبـــبٍ لحياتـــــهِ الحضاريَّـــة المترفـــة النَّاعمة : دنيا القصـــورِ والجواري والعبيد .. ويعيشُ بين النَّخيلِ في روضـــاتٍ

غنَّاء وعيونٍ ثرَّة ، وضفافِ بحرٍ توحي أمواجهُ بأسرارٍ وأسرار ، للخالق العظيم مصوِّر هذا الكون .

فعندما تقرؤه في قصيدةٍ من قصائدهِ الطِّوال ، فكأنَّما تقــرأُ شــاعرًا جاهليًّا يعيشُ في كبدِ الصَّحراء ، تحت ضوءِ شمسهــــا الملتهبــة ، ورمالــها الذَّهبيَّة السَّاخنة ، وهو على ظهرِ ناقةٍ يقطعُ بها الفيافي ، ويسيرُ في اللَّيلِ علــى ضوءِ النُّجومِ والقمر ؛ فكأنَّ قصائده قطعٌ جامدةٌ ، لا حراك بــــها ، أو صــورة تقليديَّة مُسخت من إحــدى المعلَّقات الَّتي عارضهــا ... فشعــرهُ يمثِّل الفــترة الانتكاسيَّة ، بكــلِّ معناها – إن كان لهــا معنًــــى – وكأنَّهُ لــم يكن ذلك الحاكم الَّذي يملكُ عوامــل السَّلــبِ والإيجاب ، والبســـاتين المزهـــرة ، والعيــون المتدفِّقة ، والجواري المتفنِّنة !

ولكــن إذ نُعنــى بهِ إنَّما نُعنــى بتراثٍ مـــن تـــراثِ الوطـــن الحبيــب ، ونخصُّهُ بهــذه الدِّراســة المقتضبــة ؛ لأنَّــهُ فكـــرٌ مــن أدبنــا التُّراثيِّ ، يمثِّلُ حقبــةً من حقــب التَّاريخ ، ودنيا زعامـــة ، لها شــوطٌ تــألُّقيٌّ في سماء القطيف ، فالعواملُ الوطنيَّة تفرضُ علينا العناية به ، وإعطاءه بســطةً تاريخيَّةً ، ليكون درسًا للأجيال ، فهو أحدُ لُبنِ أمجاد القطيف ، ويؤسفني أنَّ هذا الشَّاعــر – فيما أعلم – لم يُعــنَ بــهِ باحــثٌ أو كاتــبٌ ، حتَّـــى مـــن ذوي أُسرتهِ ، حتَّى كتابةِ هذه الحروف ! ولم تمتدَّ يدُ غنيٍّ لكسرِ القمقـــم عــن هــذا الدِّيوان ، وإخراجه إلى النُّــور ، أو يــراعٌ مِنْ كفٍّ ، فتكتب ولو لمحـــةً مــن حرف ، عن حياةِ هذا الزَّعيم ، وما فيها من أجواءٍ .. من فكــرٍ أدبــيٍّ ، ومــا تضبَّب فيها من أحداثٍ سياسيَّـــة ، بتلك الفتــرة ، ولا تعرَّض لهُ ناقـــدٌ مــن النُّقَّاد ؛ حيثُ النَّقد حركة فكريَّة ، والنَّقدُ حياةٌ ... وعدم النَّقدِ سكونٌ ، والسُّــكونُ موت !

فالشَّاعر عندما ينتهي من هذه الحياة ، ويطبعُ بأصابعهِ على جبهـــة التَّاريخ ، وتتدلَّى أغصانهُ بثمرها – بما فيها من حلوٍ ومرٍّ – فهنا يجــب علــى

الأُدباء والنُّقّاد – ولا سيما أدباءِ مواطنيه – أن يقطفوا ما تركته شجرة الحياة من ثمــرِ هذه الأغصان ، فالتَّاريخُ أمانةٌ في أعناق المفكِّريــن ، وهــي مســؤوليَّة تاريخيَّة ، يجب علينا درسها والمحافظة عليها ، وإبرازها للأجيال ، وأن يُــزال عنها ضباب التَّاريخ ، لتظهر للعيون صافية مجلوَّةً .

وكانــت وفاتــه فــي عــام : ستَّة بعــد ثــلاث المائــة والألــف الهجريَّة ... وهذه لمحةٌ مقتضبة عن حياةِ هذا الزَّعيم !

وعندمـــا يكشـــفُ لـــــي المستقبـــل عـــن معلومـــات تاريخيَّــة ، سأُضيفها ، وأورد له هنا أبياتًا من قصيدة يهنِّئ بها بعض أشــراف القطيف ، لــم يحمــل الدِّيوان اسم الممدوح ، وعلـــى الطريقــة القديمــة التَّقليديَّة ، افتتحها الشَّاعر بالنَّسيب ، ليتخلَّص منه إلى المديح : –

أمن بثينــةِ هــذا الطَّائــفُ العجــلُ ؟
حيِّيتَ ياطيف ! مَن لــم يحيِــه الوئـلُ

كنَّا نحيِّي الصَّبــا ، لــمَّا تمرُّ بنَــا
من دارها ، وبهَــا مــن ردعهــا بــللُ

كم ليلــةٍ جلَّــت الــزَّوراء غُرَّتهــا
لنا ! وأشرق فيهــا الأُنــسُ والجــدلُ

وغنَّتِ الوُرْقُ فِي الأفنــانِ صادحــةً
والجدُّ يأخــذُ مَــنْ أطرافــهِ الـهــزلُ

راقت ، فلَمْ يجزنا ، عن بثنــةٍ ، رغــدٌ
منها ، ولم يغونــا عــن جهلها عــذلُ

كلاَّ ! ونحــنُ وإن شطَّــت وإن نَزَحَــتْ
رهنَ الهوى وإن الْتاطتْ بنــا العــللُ

كنَّا نحيِّي نفـوسِ الوجـــدِ وصلتُهـــا

والـــدَّارُ نازحـــةٌ والنَّـــأيُ مشتمـــلُ

حتَّى دنونا من الفيحـا ، عَلَـى قـــربٍ

منَّا ، وأطمعنـــا فـي تربهـَــا الأمـــلُ

في كهفِ سيِّدِ ســـاداتٍ ، إذا رُفعـتْ

لـــهُ الأمانـــيُّ حيَّاهـَــا بـمَا تَسَـــلُ

هذا نمـــوذجٌ من شعرِ للزَّعيـم والشَّاعـر : أحمد بن مهديٌّ نصـــر الله ... والقارئُ يلمـسُ من خلالِ ظـــلالِ ألفاظ كلمـــاتِ هـــذه القطعـــة الَّتـــي اقتطعناها ، من القصيدة المشار إليها ، وأثبتنا في الدِّراسةِ عنهُ : أنَّهُ لـــم يمثِّــل حياتهُ ودنياهُ الخصبة ، وحركتهُ وسكونهُ ، من تاريخِ أيَّامهِ ولياليهِ ... إنَّما كانت حياةٌ تقليديَّة تحتاجُ إلى قاموسٍ لغويٍّ ، يواكبُ هذه القصائد ...! ولا أثـــرِ بعـــد عين ! وأتركُ الرَّأيَ للقرَّاءِ .

" لـمسات "

... وضعت اللّمسـات الأخيـرة على الجزء الأوّل يـوم السَّبت : الحادي عشـر من شوّال ، عـام واحـد وعشـرين بعـد الأربعمائة والألف هجريٍّ ، الموافق السادس من يناير ، عام واحد بعد الألفين الميلاديٍّ .

جدول بأسماء المراجع

مختارات شعريَّة ـ شاعر وقصيدة ، العماد مصطفى طلاس .

*****

ديوان طرفه بن العبد ـ طباعة الشَّركة اللُّبنانيَّة للكتاب والطِّباعة ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان الخنساء ـ طباعة دار كرم للطِّباعة والنَّشر ـ دمشق .

*****

ديوان عمر ابن أبي ربيعة ـ مطبعة السَّعادة بمصر ـ القاهرة .

*****

ديوان الفرزدق ـ طباعة دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان أبي نواس ـ طباعة دار الكتاب العربيِّ ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان أبي فراس ـ طباعة دار صادر للطِّباعة والنَّشر ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان الشَّريف الرَّضيِّ ـ منشورات مؤسَّسة الأعلميِّ للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان صفيِّ الدِّين الحلِّيِّ ـ طباعة دار صادر للطِّباعة والنَّشر ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان ابن معتوق الموسويِّ ـ طباعة المطبعة الأدبيَّة ـ بيروت ـ لبنان .

*****

ديوان الشيخ جعفر الخطّيّ - طباعة مطبعة الحيدريّ - طهران - إيران .

* * * * *

جواهر الأدب - تأليف أحمد الهاشميّ - بيروت - لبنان .

* * * * *

ديوان مصطفى جمال - طباعة دار المؤرّخ العربيّ - بيروت - لبنان .

* * * * *

كتاب الغدير - للعلاّمة الأمينيّ .

* * * * *

تاريخ التّمدُّن الإسلاميّ - تأليف / جورج زيدان .

* * * * *


الفهرس

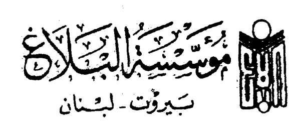
الشعر ودوره في الحياة

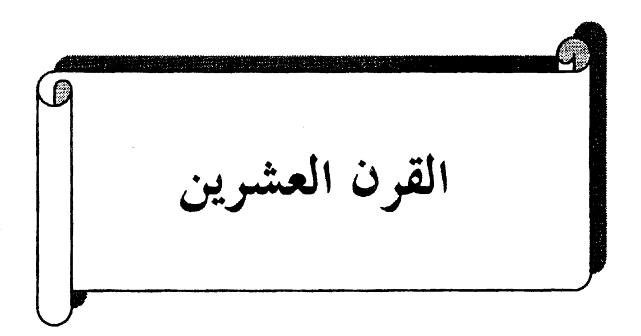
الجزء الثاني

رومانسيون

(نقد ودراسة)

محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي





القرن العشرين

إنَّ أطرُوحتي هذهِ الَّتي أدرتُها على حروفِ أجيالٍ ، لوَّنتــها الحيــاةُ بأحداثِها ، ومرَّت عليها لهذا الكوكــب دوراتٌ ودوراتٌ زمنيـــة فِـيْ أعمــاقِ التَّاريخ السَّحيق ، وهيَ لا تزالُ تُعاصرُنا وتعيشُ فِيْ حياتِنا ، وتتنسَّمُ فِيْ جوِّنــا معنَا الهواء ، فالحرفُ لهُ سرٌّ دقيقٌ .. يخفى علينا جوهرهُ المغلَّف وراء كلماتــهِ الخضراء ، ولا يعرفُ سرها إلاَّ خالقُ الحرفِ : خالقُنا (**الَّذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان مَا لَمْ يعلم**) .

إنَّ نعمةَ القلمِ علَى البشريةِ : مِنْ أعظمِ النعم الَّتي تفضَّل بها فـــاطرُ السَّماواتِ والأرضِ ، فمنحها الإنسان نعمة تفضلٍ مِنْهُ – **فلولا القلمُ** – لضاعت خاطراتُنا وأفكارُنا ، وتاريخُنا الماضي والحاضر ، وتبدَّد كما تُبدِّدُ **الرِّيحُ الهوجاء** الأوراق فِيْ صحراءٍ رمليةٍ مديدةٍ ، فالقلمُ كان لهُ الدورُ ، والشُّوط المتألق فِــيْ تصويرِ الأفكار ، ووضع الأُطروحات الدراسية والنَّقديـــة ، وتدويـن **الأفكـــار** العلمية فِيْ جوهرِها ومعناها الدَّقيق .

وامتــدت أفضـــال هذا القلم ، تتصــلُ وتتسلســـلُ أضوائُـــها فِـــيْ العصــــورِ - **عصرٍ بعد عصر** - ومِنْ أضوائــهِ الَّتي أضـــــاءت لــي **متــون** التَّاريخ ، لأسيــر فِيْ روافــدهِ التَّاريخيَّــة منْذُ صفحــــاتِ تــاريخ **العصــر** الجاهلي .. فالعصور المتسلسلة ، وأقفُ على قمَّـــةِ القــرن العشــرين { **قـرن المعجزات الحديثة** } الَّذي تطوَّرت فيهِ الحياةُ ، وتغيَّرت مفاهيمُها ، حيثُ ولد فيهِ إبداعٌ غريبٌ .. كالكهرباء ، والهاتف ، وشبكة الإنترنت والكمبيوتر ، والتلفـــزة والمذيـــاع : هيَ مِنْ منجزات هذا العصـــر ، وأمثالِها الَّتي اســتُحدِثت بفضــلِ العقلِ ، الَّذي هُوَ أكبرُ هبةٍ مِنْ خالقِنا – وبرغمِ هذا التَّطور – لَـــمْ يغننـــا عَــنْ الحرفِ .. بلْ زادنا هذا التَّطور افتقارٌ ، وظمأٌ صارخٌ لرشفاتٍ مِنْ ضوءِ هـــذا

الحرف ، ومازلنا فِيْ جوعٍ لالتهامه على اختـلافِ طبقات البشرية ، وسـباقها فِيْ مضمـارِ الحياةِ الفكريةِ والعلميةِ والأدبيةِ ، فالحرفُ مفـاتيحُ فاتحـةٍ للغـةِ الحياةِ العلمية .

ومادام الحـرفُ لهُ هذا المفهومُ الخطيرُ ، والكنزُ الَّذي لا يُسـتغنى عَنْهُ ، فإنَّنـي سأُديـرُ حـرف أُطروحتـي على جـزءٍ مِـنْ فكـرِ القـرنِ **العشرين** ، المتمثِّل فِيْ شريحةٍ مِنْ شعرائهِ ، بدون أنْ أُحدد التَّيَّـارات الفكريـة **النَّابعـة** مِنْ الرُّومانسيَّة .. أو المحدثة .. أو الكلاسيكيَّة العمودية .. فإنَّ الفكـرِ أو المدرسةِ الأدبية فِيْ هذا القرن (**أعني به القرن العشرين**) كان لها آفاقٌ مِـنْ الشِّعْـر ، تلوَّنتْ بألوانٍ مِنْ الصورِ ، وانصبغـت بأفكـارٍ مختلفـة المنبـعِ والتَّيَّارات ، فمنْها قبساتٌ أشرقتْ مِنْ سماءِ مدرسة أبوللو ، ونبتةٌ تلوَّنت علـى صعيدِ مدرسة الدِّيـوان ، وكواكبٌ سطعتْ مِنْ آفاقِ المهجر ، وبُرعمًا تـبرعم مِنْ سماءِ العراق ، وذرُ وردٍ تفتَّح فِيْ سماءِ الكنانة ، وسلةُ ريحانٍ عبقتْ مِـنْ سماءِ بيروت ، وشميمُ عرارٍ تضوَّع مِنْ سماءِ الجزيرة ، وألوانُ صـورٍ مِـنْ نجومٍ لَمْ تنتمـي لأفقٍ مِنْ الآفاقِ ، غيرَ أنَّ كُلَّ هذه الشَّـريحة قبسـاتُ أفكـارٍ تضيءُ فِيْ عتمةِ الحيـاة ، وولدت مِنْ سمـاءِ عبقـرٍ ، ومِنْ هـذهِ الأضـواء تولَّد أسلوبُ فنٌ جديـد : وهُـوَ أسلوب القصةِ ، الَّتي تبلورت فِيْ هذا العصـر فِيْ عنصرِ الشِّعْرِ والنثرِ ، وإنْ كان قَدْ غُرسـت نواتُها فِـيْ مطلـعِ العصـرِ الجاهلي والأموي ، غيرَ أنَّه لَمْ تكتمل عناصرُها الفنية ، وتنمو وتتفـرعُ كمـا تتفرع السِّنديانة ، وتتطـوَّر كمـا تطـوَّرتْ وتجـددتْ فِـيْ أيـامِ القـرن العشرين ، وتُصبحُ حياةً فكريةً لها طابعُها وأسلوبُها الأدبـي ، الَّـذي يفردُهـا ويميِّزُها بعواملها الفكرية عند النُّقادِ والأدباءِ .

وهذا اللونُ مِنْ الأدبِ تعشقهُ شريحةٌ مِنْ القراء ، ويعكفـون علـى قراءتهِ ، ولاسيَّما إذا كانتْ القصة لها أهدافٌ بعيدةُ الرَّمزِ والإشارة ، وارتبطـتْ أحداثُها بدنيا غرامية .. أوْ قضايا اجتماعيَّة .. أو عوامل سياسيَّة ، وتسلسـلتْ

تلك المناظر فِيْ أسلوبٍ شيقٍ رفيع المستوى ، يُجسّدُ عناصرُ الأهـــداف الَّتـــي تُعالجُها تلك القصةُ الشِّعريةِ أو النثريةِ ، وكان لهذا اللون دورٌ لَمْ يعنى بهِ مفكرو القدماء ، أو لعلَّها لَمْ تهتدي لتسميتِهِ بهذا الاسم ، وتعرفهُ بهذا اللون ؛ وإنْ كـــان الفضلُ لها .. فهيَ الغارسُ الأوَّل : سواء كان هذا الغرسُ جاء بعفـــوِ الطَّبيعـــةِ بدونِ قصدٍ ، أو بقصدٍ من تِلْكَ الشُّعراء ، وإنْ تباينتْ الحياةُ ، واختلف العصـــرُ فِيْ أسلوبِ الحياةِ والتَّطوّر فِيْ القرن العشرين ، فقَدْ اكتمل أسلوبُ القصـــة فِـــيْ عصرِنا ، حيثُ تجسَّدت العناصر الفنية كتعيين المكانِ ، وتحديد الزَّمن وأبطـــال القصة ، والموضوع والهدف الَّذي تُعالجهُ هذه القصة ، فـــإذا اجتمعـــتْ هـــذه العناصر فِيْ أُسلوبٍ شعريٍ أو نثريٍ ، نُسميها قصةً فنيةً مكتملةِ العناصرِ فِـــيْ لمساتِها الفنيةِ الحسيةِ ، فالقصةُ الأدبيةُ فِيْ عصرِنا اليوم تشغلُ حـــيِّزًا مســـاحيًا للفكر العصري ، وعالجت أمراضًا نفسيَّة واجتماعيَّة .. إذا كانتْ القصةُ هادفـــةً إلى هدفٍ شريفٍ ، فالقصة أثرت الحياة الأدبية بعناصرها الخصبة ، وصورهـــا الرائعة : لما تهدفُ لهُ مِنْ روافدٍ فكريةٍ وذاتيةٍ ، تشدُّ القراء لاستيعابِها عندمـــا يبدأ القارئ مِنْ فاتحةِ القصة .. مِنْ ألفها إلى يائِها ، تشدُّهُ مضـــامينٌ تســـتهويهِ وتُرغمـــهُ على إكمالِ تلك القصة ، فكان لها الأســـلوب المتطـــوِّر .. والأثـــر الملموس ، الَّذي أخذ شريحةً مِنْ الدَّارسين والنُّقاد .

وأنا هنا : سأقصرُ أُطروحتي على مفكري القـــرن العشـــرين مِـــنْ الشُّعراءِ ، لأنَّ هذه الأطروحة ستعنى ببعض المفكرين ممن ولدوا فِيْ هذا القرن مِنْ أبناءِ الضَّاد ، ولكنَّها ستعطي الحصة الضخمة لمفكـــري المملكـــة العربيـــة السُّعودية ، وذلك لعوامل زمنيَّة وتاريخيَّة .. لا لعوامل بيئيَّة تحيزية تدخلني فِيْ أفقٍ ضيقٍ منغلقٍ ، فأنا لا أؤمن بالفكر الانغلاقي وأدعو للانفتاح الفكري ، غـــيرَ أنَّ مفكري المملكةلَمْ يعطوا اهتمامًا دراسيًا مِنْ إخوانِهم الأُدباء مِنْ الشـــقيقات العربيات بالعناية والدراسات الَّتي خصَّصوها للأُدباء الآخرين ، وأذكـــرُ هـــهنا كلمة إنصافٍ للمرحومة الدُّكتورة / بنت الشاطئ .. حيـــن قـــالتْ فِـــيْ مقالِـــها

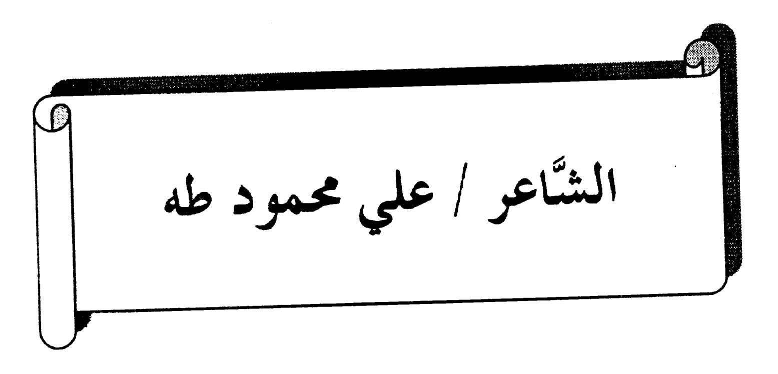
المنشور فِيْ أرض المعجزات ما مضمونه : { **كمْ خجلــتُ وأنـا أرى كُتبنَـا فِيْ أيديهم ونحنُ نجهل آثارهم** } .

فلهذه العوامل : أردتُ أنْ تتكمشُ ظلال هذه الأطروحة ، فلا تمتـــدُ امتدادًا شاملاً لجميع مفكري الضّاد ، ولا تقتصر أُطرُوحتي بالشِّعْر ، فقَدْ تمـــرُ هذه الأُطروحة ببعض المفكرين مِنْ الكُتّاب .. برغمِ انحصارِها فِيْ الأســـاليب الشِّعرية ، ودورها فِيْ الحياةِ الَّتي ولدت مِنْ سماءِ هذا العصر .

فأكتفـــي بهذه اللَّمحة التَّعريفيَّة لتصوير الفكـــرة ، الَّتـــي سأرســـمها لمفكرينا ، ومِنْهَا أسير إلى أفق أوَّل شاعرٍ ، وقَدْ اخترتُ مِنْ كُلِّ قُطْــرٍ عربـــيٍ شاعــرًا ، وأفسحُ صعيدَ هذهِ الأُطروحة لمفكـــري المملكـــة ، للتعليـــل الَّـــذي أوضحتهُ .. راجيًا مِنْ الله المدد والتوفيق .

٢٦/١١/١٤١٩هـ

١٤/٠٣/١٩٩٩م


الشّاعر / علي محمود طه

وُلد بمدينة المنصورة { إحدى محافظات مصر } عام ١٩٠٢م وأُدخِل الكُتَّاب ، وألتحقَ بالمدارس وتخرَّج مهندسًا ، إلاَّ أنَّ فطرتهُ الشِّعرية حطمت الفرجال والمثلث والمنقلة .

إنَّ هذا الاسم : أحد الرُموز الَّتي لمعتْ فِيْ أوائل القرن العشرين ، وتألقت نجمةً بيضاء تُنير فِيْ الصُحفِ والكتبِ ، وقَدْ عنيت بهذه الشَّخصية النُّقادُ والأدباءُ ، واحتلتْ قمَّة مِنْ القمم تطلُّ مِنْ علٍ فِيْ هالةِ مجدٍ ، كدائرةِ ضوءٍ تغمرُ هذه الشَّخصية .. تشربُ من كؤوسِها ، وعاشت على صعيدهِ تطوّقها حروف خضراء ، وتنثرُ عليها فواصلاً ضوئيَّة مِنْ ألوانٍ مِنْ مفكري مختلفِ الذّوق فِيْ أهدافِهم الأدبية ، ولكنَّهم التقوا فِيْ نقطةٍ واحدةٍ هيَ : الإشادة بهذه الشَّاعرية الخصبة ، الَّتي فرشتْ طريق الضَّادِ بألوانٍ مِنْ الورودِ ، ونجومًا مِنْ الضَّوءِ ، تصحبُها فِيْ حياتِها وبعد مماتِها ، فأُسلوبُها المترف الناعم ، الَّذي كهمسات النَّسيم فِيْ أُذنِ الياسمين ، أو كأضواءِ الفجرِ وهُوَ يحبو على أجيادِ الورد والريحان ، ولقَدْ لمسَ الشَّاعر هذا المجد ، وعاش بين هذه الأقلام ، وتذوّق طعم هذا التقدير ، وهُوَ حيٌّ يعيشُ رئيسًا للمكتبةِ المصريةِ .. كما قرأتُ فِيْ بعض الصُحف ، وتقلَّد عدة مناصب رسمية للدولة ، وفي أواخرُ حياتهِ كان مديرًا لمكتب رئيس مجلس النُّواب بمصر ، ولَمْ يزل بعد موته يحفلُ به الأدباءُ ، وتُعدُّ فيهِ الدراسات ، وقَدْ شغل جميع أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئيَّة ، فقَدْ أُذيعت عَنْهُ عدة حلقات دراسيَّة مِنْ القاهرة ، ومِنْ إذاعة المملكة المتحدة { بريطانيا } الـ B.B.C ، وقَدْ غرب عَنْ الحياة فِيْ عام ١٩٤٩م ، فكان لغروبهِ صدمةٌ للشِّعْر .. حيث فقدت دوحتهُ هزارها الصداح ،وقَدْ أبَّنتُهُ بقصيدةٍ نُشرت فِيْ مجلةِ الكتاب المصرية

بعد غروبهِ بأيَّام ، وطُبعتْ فِيْ ديوانِ ((كانوا على الدرب)) منشورات مطبعة مؤسسة البلاغ .. لبنان – بيروت – الطَّبعة الأُولى (١٤١٦هـ – ١٩٩٥م) مطلعُها : –

خر عن وكره مهيض الجناح

شاعر الزهر والصبا والملاح

وترك ثروةً مِنْ الفكرِ فِيْ أثارٍ لهُ (الملاَّح التائه - ليالي الملاَّح التائه - أرواح شاردة - أرواح وأشباح - زهر وخمر - شرق وغرب - الشوق العائد - أغنيات الرياح الأربع) كما أجاد اللُّغة الإنجليزية والفرنسية ، فأعانتاه على الاقتباس مِنْ الأدب الإنجليزي والفرنسي ، وترجم بعض القصائد والقصص إلى اللُّغة العربية " كبحيرة لامرتين " .

ونُوردُ لهُ هُنا قصيدةً بعنوان { حديث قبلة } مِنْ ديوان زهرٍ وخمر - طُبعَ بشركة فن الطِّباعة بالقاهرة - ونحللُها بالنقض والدرس : –

تسائلني حلوةُ المبسمِ :

متَى أنتَ قبَّلْتَني في فمي ؟

تحدَّثْتَ عَنِّي وعن قُبلةٍ

فيا لكَ من كاذبٍ مُلْهَمِ !

فقلتُ أعابثُها : بل نسيتِ ،

وفي الثغرِ كانتْ وَفي المعصمِ

فإنْ تُنكريها فما حيلتي

وها هي ذي شعلةٌ في دمي

سَلِـــي شفتيـكِ بـمـا حَسَّتَـــاهُ

مـــن شَـفَـتـــيْ شاعــرٍ مُغــرمِ

أَلَـمْ تُغمِضـي عندهـــا ناظريــــك ؟

وبـالرَّاحتيــنِ ، أَلَـــم تَحتمـــي ؟

هَبِـــي أنَّهـــا نعمـــةٌ نِلْتُهــــا

ومــن غيــر قَصــدٍ . . فــلا تندمـــي !

فـإنْ شئـــتِ أرجعتُهـــا ثانيًــــا

مضاعفــــةً للفـــمِ المنعـــمِ

فقالـــتْ وغضَّـــتْ بأهدابهــــا :

إذا كــــان حقًـــا فلا تُحجـــمِ

سأغمـضُ عينـــيَّ كـــيْ لا أراكَ ،

ومـــا فـــي صنيعـكَ مــن مأثـــمِ

كأنَّـــكَ فـــي الحلـــم قَبَّلْتَنـــي . .

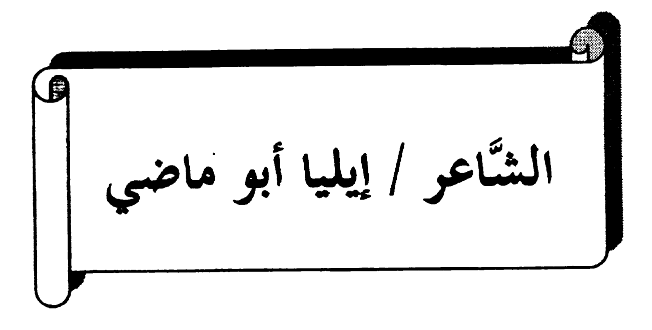
فقلـــتُ : وأفديـــكِ ، أن تَحْلُمـــي ! !

❁ ❁ ❁

هذه القصيدة .. أو اللَّوحة الفنية مِنْ السَّهل الممتنع ، فـــهيَ خفيفـــة الإيقاع .. بعيدة المعاني .. مشرقة الصور .. تتسلسلُ معانيها كموجٍ نــهرٍ فِـيْ أُسلوبٍ مشرقِ الديباجةِ .. مترفِ الألفاظِ .. فِيْ تحاورِ شـوقٍ ودلٍ ، وأُسـلوبِ تخاطبٍ بين حبيبين مِنْ لُغــةِ القلوبِ والعيون ، ولُغــةِ الحُـب الَّتـي لا يفــهمُ أسرارَها إلاَّ أولئك الَّذيـن احترقـوا فِيْ مجامرِ الحــب بخـوراً علــى مذبـحِ

الحب ، وكــان الشَّاعــرُ موفَّقًــا وبارعًــا ، حيــثُ ختــمَ حـــوارهُ بإشــارةٍ ضوئيَّةٍ ، ورموزٍ حسيَّةٍ تنبؤك بخاتمةِ هَذا الحوار .

تأمّل معــي هذه المشاهــد التَّحاوريَّة فِــــيْ علامـــاتِ اســتفهامٍ تساؤلية ، تُشعرك بإثارة تُنبِّهُ القلوبَ إلى هذه المشاهد ، حيثُ التساؤل التحاوري بدأ بحديثِ قبلةٍ، والقبلةُ تُشعلُ العواطف وتُلْهبُ وهج الشَّوقِ ، وكَان الردُّ مِـــنْ الحبيبة - الإنكار - حتَّى تُهيــج العواطف المشبوبة ، فتشتعلُ كـــالجمر الغـــافي وراء ضبابِ الرمادِ المتوهجِ فِيْ دمهِ ودمِها ، ويدللُ الشَّاعرُ عَلَى هَـــذا التَّدلـــل شاهدًا حيًّا فيه تساؤلُ لهْــفَةٍ ، وعَارمُ شوقٍ .. سَلي شفتيكِ بما حسَّتَاهُ مِنْ ســـرِّ الحــبِّ عندمـــا امتزجــتْ الشفتـــان بالقبـــلِ النَّاعمـــة ، وغابتا فِـــيْ ســكرةٍ شدائيةٍ ، كأنَّهما فِيْ عالمٍ غير هَذا العالم وراء اللامحسوس ، وكيـــف تخــدَّرت وأغمضت عينيهـــا متغابيةً فِيْ دلٍّ يزيدُ الغرام غرامًا وإغـــراءً !! لاحتمائِـــها بالكفَّين العاجيتين الصغيرتين ، والشَّاعــرُ يعــرفُ كيــف يُثيرُ مكـــامن قَلْـــبِ المرأةِ وعواطفِها بلُغــةٍ سحريــةٍ ، فِيْ لحــنٍ مُثيــرٍ ، فـــإذا كانـــت هـــذه النعمـــــة استرقتُها مِنْ غيــرِ قَصْــدٍ مِنْكِ .. فلاَ تندمي وسأُكرِّرُ هـــذه القُبـــل ثانيةً وثالثـــةً مِنْ فمٍ منعمٍ بهذه القُبـــلِ عليكِ ، فهُنا تتلمَّضُ الشَّـــهوةُ ، فيفـــرخُ روعُها ، وتُغْمِضُ عينيها فِيْ إشارةٍ ضوئيَّةٍ ، كالشَّفرةِ بالرِّضا لمـــا يـــأتي بـــهِ الحبيب .. فيغيبانِ فِيْ جوٍّ غرامي كأنَّهما فجـــرانِ يتراقصانِ فِـــيْ دُنيـــا حُلُـــمٍ معسولٍ ، فتحولَّتْ اليقظة الواقعية إلى أحلامٍ لذيذةٍ ، فكان ختـــامُ أخـــر مقطـــعِ نبراتِ حنانيةً فِيْ أُسلوبٍ يلجُ كضوءِ تيَّارٍ كهربائيٍ إلى قَلْـــبِ حبيبتـــــهِ بـــدون استئذان كما يقولون : (**فقلتُ وأفديكِ أنْ تَحْلُمي**) وهَذا التعبيرُ رائعٌ وممتعٌ .


الشّاعر / إيليا أبو ماضي

وُلد إيليا أبو ماضــي فِيْ المحيدثة بلبنان ، كما وجدتُهُ فِــيْ بلاغــةِ العرب فِيْ القرن العشرين ، جمع / محيي الدِّين رضـــا – مطبعــة الرَّحْمَانيــة بمصـــر – وجـــاء فِيْ صفحـــةِ ١٧٠ : ولـــد فِيْ المحيدثـــــة بلبنـــان ســنة ١٨٨٩م[1] ، وهاجـــر إلـــى مصـــر ســـنة ١٩٠٠م ، وهُنـــا تشعـــرُ بخطـــإٍ تاريخيٍ ، ولعلَّها سقطةٌ مطبعيةٌ أراد أنْ يقول تسعة وســـبعين بعـــد الثمانمائـــة والألف ، وهُوَ ميلاد أبو ماضـــي الواقعـــي ، إذْ لَيْسَ مِنْ المعقول أنْ يُـــهاجر إلى مصـــر ، وهُوَ أبـــن عام ، حيـــثُ أُرِّخـــت هجرتُـــهُ فِـــيْ بلاغةِ العـــرب بــــ ١٩٠٠م ، وفِيْ شاعرٍ وقصيدة إلى الأديب / مصطفى طـــلاس – صفحـــة ٦١٢ مجلد ٢ – أرَّخ هجرتهُ إلى الإسكندرية عام ١٩٠١م .

وبعد أنْ ألقى عَصا الترحال ، فتحَ لهُ حانوتًا يبيـــعُ فيـــهِ الســـجاير والدُّخان ، وأشتغل بالأدب .. وأنكبَّ علَى الكتب ، وهَذا التَّاريخُ يكونُ فيهِ أبـــو ماضي قَدْ بلغَ من العُمْرِ عامين أو ثلاثة ، وهَذا خطأٌ تاريخيٌ ، كما تؤيِّـــدُ مـــا ذهبنا إليهِ الدراسةُ المستفيضةُ الَّتي كتبها عَنْهُ زهير حمزة ، حيـــثُ جـــاء فِـــيْ دراســـتهِ فِيْ مقدمـــةِ مجموعـــة أشعار أبي ماضـــي ، الَّتـــي قدَّم لها ســـامي حداد – مطبعة دار العودة .. سنة ١٩٨٢ – أنَّهُ هَاجر إلى مصر وعمرهُ إحـــدى عشر سنةٍ ، فهذا دليلٌ تاريخيٍ يُثبتُ مَا ذهبنا إليهِ مِنْ غلطةٍ تاريخيَّةٍ فيمـــا دُوِّنَ عَنْهُ فِيْ بلاغةِ العرب ، ولعلَّها كانت خطأً مطبعيًا .. أوْ ســـهوةً يراعيـــةً مِـــنْ المؤلِّف ، كما نصَّتْ بلاغة العرب : أنَّـــهُ قرض الشِّعْر وهُوَ فِيْ الرابعة عشـــر مِنْ عمرهِ ، وقَدْ بـــدأ يمارس الشِّعْر فِيْ سماءِ الكنانةِ ، حيثُ منذُ حـــطَّ رحالـــهُ

---

[1] إذا قلنا بهذا التَّاريـــخ يكون عمره ٢١ عامًا حين هجرته ، ويكون ابن ١١ عامًا إذا قلنا أن مولده ١٨٨٩م ، وهجرته ١٩٠٠م إلى مصر .

علَى أرضِها أشتغل بالتِّجارة ، وفتحَ لهُ حانوتًا يبيعُ فيهِ السِّيجار والدُّخان ، واتصل بهِ الصَّحفيُ أنطوانُ جميل ، وتبنَّاهُ وشجَّعهُ ، ونشر آثارهُ فِيْ مجلةِ الزُّهور ، وبعد فترة ترحَّل إلى الولاياتِ المتحدة وعمرهُ قَدْ تجاوز التاسعة عشرة ، ففتح جفْنهُ على الدُّنيا الجديدة ، وتملَّى مِنْ أسطرِ كتابِ الحياة ، وتزوَّد مِنْ أفكارِ الشُّعراءِ والأدباءِ ، حتَّى أصبحَ شاعرًا مميَّزًا .. لهُ مدرسةٌ تُميِّزهُ بطابعهِ وأُسلوبهِ المتطوِّر مع تطورِ القرن العشرين ، فكان مِنْ ألمعِ شُعراء هذا القرن .

وتفلسف أبو ماضي فِيْ الحياة .. فقال شعرًا .. فهُوَ قمَّةٌ مِنْ قممِ الأدب ، وكنزٌ مِنْ كنوزِ الضَّاد ، غير أنَّ هناك عليهِ مآخذًا ، كبعضِ تشكيكاتهِ فِيْ الحياةِ وفِيْ الموتِ والبعث ، كما أُخذَ عليهِ بعض الهنات اللغويةِ والنحويةِ والعروضية فِيْ بعض أشعاره .

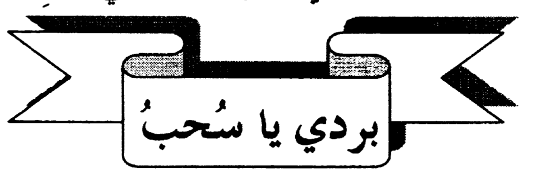
وتكفي هذه الإشارةُ المقتضبةُ لما أشرنا له مِنْ ظلالٍ ، مدَّت أجنحتهَا فِيْ شعرِ أبي ماضي ، وأشعارهُ شاهدةٌ علَى مَا ذهبنا إليهِ ، فمَنْ شاء فليرجع إلى ديوانهِ .. ففيه البرهان الواقعي ، وأبو ماضي لَمْ يقتصر على الشِّعْر بلْ كَان عنصرًا فعَّالاً فِيْ الرَّابطةِ القلميةِ ، ونجمًا لَمْ تطلع سماءُ الرَّابطة في أفقِها الشِّعْري مثله ، كما أصدرَ صحيفة فِيْ نيويورك بالولايات المتحدة ، وصدرها بهذين البيتين : ـ

أنا لا أهدي إليكم ورقًا
غيركم يرضى بحبر وورقْ

إنَّما أهدي إلى أرواحكم
فكرًا تبقى إذا الطرس أحترقْ

فكانت تلك الصَّحيفةُ تحملُ أفكار كوكبةٍ تتعكسُ عليها وتحفظُها ، كما تحفظ المرآةُ الأطياف مِنْ ثمارِ أقلام نجومِ الرَّابطةِ القلميةِ ، الَّتي أنشأها المهاجرون أو المغتربون { **جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة** ورفاقُهم } وكانت هذه الصَّحيفة ترسمُ أدبًا جديدًا متطوراً ، وتعبِّرُ عَنْ خلجاتٍ وعواطفًا ، لأنَّها تعكسُ صور فكرٍ مَا تنتجهُ هذه الرَّابطة ، كما ترك أبو ماضي آثاراً ، فأوَّل مجموعةٍ شعريةٍ أسماها تذكار الماضي ، طبعها فِيْ الإسكندرية بمصر بمساعدة أنطوانُ جميل ، وديوان أبو ماضي الجُزء الأوَّل طبعهُ فِيْ مصر ، والجزء الثَّاني فِيْ نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية ، وأصدر الجداول والخمائل بعد أنْ نضجت شاعريتهُ وتطوَّرتْ تواكبُ شمس القرن العشرين ، وكان صدورهما بالولايات المتحدة ، وقَدْ أحدثا صدًى عميقًا فِيْ دُنيا العرب ، فمِنْهُم **المقرض** ومنهم النَّاقد كالدُّكتور / طه حسين ، وأخيرًا مجموعةُ أشعارٍ **أسماها تبرًا** وتراب ، لعلَّها نُشرت بعد أنْ طُويت حياتهُ ، إذْ لَمْ يشر لها زهير **حمزة فِيْ** دراستهِ المستفيضة المصدرة بديوان أبو ماضي ، وتوفي إيليا **أبو ماضي** ١٩٥٧م .

ونُوردُ لهُ قصيدةً بعنوان (**بردي يا سُحبُ**) وهذه القصيدةَ برغم ما فيها من صورٍ شعريةٍ ، إلاَّ أنَّها تحملُ فكرةً متناقضةً بين **القسوةِ** والرأفة ، الحدبِ على البشر والصواعق الَّتي يتمنَّاها أنْ تنزلَ عليهِ ، ولأخيرًا يتمنَّى أنْ يكون هُوَ ذلك الحطب الَّذي يحترق رماداً فِيْ قَلْبِ العاصفةِ **العتيّة** : -



رَضِيَتْ نفسي بقسمَتِها

فليراودْ غيريَ الشُّهُبَا

كــلُّ نـجــمٍ لا اهتـــداءَ بـــهِ
لا أبـالــــي لاحَ أو غَـرُبَــــا
كــلُّ نهـــرٍ لا ارتـــواءَ بـــهِ
لا أبـالـــي ســـالَ أو نَـضَبَـــا
مـا غــدٌ ، يـا مَــنْ يصــورهُ
لـــيَ شيـئًــا رائعـــا عَـجِبَـــا
مــــا لـــهُ عيـــنٌ ولا أثـــرٌ
هـــو كالأمـــسِ الـــذي ذَهَـبَـــا
إسقنـــي الصهبـــاءَ إنْ حضـــرَتْ
ثــمَّ صِـفْ لــي الكــأس والـحَبَبَــا
ليــسَ يَروينـــي مقـــالَكَ لـــي
أنَّـهـــا العقيـــانُ منسكِبَـــا
إنَّ صـــدقًـــا لا أحـــسُّ بـــهِ
هـــو شـــيءٌ يشبـــهُ الكَذِبَـــا
لا ينـجـي الشـــاةَ مـــن سَغَـــبٍ
أنَّ فـــي أرضِ الـسُّهـــى عَـشَبَـــا
مـــا علـــى مَـــنْ لا يطيـــقُ يـرى
نـــورَّ الـــوادي أو اكـتـأبَـــا
مـــا يفيـــدُ الطيـــرَ فـــي قفـــصٍ
ضـــاقَ هـــذا الجـــوُّ أو رَحِبَـــا
بـرِّدي ، يا سحـبُ ، مـــن ظمـــأي
واهـطلـــي مـــن بعـــد ذا ذَهَـبَـــا

أو فكوني غيرَ راحمةٍ
حممًا حمراءَ لا سُحُبَا
ولأكنْ وحدي لها هدفًا
ولتكنْ نفسي لها حَطَبَا
أنا من قومٍ إذا حزنوا
وجدوا في حزنهمْ طَرَبَا
وإذا ما غايةٌ صَعُبَتْ
هوَّنوا بالتركِ ما صَعُبَا

۞ ۞ ۞

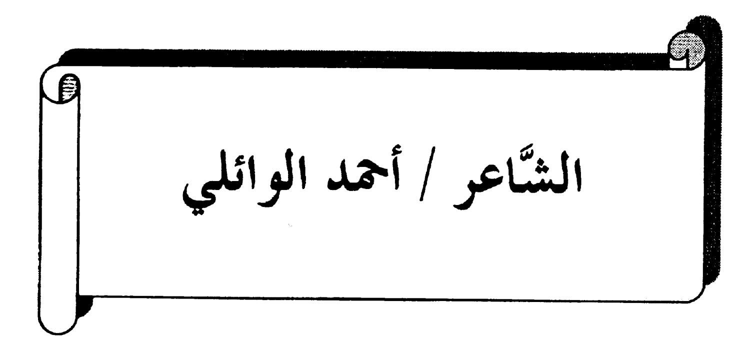
هذه لوحةٌ إبداعيةٌ فيها ألوانٌ مِنْ الفنِّ الشِّعْري ، وأُسلوبٌ رفيعٌ ، وخيالٌ مخصوصبٌ ، وتعبيرٌ فيهِ أداءٌ مِنْ السَّهلِ الممتنع .. غيرَ أنَّنا نأخذُ علَى الشَّاعر مَا خلقهُ مِنْ جوٍّ أناني صارخٍ ، يُباينُ طبيعة الشَّاعر .. حيثُ جَاء الشِّعْرُ كرسالةٍ تعطفُ على البشرية ، ونعيمًا يمدُّ ظلّهُ - لا جحيمًا ولهيبًا - يرسلُ حممهُ على الإنسان : -

كلُّ نجمٍ لا اهتداءَ بهِ
لا أبالي لاحَ أو غَرُبَا
كلُّ نهرٍ لا ارتواءَ بهِ
لا أبالي سالَ أو نَضَبَا

وهذه الفلسفة : قَدْ تنــبعُ مِنْ أشباحٍ وأفكارٍ ، تتولَّدُ فِيْ أفقِ الشَّــاعرِ مِنْ آراءٍ متضاربة ، فتكونُ فِيْ حروفهِ الشِّعرية مذاهبًا متناقضة ، أوْ تتولَّدُ مِــنْ حياةٍ غاضبةٍ على الإنسانيَّة ، لما يُلاقيهِ مِنْ كأداتٍ فِيْ مسيرةِ دربــهِ ، فتعبسُ حياتهُ .. فتنعكسُ صوراً فِيْ شعْرهِ ، فيعيشُ فِيْ ضبــابِ اليأسِ والشَّك ، فــأي نَجْمٍ لا يقبسُ مِنْ أشعتهِ ضوءاً يسيرُ عليهِ فِيْ مذلهمِ حياتهِ الخَاصــة ، فــهُوَ لا يُبالي بهِ أضاء .. أمْ غرب .. وإنْ أنار لغيرهِ ، فالشَّاعــرُ عزف على أوتــارهِ علــى هذه المقولة وردَّدها ، فكلُّ نَهْرٍ لا ارتــواء لـه مِنْـهُ .. لا يُبـالي أتدفـق ذلـك النَهْر أمْ ألتحف تَحْتَ الثَّرى ؟! وأي صدقٍ لا يحسُّ بهِ ، هُوَ شيءٌ يشبهُ الكذب .

فأبو ماضي يرسمُ مِنْ أفقِ عبقر صوراً مِــنْ صــورِ الحيــاة ، وإنْ جاءتْ فِيْ ألوانٍ متابينة ومختلفة ، ويغلِّفُها برموزٍ فِيْ إشاراتٍ خفية ، ويســتيقظُ الشَّاعرُ مِنْ دُنيا أنانيتهِ الصَّارخة ، فيتحوَّل إلى حياةٍ إنسانيَّةٍ تحنو على البشــر فيخاطــب السُّحــب طالبًا أنْ تكــون حممًا ، ولكنَّــه يكــونُ فــداءاً وقرباناً للبشريــة ، فترســلُ هذه الحمم عليــهِ ، فيكونُ أشلاءً كالحطب الَّتي تحرقُــها النَّارُ ، وهذه صورةٌ إنسانيَّةٌ رائعةٌ فِيْ مظاهرها ومحتواها .

ويختمُ قصيدتــهُ بنقــدٍ لاذعٍ – فيـهِ توجيـةٌ لبـني الإنسـان – مبطَّنًــا بإشاراتٍ ساخرةٍ لاذعة ، لأنَّ شريحــةً مِنْهُم .. إذا مسَّهم الحزنُ ، وجدوا فِــيْ ذلك الحزن طربًا ، وإذا مَا وقفــت أمامــهم الصِّعــاب .. ذلَّلوهــا بتقاعسِــهم واستسلامِهم ، وتهوين مَا صعــب بتركِهــا عائمــةً ، غير محــاولين التغلُّــب عليهــا ، والتفلُّــتِ مِنْ قبضتِهــا بــدون أنْ يشخصــوا الــداء ، أو يُشخِّصوه .. فيتركونهُ يفتكُ بهم بدونِ أنْ يتجرَّعوا الدواء ، ويتغلَّبون على تلــك الصِّعاب .


الشّاعر / أحمد الوائلي

الشَّاعر / أحمد الوائلي هُوَ : الشَّيخ أحمد بن الشيخ حسون بن سعيد بن حمود الليثي – الشهير بالوائلي – ولد بمدينة النجف الأشرف " **حاضرة العلم والفكر والأدب** " يوم الجمعة ١٧ ربيع الأوَّل أوائل عام ١٣٤٢ هـ ، كما وجدتُهُ فِيْ كتاب شعراء الغري .. المجلد الأوَّل صفحة ٢٩٣ – **مطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٧٣هـ** – تأليف الأُستاذ / علي الخاقاني ، ونشأ تَحْتَ ظلِّ أبيه ، وفتحَ أجْفَانهُ فِيْ أفقٍ يموجُ بألوانٍ مِنْ صورِ الفكرِ والعلمِ والأدبِ ، وقَدْ كتبَ عَنْهُ الأُستاذ / داخل السَّيِّد حسن .. فِيْ كتابهِ { **من لا يحضرهُ الخطيب** } صفحة ٢١٤ ، طبع **مؤسسة البلاغ للطِّباعة والنَّشر والتوزيع (بيروت – لبنان)** ، وأرَّخ مولدهُ يوم السابع عشر من شهر ربيع الأول ١٣٤٧هـ ، وأُدخل الكُتَّاب .. وبعدَ الكُتَّاب أنتسبَ إلى الحوزةِ العلمية ، وشرب مِنْ نميرِها ، ودرس للدراسات الأكاديمية ، ثُمَّ ألتحقَ بمدرسة منتدى النشر ، وتخرَّج مِنْ كلية **الفقه سنة ١٩٦٢م** ، ثُمَّ نَال درجة الماجستير مِنْ جامعة بغداد ، ولَمْ يرضهِ طموحه حتَّى أخذَ الدُّكتوراه مِنْ جامعة القاهرة فِيْ الشَّريعة الإسلامية – **قسم الاقتصاد الإسلامي** – فأصبح الوائلي فكرًا وأدبًا ، ويصح أنْ نقول : أنَّهُ مدرسةٌ سيَّارةٌ ، كُلُّ فصلٍ مِن فصولِها مجموعةُ معارف ، وهُوَ خطيبٌ لا كالخطباءِ .. **فهُوَ** اليومُ المحاضرُ والخطيب **الأوَّل** المشارُ إليهِ بالبنان فِيْ محاضراتهِ القيِّمةِ الإرشاديَّةِ ، وأسلوبهِ المتفرِّد ، الَّذِي هُوَ معارفٌ مِنْ التَّاريخِ والعلمِ والفكرِ ، ويهدفُ فِيْ أسلوبهِ الإرشادي إلى جمعِ كلمة المسلمين ولمِّ شتاتهم ، فأنتَ إذا استمعت لهُ وهُوَ يُحاضر تحسُّ بنقْلةٍ إلى أفقٍ فكري فسيح الأرجاء .. **يموجُ** بصورٍ مِنْ الأدبِ والعلمِ ، وشروحٍ مِنْ تفسيرِ معاني القرآن الكريم ، وألوانًا مِنْ أسرارِ الدِّين العظيم ، فهُوَ فكرٌ جوَّالٌ

يحملُ رسالةً مِنْ الإيمان ، تنعكسُ أضوائُها فِيْ محاضراتِهِ ، ويستمتعُ ويستلذُّ كُلُّ مَنْ يَستمعُ لهذه المحاضراتِ ، ولَمْ يكن الوائلي خطيب فحسب .. بلْ كَان أديبًا لهُ فِيْ دنيا الأدبِ فكرٌ عميقٌ ، تمثَّل فِيْ شاعريَّةٍ مبدعةٍ خصبةٍ ، جمع لهُ مِنْ شعرهِ مجموعةً طبعها فِيْ بيروت ، أسْمَاها (**إيقاع الفكر**) - **طبعة دار الصفوة - عام (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)** ، فهيَ مجموعة مِنْ الشِّعْرِ الرَّائع تصوِّر خلجاتِهِ النَّفسية ، وخواطرهُ ومُعَانَاتِهِ الَّتي يُعانيها فِيْ غُرْبتِهِ نزيز مِنْ جراحِ الأيَّامِ واللَّيالي ، فالغُرْبَةُ فِيْ قسْوتِها ومرارتِها .. لا تعْطِفُ علَى مَنْ يلبسُها ويعيشُ ظرفها ، ولكنَّ العبقرية تنصهرُ فِيْ بوتقةِ الألمِ ، وتتفجَّرُ ينابيع مِنْ البيان السَّاحر ومِنْ الألمِ المبرح .

كما أنَّ لهُ شوطًا تألقيًا فِيْ مهرجاناتِ الشِّعْرِ الأدبية ، وأشهرُها مهرجان الشِّعْرِ فِيْ بغداد ، ولهُ قصيدةٌ فِيْ الأُمِّ .. الَّتي هيَ أثْمَنُ كنْزٍ فِيْ الحياة ، كما نذكرُ آثارهُ الَّتي عثرنا على أسمائِها المدوَّنة فِيْ بعضِ تراجمهِ ، وهيَ { **هوية التشيع - أحكام السجون بين الشريعة والقانون - من فقه الجنس في قنواتِهِ المذهبية** } وأوَّل مَا طُبع لهُ " **تفسير علمي للقرآن** " كما وجدتهُ فِيْ كتاب (**من لا يحضره الخطيب**) ضمن سلسلة مِنْ هدي النجف ، ولهُ ديوان مطبوع فِيْ جزأين ، والثالث هُوَ مَا أشرنا لهُ سابقًا { إيقاع الفكر } ، ونَحْنُ هُنا ننقلُ لهُ أنموذجًا مِنْ شعْرِهِ ، وهيَ قصيدة بمناسبة عيد الأم : -

أمي تجعَّد وجهي وانقضى العمر
ولم يزل ملءَ أنفي جيبك العطر

عليه من لبن الثديين باقية
ومن لعابي ومن أقذائِه أثر

كم كنت ساعة إرضاعي أشدّ به
حتى يجيءَ بكفّي الخيط والوبر
لكي انحيه عن ثديي فتحضنه
كفي وأغرز أظفاري وأعتصر
أهوى إذا ما لمحتُ الثدي منحدرًا
كظامئ الطير فوق النّبع ينحدر
هذا النعيم من الدّنيا بأجمعها
وما عدى ذاك حتى صفوها كدر
تلك البواكير في عينيَّ صورتها
وعند صدرك من أشذائِها خبر
أمي لحجرك عندي ألف سابغة
هيهات يغرب معناها ويندثر
فِيْ مقلتي خلوبٌ من ملامحها
وفي مخيَّلتي جنّاتها الخضر
دفء وفيض حنان ناعم ورؤى
جديدة الوَجه مهما امتدت العصر
ومنبع يلتقي جذري ويسكب في
عمري فيورق عُود كاد ينكسر
غداة يجمعني زندٌ ويلحفني
صدرٌ وبينهما أطوى وأنتشر
وفي شفاهكِ أنغام تهدهدني
غزيرة مثلما الشلاّل ينهمر

تصوغ لي ألف موال وتغرقني

من الحنان وتشدو لي وتبتكر

حتى أنام على حلم يترجمه

تبسّم فوق ثغري ناعمٌ نضر

أمي لو أسطعت إرجاع الزّمانِ إلى

الماضي لآثرت أن يبقى لي الصغر

أعيش يوردني صدرٌ ويصدرني

ثغرٌ ، فما أروع الإيراد والصّدر

وحين أطفو على نبعين من نغمٍ

ومن حنانٍ فأَستجلي وأنغمر

بحيث كتفك أيكي إن لغوت وما

لغوي باذنيك إلا ما شدا الوتر

مباهج لو جنان الخلد تلمحها

لأَعلنت ها هنا الجنات والنّهر

أمي إذا كانت الجنات مصدرها

من تحت رجليك فيما يذكر الخبر

فما بصدرك من خير ومن كرمٍ

يظلّ أكبر مما تحدس الفكر

يا للأمومة آفاق مقدسة

أبعادها وعطاء ماله قدر

تلك الكرائم لا تنسى وإن ضعفت

بالذهن أشباحها أو غامت الصّور

تعيـــش ذكـــراك أنغامًـــا وداليـــة
مـــا عاش عند البنين السمـــع والبصـــر
قد كنت أشبع من نوم وأنـــتِ إلـــى
جنـــب السريـــر عيـــون كلها سهـــر
النجم ملّ ومـــا ملّـــت شفاهـــك من
تلك الـمواويل حتى يطلـــع السحـــر
الثدي يشبعنـــي والصـــدر يغمرنـــي
دفئًـــا ومنك الطوى والقـــر يهتصـــر
وملء نفسك فيمـــا تبذليـــن رضـــى
ومنحـــة مـــا بهـــا مـــنٌّ ولا ضجـــر
لله حجـــرك ، مهـــد إن غفـــوت بـــه
فـــلا ضرار بـــذي الدّنيـــا ولا ضـــرر
أماه يا ذكريـــات أستجيـــر بهـــا
غداة يـجـمـعـنـــي والـهـــم مؤتـمـــر
تشتاقها الرُّوح كالرمـل الـجديـــب إذا
لاحت له ديمـــة أو رشّـــه الـــدّرر
وأطمئِـــن لذكـــراها كـمؤمنـــة
إذ تطمئِـــن بذكـــر الله لـــو ذكـــروا
وعندمـــا طـــارق الآلام يطرقنـــي
فـــلا نـنـــام أنـــا والليـــل والقـمـــر
ويستبـــد بروحـــي فـــي شراستـــه
ليلٌ من النـــازلات السّـــود معتكـــر

أستـــاف روحك في عطر ووجهك فــ
ــــي بدرٍ وأجلوك حتى يعذب السَّمــر

فأَنت كعبة وحي لسـت أبــرح فـــي
دهــــري أحـــج لذكراهــــا وأعتمــــر

أمي رعى الله حجرًا ضمنـــي زمنًـــا
ولفَّ جنحي مـــن جنحيــــه معتجــــر

وكـــــرَّم الله مـثـــواه وأكـرمــــه
ورشــــه الأَرج الـمطـلـول والـمطــــر

وحوَّل الرحـمـــات الغـــر وارفـــة
من الظّـــلال وحـقـــلاً كلّـــه زهـــــر

حتى يرف على قبـــر يـــرف بــــه
طهرٌ ، فيورق فيمـا حولــه الـحجــــر

أماه هذا جنــــاح الـــذل أخفضـــه
وجبهة فـــي ثـــراك الطهــــر تنعفـــر

وهذه أمـنـيـــات لا حـــدود لـهــــا
لـكــــل أم ، بـعـيــــد الأم تـدّخــــر

۞ ۞ ۞

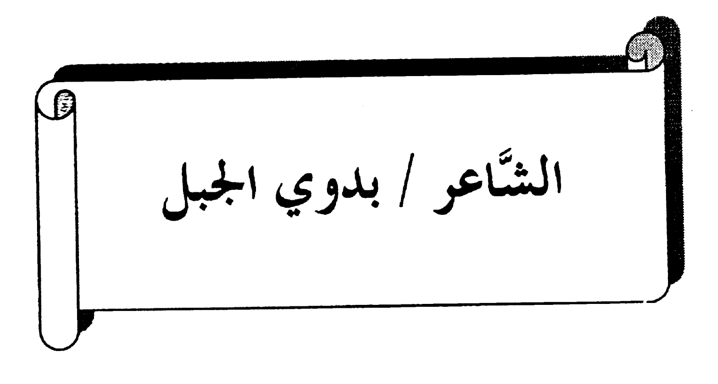
وقفةً معي أيُّها القارئُ أمام هذه الرَّسمةُ ، الَّتي تصوِّرُ أثْمنَ كنزٍ فِـــيْ الحياةِ { الأم } لأنَّها الدِّفْءُ والحنانُ بكُلِّ مَا فيهِ مِنْ معنى الحياةِ ، ومِنْ معـــانٍ روحية تفزعُ لها الصِّغارُ فِيْ كُلِّ شدَّة تلوذُ بذلك الحجر الطَّاهر ، ويرمـــزُ إلـــى صورِ مِنْ الحياة بعيدة الأهداف ، فالأُمُّ هيَ الدُّنيا إنْ صحَّ هذا التعبير ، وهـــيَ

جنَّةُ الدُّنيا ، وعلى برِها تُثابُ الأبناءُ ، وقَدْ عبَّر رسول الإنســـانيَّة – صلَّى الله عليهِ وآلهِ – عَنْهَا بكلماتٍ فِيْ حديثٍ شريفٍ ، ومَا أعظمها مِنْ كلمـــاتٍ ، فيـــها أسرارٌ بليغةٌ .. ومعانٍ عميقةٌ (**الجنَّةُ تَحْت أقدامِ الأمهاتِ**) .

فهذه القصيـــدةُ كألبـــومِ صـــورٍ ضـــمَّ شتاتًا مِنْ ألـــوانٍ ومنـــاظرٍ مختلفة ، غير أنَّها تجتمعُ فِيْ إطارٍ واحدٍ يصفُ الأم ، ومَا لها مِـــنْ دورٍ فِـــيْ الحياةِ ، فإنَّها منشأةُ الجيل ومُربيتهُ ، والمُهذِّبـــةُ والمُشـــذِّبةُ لأخلاقـــهِ ، فـــهذهِ القصيدة قالها شاعرُها فِيْ عيدِ الأم وتكريمهـــا ، ومَـــنْ أوْلـــى بـــهذا التَّكريـــمِ والتبجيلِ : إنَّها الأمُّ .. فأيُّ بلاءٍ أوْ حادثٍ دُنيوي يلمُّ بالطفلِ .. أوْ الكـــهلِ .. أوْ الشَّيخِ .. يلجأُ إلـــى هـــذا الأفـــقِ الرَّحيـــبِ الصّـــدرِ الحنونِ ، فيستريح فِـــيْ جوِّهِ .. ويفرخُ روعهُ .. وتهونُ عليهِ تلك الهُموم ببسمةٍ مِنْ حنـــانِ ثغـــرٍ ، أوْ يتظلَّلُ بظلٍّ مِنْ ظـــلالِ نعيـــمِ عطـــفٍ ، ينبعُ مِنْ قَلْبٍ خافقٍ بالحُـــــبِّ حتَّـــى الفـــداء ، وتسكبُ ذلك القَلْب فِـــيْ سبيـــلِ أنْ تمـــوت ليحيًا بعـــضٌ مِنْـــها أوْ كلها ، وهذه إشارةٌ إلى قولِ إمامِ المتقين علي بن أبي طـــالب – عليـــهِ أفضـــلُ الصَّلاةِ والسَّلام .

والقصيدةُ طويلةٌ تربو على أربعين بيتًا ، وقَدْ حفلتْ بصـــورٍ أخَّـــاذةٍ جذَّابةٍ ، فعلى القارئُ الرّجوعُ إليها ، ويحكمُ بذوقهِ ورأيهِ .

... ونكتفي بهذه اللَّمحة التَّحليليَّة القصيرة لهذه القصيدة .


الشَّاعر / بدوي الجبل

مُحمَّـــد سليمانُ الأحمد بنُ العلاَّمةِ الشَّيخ سليمان الأحمد العالم اللغوي والفقيهِ الدِّيني ، وُلِدَ الشَّاعــرُ محمَّد سليمان فِيْ هَذا الجـــــو عام ١٩٠٥م بقرية (ديفة) مِنْ أعمالِ منطقة الحفة فِيْ محافظة اللاذقية بسوريا ، وتربَّى فِيْ هَــــذا المحيطِ الأدبي ، ونشأ عَلَى حُبِّ اللُّغةِ العربيَّةِ والعلمِ وتعـــاليمِ والـــدهِ ، وأبتـــدأ دراستهُ الرَّسمية فِيْ حماة ، وظهرتْ مواهبُهُ وذكـــاؤه مُنْذُ أيَّامِ الدراسةِ ، وتوسَّم فيهِ أساتذتهُ والمفكِّرون النُّبوغ والتفوق .

وأخذَ يكتـــب الشِّعْر حتَّى جمـــع لـــهُ مجموعـــة شِعْريــــة كوَّنـــتْ ديوانًا ، وهُوَ الدِّيوانُ الأوَّل - طُبِعَ عام **١٩٢٥م** - وقرضهُ الشَّـــاعرُ / بشـــارة الخوري ، وخليل مردم ، ومحمَّد كُرد علي ، وعبد القادر المغربي .. وغـــيرهم مِنْ كبارِ الشُّعراءِ والعُلمـــاءِ ، وقَدْ أتخـــذَ لهُ أسمًا أدبيًا أنفـــردَ بهِ ، يرمزُ لــــهُ مُنْذُ ابتداءِ حياتهِ الأدبية ، وبقي عليهِ علمًا حتَّـــى يومِنـــا هَذا ، وهـــو : **بـدوي الجبل** ، وأثبت لهُ هَذا الاسمِ شيخُ الصَّحافةِ العربيَّة / يوسف العيســـى - **صاحبُ صحيفةِ " ألف باء "** .

وتوفَّى بدمشق عَام ١٩٨٠م ، فترك بدوي الجبل ثروةً فكريــــةً مِـــنْ الشِّعْرِ الخالد ، الَّذِي يجعلهُ فِيْ قممِ شُعراءِ القرن العشرين ، مِنْ صـــورٍ تمـــوجُ بالسِّحْرِ والأداء الفنِّي .

نختارُ لهُ مِنْ ديوانهِ قصيدتهُ **العَصْمَاء** ، الَّتي ألقاها فِـــيْ المـــهرجانِ الألفي لذكرى المعري ، ويُقال أنَّ الدُّكتور / طه حسين .. قَدْ هتفَ بشاعرها فِيْ ذلك المهرجان عدة هتافاتٍ ، هَلْ أنتَ تُلقي قصيدةً .. أمْ أطروحــــةً ؟! وســـواء صَحت هذه القولةُ أوْ لَمْ تصح ، فهيَ قصيدةٌ عَصْماء مِنْ القصائدِ الَّتـــي تنفـــردُ بأسلوبٍ مِنْ أساليبِ الشِّعْرِ الحديثِ المعاصر .

حَلِـــيَ النَـــدِيُّ كَرامَـــةً للـــرَّاحِ
عَجَبًا أتُسْكِرُنـــا وأنْـــتَ الصَاحِـــي

لَكَ في السرَائِـــرِ بِدْعَـــةٌ مَرْمُوقَـــةٌ
أنْـــسُ المُقِيـــمِ وَجَفْـــوةُ النُـزَّاحِ

مَجْدٌ كآفَاقِ السَمـــاءِ إذا انْتَهَـــتْ
مِنْـــهُ نَـــواحٍ باذَهَـــتْ بِنَواحِـــي

الدَهْـرُ مِلْـــكُ العبقريَّـــةِ وَحْدَهَـــا
لا مِـلْـــكُ جبـــارٍ ولا سَـفَّـــاحِ

والكَـونُ فـــي أسْـــرارهِ وكُنُـــوزهِ
لـلـفِـكْـرِ لا لِوَغـــىً ولا لِسِـــلاحِ

ذَرَتِ السِنُـــونَ الفاتِحِيـــنَ كأَنَّهُـــمْ
رَمْـــلٌ تَناوَلَـــهُ مَهَـــبُّ ريـــاحِ

لا تَفْلُحُ الدُنْيـــا وَيَصْلُـــحُ أمْرُهَـــا
إلا بـفِـكْـــرٍ كـالـشُعـــاعِ صُـرَاحِ

مَـرِحٍ عَلى كيـــد الحَيـــاةِ وأهْلِهـــا
يَلْقَـــى شَدائِدَهَـــا بِأَزْهَـــرَ ضَـــاحِ

خَيْرُ العَقائِدِ فـــي هَـــوايَ عَقِيـــدَةٌ
شَمَّـــاءُ ذاتُ تَوَثُّـــبٍ وَجِمـــاحِ

تَبْنِي الحَياة علـــى هُـــدَى إيْمانِهـــا
والعَقْلُ مُثْبِـــتُ غَيْرِهـــا والمَاحِـــي

سَكْرى مِنَ الـحَـــقِّ المُـدِلِّ ورُبَّمـــا
لَقِيَ الحُتُوفَ فَحادَ عَنْهـــا الصَاحِـــي

سُكْرُ العَقِيدَةِ أيْنَ مِنْ آفَاقِهِ
سُكْرُ العُيونِ وأيْنَ سُكْرُ الرَاحِ

مَلَكَ الحَياةَ فَخلْفَ كُلِّ ثَنِيَّةٍ
لليأسِ يَكْمُنُ مِنْهُ ألْفُ طِمَاحِ

شَرَفُ المَعارِكِ بالجِراحِ وبالرَدَى
فَبَدار قِسْطَكَ مِن أذىً وجِراحِ

وأحْمِلْ بِكَفَّيكَ الحياةَ تَحدِّيًا
مِنها لأوّلِ مُعْتَدٍ بالسَّاحِ

ألعُمْرُ مِنْ غَيْبِ القَضاءِ خَبيئَةٌ
فابْسُطْ مَصُونَ كُنوزِهِ بالرَّاحِ

لا تَشْكُ مِنْ قِصَرِ الحَياةِ فرُبَّما
أغْنَتْ إشارَتُها عَنِ الإفْصاحِ

سِفْرُ الحَياةِ إذا اكْتَفَيْتَ بِمَتْنِهِ
أغْناكَ مُوجَزُهُ عَنِ الشُرَّاحِ

وأخْتَرْ لِنَفْسِكَ مِيتَةً مَرْموقَةً
بَيْنَ النُجومِ عَلى الأدِيمِ الصَاحِي

لِلْمَوْتِ في اللُجَجِ العَميقَةِ رَهْبَةٌ
شَمَخَتْ بِسؤْدَدِها عَلى الضَحْضاحِ

حَوَّطْتُ باللهِ العَقِيدَةَ مِنْ أذى
خَرْقاءَ فاجِرَةِ اليَمِينِ وَقَاحِ

سَكِرَتْ على كَرَمِ النَدِيِّ وَعَرْبَدَتْ
فاليَوْمَ لا خَمْرِي ولاَ أقْداحِي

لَهْوُ العُيونِ ولا أقُولُ قَذاتُها
وَكلُّ تَكَلُّفَ زَهْوَةَ المُجْتاحِ

مُتَرَنِّحُ العِطْفَيْنِ مِنْ خُيَلائِهِ
مَاذا تَرَكْتَ لِغَارَةٍ وَكِفاحِ

اللهُ يَعْلَمُ ما أرَدْتُ شَماتَةً
بِمُصَرَّعِينِ مِنَ العَياءِ طِلاحِ

تَأبَى الشَماتَةَ في الضعيفِ شَمائلي
وَتَعِفُّ عَنْ شِلْوِ الجَرِيحِ صِفاحِي

وأنا الذِي وَسِعَ الهُمُومَ حَنانُهُ
وَبَكَى لِكُلِّ مُعَذَّبٍ مُلْتَاحِ

شْقَى لِمَنْ حَمَلَ الشَقَاءَ كَأَنَّمَا
أتْراحُ كُلِّ أخِي هَوىً أتْراحِي

غَسَلَ الأَسَى قَلْبِي وَحَسْبُكَ بالأَسَى
مِنْ غاسِلٍ حِقْدَ القُلُوبِ وَماحِي

وَوَدِدْتُ حِينَ هَوى جَناحُ حَمَامَةٍ
لَوْ حَلَّقَتْ مِنْ خَافِقِي بِجَناحِ

حُبٌّ قَدِ انْتَظَمَ الوُجودَ بِأسْرِهِ
أسَدَ الشَرى وَحَمَامَةَ الأَدْوَاحِ

❁ ❁ ❁

وقفةً أيُّها القارئُ أمام هذه اللَّوحةِ الفنيةِ ، الَّتي تُجسِّدُ شاعريَّةً عَصْماءَ تنسابُ انسياب النَّهْرِ فِيْ معانيها وحروفِها وصورِها الضوئيَّة ، فهيَ كألوانِ

مِنْ طيوفِ الشَّمسِ انسكبت على مرآةٍ تموجُ بالأخيلةِ والظِّلالِ .. في نجوى روحٍ إلى روحٍ ، في همساتٍ روحية يُرسلُها الشَّاعر نجاوى ، كموجاتٍ كهربائية إلى روح المعري في ذكراه الألفية .

حَلِيَ النَدِيُّ كَرامَةً للرَّاحِ
عَجَبًا أتُسْكِرُنا وأنْتَ الصَاحِي

تأمَّل معي هذا التعبير الفنِّي ، همساتٍ في نبراتٍ تعبيريةٍ في تراكيبٍ كأمواجِ ضوءٍ ، تتسلسلُ في وثبةٍ ألتفاتية من وثباتِ العبقرية ، عجبًا كيف يُسكرُ النائم الصاحِي ؟! ولكنَّ الشَّاعر خلقَ هَذا الجو .. فجعل النائمُ صاحِي ، وهُوَ الَّذي يذكرُ مَنْ في الحفلِ .. يذكرهم بفكرهِ وأدبهِ وتراثهِ الَّذي لا يموت ، إنَّهُ الفكرُ الَّذي يُسكرُ الأرواح ، وهَذا التعبيرُ من تعابير الفن الرَّفيع الَّتي تندرُ صورُها .

لا تَشْكُ مِنْ قِصَرِ الحَياةِ فرُبَّما
أغْنَتْ إشارَتُها عَنِ الإفْصاحِ
سِفْرُ الحَياةِ إذا أكْتَفَيْتَ بِمَتنِهِ
أغْناكَ مُوجَزُهُ عَنِ الشُرَّاحِ

إنَّ هَذا الأداء الفنِّي يصوِّرُ لنا عمر الإنسان بعطائهِ الخصب ، الَّذي هُوَ كالربيع ، أوْ بجذبهِ الَّذي هُوَ كالخريف .. وليست المقاييس بطول الحياة أو قصرها ، إنَّما هيَ بما ترك الإنسان من فكرٍ ثرٍ ، ولعلَّ إشارةً رمزيةً تُغنيكَ عن مسلسلٍ مطوّلٍ ، لا يفصحُ عن جوهرِ ما فيهِ من شروحٍ على متونٍ مسهبةٍ

ثقيلة الألفاظِ والظِّلال ، فلربما سفرٍ موجزٍ بين دفتيهِ ألوانٌ من العبر قَدْ يُغنيك عن مسهباتِ الكتب .

ويختم الشّاعر / بدوي الجبل هَذا الفصل ليبدأ بهمسةٍ روحية ، يهمسُ بها في أُذن المعري فاسمع هذه النجوى : -

إيهٍ رَهِينَ المحبسين ألَمْ يَئِنْ
إطْلاقُ مَأْسورٍ وَفَكٌّ سَراحِ

ظَفِرَتْ بِرَحْمَتِكَ الحَياةُ وَصُنْتَها
عَنْ كلِّ ناعِسَةِ الجُفونِ رَداحِ

أتَضِيقُ بالأُنثَى وحُبُّكَ لَمْ يَضِقْ
بالوَحْشِ بَيْنَ سَباسِبٍ وَبِطَاحِ

يا ظَالِمَ التُفّاحِ في وَجَناتِها
لَوْ ذُقْتَ بَعْضَ شَمائِلِ التُفّاحِ

عِطْرٌ أحَبُّ مِنَ المُنى وَغِلاَلَةٌ
بِدْعٌ فَمِنْ وَهْجٍ وَمِنْ أفْراحِ

هِيَ صُورَةٌ لِلّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ
عَزَّتْ نَظَائِرُها على الألْواحِ

مَنَحَتْ بِقُدْرَتِهِ النَعِيمَ وَلَوَّنَتْ
أنوارَهُ جَلَّتْ يَدُ المَنَّاحِ

لَيْتَ الهُمُومَ العَبْقَرِيَّةَ هُدْهِدَتْ
بِحَنانِ طَيِّبَةِ اللَّمَى مِمْراحِ

لَوْ أنّهانَزَلَتْ عَلى نُعْمَى الهَوى
نَزَلَتْ مُدَلَّلَةً بِأكْرَمِ سَاحِ

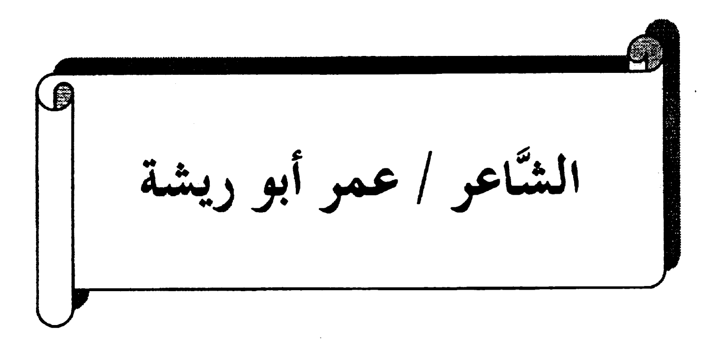
حَرَمٌ عَلى عُسْرِ الزَمانِ وَيُسْرِهِ
وَحِمَى أمِينِ السِرْبِ غَيْرُ مُبَاحِ
ما أحْوَجَ العَقْلَ الحَكِيمَ وَهَمُّهُ
وَسِعَ الحَياةَلِصَبْوَةٍ وَمِراحِ
وَلِمنْ تُدَلِّلُهُ وَتُسْكِرُ رُوحَهُ
عِنْدَ الهَجِيرِ بِظِلِّها النَفَّاحِ
أنْثَى إذَا ضَاقَتْ سَرِيَرةُ نَفْسِهِ
طَلَعتْ بآفاقٍ عَلَيْهِ فِسَاحِ
تَسْقِي الهُمُومَ إذَا وَرَدْنَ حَنَانَهَا
بِمُعَطَّرٍ كالسَلْسَبِيلِ قَرَاحِ
وَتَرُدُّهُنَّ عَرائِسًا مَجْلُوَّةً
كَنَدى الصَباحِ وَكُنَّ غَيْرَ صِبَاحِ
لِلْعَبْقَرِيَّةِ قَسْوَةٌ لَوْلا الهَوى
عَصَفَتْ بِكُلِّ عقيدةٍ وَصَلاحِ

❁ ❁ ❁

هذه نجوى فيها رقَّةٌ وقسوةٌ مِنْ الشَّاعر / بدوي الجبل إلى الفيلسوف الشَّاعر / أبي العلاء المعري .. الَّذي حرَّم عَلَى نفسهِ أَلذَّ مُتعةٍ في هذه الحياة بعد الإسلام { أنثى } تُهدهد أحلامهُ ، وتُضمِّد جراحهُ ، وتخفِّف آلامهُ ببسمةٍ مِنْ شفتينِ صغيرتينِ قرمزيتينِ ، تبسمُ لهُ فتُبدِّدُ ليل آلامهِ وتُشيعُ الدفء في مخدعهِ ، وتطردُ أشباح الوحشة المتمددة في سماءِ بيتهِ ، غير أنَّ المعري وقف من الأُنثى موقفًا غريبًا شاذًا يُخالفُ الطَّبيعةَ الإنسانيَّة ، والغريزة

الجنسية ، فظلم المرأة – **تلك التفاحة** – ولَمْ يتذوَّق من أعطارِها ، ولَمْ يتفيأ بظلِّ شمائلهـــا ، وعـــاش بعيدًا عن أجواءِ هذه الجِنـــان .. محرومًـــا مـــن ينبـــوعِ حنانها ، يتقلَّبُ في جحيمِ عُزلةٍ قاسيـــةٍ بين محبسين ، لَمْ ينعم بهذه النعمة الَّتـــي هيَ فيضٌ من ألطافِ فضلِ الخالق علَى عبيدهِ ، وهَذا الشذوذ الغريـــب تراكـــم عليهِ ضبابُ التَّاريخِ ، ولَمْ يبحـــث لنا الباحثـــون عن سرِّهِ .. فلَمْ نستشفف مـــن بين أنقاضـــهِ حقيقـــة هذا الشـــذوذِ والانحراف .. فحُـــب الجنـــسِ غريـــزةٌ طبيعيةٌ في البشر ، أودعها الله في الذكر والأنثى ، فهَلْ هـــذا الانحـــرافُ عـــن الأنثى مرضٌ نفسي ؟! أوْ مرضٌ في الأجهزة الجنســـية ؟! فـــأكبرُ الظَّـــن أنَّ المعري أصيب بإحداهما .. إذْ لا يأتي هَذا الصدوف الجنسي المخالف للطَّبيعـــة البشرية ، إلاَّ على ركيزةٍ من ركائزِ العوامل النَّفسيـــة ، أوْ على خلـــلٍ فـــي الأجهزةِ الجنسية .. فألبسَ نفسهُ ملاءةً حيكت مِنْ بغض الأُنثى ، فصاغ قولتـــهُ في أعتذارٍ تافهٍ { **أنَّهُ لم يتصل بالحياةِ الزوجية لأنهُ لا يريد أنْ يجـني على أحـدٍ** } وهَـــذا رأيٌ يسخـــرُ منـــهُ العقلُ ، وتضحكُ مِنْهُ الأيَّام ، وهَلْ والدهُ جنى عليـــهِ لمَّا كان سببًا في مجيئـــهِ في هذه الحياة ، ولـــوْ لَمْ يأتِ لخسر الفكرُ شـــخصيةً فذَّة ، وعبقريةً من عباقرةِ الزَّمن تدورُ مـــع الزَّمنِ ، أمْ هيَ نعمةٌ كُـــبرى مـــن الخالق على المعري ونكرٌ لأبيهِ ؟.

ولا أُريدُ أنْ أُطيل مـــع المعري هذه المحاورة ، الَّتي ســـجَّلتُ فيـــها رأيي بصراحة ووضوح ، وقَدْ يقـــولُ بعضُ الأدباءِ أو المفكِّرون : كيف صـــحَّ لكَ أنَّ تتجـــرَّأ فـــي رأيـــك وتقســـو علـــى هذا العملاق الفيلســـوف الشَّـــاعر الكبير ؟!! ولكنِّي أقولُ لا إرهاب في الفكر ، وكلمتي هذه أقصدُ منـــها تحقيـــق التَّاريخ ، وللقارئ حريةُ الرأي .


الشّاعر / عمر أبو ريشة

عُمر أبو ريشة : علمٌ من أعلامِ الأدب الجديد .. أسهمَ فـي الحركـةِ الشِّعريةِ المتطورةِ بأسلوبٍ غنائي ، وديباجةٍ مُترفةٍ متسلسلةٍ كأضواءِ القمر فـي أمواجِ النهر ، وشارك بشعرهِ في أتراحِ العربِ وأفراحِها .

ونشـأ أبو ريشة وولد عام ١٩١١م في مدينة عكا بفلسطين ، غـيرَ أنَّ والدهُ سجَّله بين من ولدوا في { منبج } عام ١٩٠٨م ، وعمر أبـو ريشـة ينتمي إلى عشيرةٍ بدوية (**الموالي**) وهـيَ ثالثـةُ عشـيرتي (**الطوقان والمهنا**) وشيوخ العشائرِ الثلاث يُدعون (**البوريشي**) ، وكانت بيـن جـده والأتـراك خصومةٌ فأسروهُ ، وتعلَّم أبو ريشة في **الجامعة** الأمريكية ببيروت ، ثُمَّ سَافر إلى لندن لدراسة الأصبغة .. فبدأ نشاطهُ **الفكري** وحماستهُ العربيةُ ، فردَّ على مقـالٍ فيهِ افتراءٌ وتخرسٌ على العرب ، وأتصل عام ١٩٣٦م بإمامِ مسجد { **ووكلي** } بلندن ، وهُوَ / عبد الغفار .. عشق اللُّغة العربية وأسـلمَ ، ولازم أبـو ريشـة مجلسـهُ وتتلمذ على يديهِ ، فأخذ من أستاذه هَذا الحب في اللُّغةِ العربيـة ، وإنْ كان عربيًا فبزَّه في عشقهِ للُّغةِ العربية ، فأتقنَ عمر سبع لغات وهيَ (**الإنجليزية والفرنسية - الألمانية - البرتغالية - التركية - الأسبانية - الأردية**) فحـاضر وكتـب بأربع لغات منها ، ويُقال عنه أنَّه لَمْ يجد ما يُضارع اللُّغة العربية فـي جمالِـها ودقَّتِها .

وتقلَّد الشَّاعر مناصب دبلوماسية بدولة سورية ، وسفر لها في النمسا وتشيلي والهند .. ومثلها في الأمم المتحدة ، ويُعدّ أبو ريشة من أعـلامِ القـرن العشرين الَّذين حافظوا على الأُسلوب الشِّعري ، وحاربوا السـريالية والميعـة والتخنث لأخـر لحظـة من حياتهِ ، حتَّـى انطفأ نجمهُ وخبـا ضوئـه عـام ١٩٩٠م .

وترك أبو ريشة ثروةً من الشِّعر يصدق عليها كلمة شعر { ديوانه من عمر أبو ريشة شعر ، وغنيتُ في مأتم } ويُطالعك العنوان .. فيه اعتزاز وفخر يدلُ به ، ولَمْ أعثر له على غير هذه المجموعتين ، ولا أعرف هَلْ ترك كتب نثرية أو شعرية غير هاتين المجموعتين .

وسنوردُ له قصيدة من ديوانه (من عمر أبو ريشة شعر) : -

قفي قدمي ! إن هذا المكان ، | يغيب به المرء عن حسه
رمالٌ ، وأنقاض صرحٍ هوت | أعاليه تبحث عن أسه
أقلّبُ طرفي به ذاهلاً | وأسأل يومي عن أمسه
أكانت تسيل عليه الحياة ، | وتغفو الجفون على أنسه
وتشدو البلابل في سعده | وتجري المقادير في نحسه
أأستنطق الصخر ، عن ناحتيه ، | وأستنهض الميت من رمسه
حوافر خيل الزمان المشتّ | تكاد تحدث عن بؤسه !
فما يرضع الشوك من صدره | ولا ينعب البوم في رأسه

وتـلك العناكب مذعورة
تريد التفلّتَ من حبسه

لقد تعبتْ منه كفّ الدمار ،
وباتت تخاف أذى لمسه

هنا ينفضُ الوهمُ أشباحه
وينتحر الموتُ في يأسه



وقفةً معي مع هذه اللَّوحة الفنيَّة ، الَّتي هيَ من لوحاتِ الفن الشِّعري ، فهيَ تصورُ طللاً رومانيًا فيه صورٌ وآياتٌ من العبر من الماضي للحاضر .

ولَمْ يكن أبو ريشة من شريحة الشُّعراء الَّذين يتباكون على الطلولِ ، ويسكبون الدموع علَى أحجارٍ باليةٍ صمَّاءَ .. لا تسمعُ ولا تردُّ جوابًا ، إنَّما هيَ وقفةٌ تصويريةٌ تُخالفُ أُسلوبَ الشُّعراءِ الَّذين قلَّدوا تقليدًا أعمى مَنْ قبلهم ، في الوقوفِ والتباكي علَى تلك الأطلال .. وقفةَ متفجّعٍ وقيَّدوا حرفهم في دائرةٍ محيطيةٍ ضيقةٍ ، لا تخرجُ في تصويرِها ووصفِها عن ظواهرِ الأحجارِ الصمَّاءِ ، والأطلالِ الباليةِ الَّتي عفَّ عليها الزَّمنُ وأصبحت من الدوارس ، ولَمْ يُشر حرفهم إلَى ما وراءِ الخطوط ، الَّتي تكمن وتتمثَّل فيها طيوف الأمس وحياتهم من رغدٍ ونعيم ، أوْ من بؤسٍ وشقاءٍ إلاَّ على ندرةٍ .

فأبو ريشة .. في هذه القصيدة : كان فنَّانًا موفَّقًا يرسمُ مَا وراء خطوطِ هذا الطلل ، من مجدٍ وفنٍّ معماريٍّ ، وحياةٍ زاخرةٍ تموجُ بألوانٍ من صورِ العبرِ التَّاريخيَّة الَّتي انطوت رسومًا في تلك الأحجار ، الَّتي تُشيرُ إلى بقايا من طيوفِ مجدٍ غفت كما يغفو جفْنُ الحياة وراء اللامنظور ، وقَدْ سبقَ لي

أنْ كتبتُ عن هذه القصيدةِ بالذاتِ ، في موازنةٍ بينها وبين مقطوعــةِ الشّاعرِ الكبيرِ والعالم الفذ { **الشريف الرضي** } في إحدى كتبـي (**أضواء من النقد في الأدب العربي**) ولاحظتُ على أبي ريشة مأخذًا ، وتلك المؤاخذةُ .. هُـوَ بيتٌ خانهُ فيهِ التعبير ، حيثُ كان تعبيرُهُ تقليديًا موروثًا ، لأنَّهُ أضاف إلـى الزّمـانِ حوافرًا : -

حوافر خيـل الزمـان المشـتّ

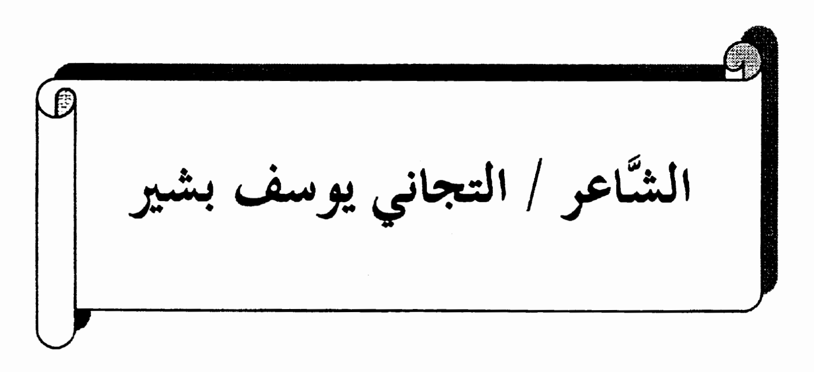
تكـاد تحـدث عـن بؤسـه !

كيف يصحُّ للشّاعر أنْ يجعلَ للزّمانِ حوافرًا ؟! والزّمانُ يسيرُ سـيرَ البرقِ .. أو سرعة الضوءِ ، ولو كان سيرهُ بحافرِ خيلٍ لكان سيرُهُ بطيئًا ، فـهذا التعبيرُ وهذه التركيبةُ اللفظية من تراثِ الماضي ، يجري في شراايينهِ مجـرى الدم كما أشرنا سابقًا ، ولماذا لم يُعبّر كما عبَّر الشّاعرُ لامرتيـن فـي وصفـهِ الزّمان في وصفةٍ فنيةٍ .. وتعبيرٍ بليغٍ : -

يا زمانًا يمـرُّ كالطيـرِ مهـلاً

طائرٌ أنـتَ ويـك قـف طيرانـكْ

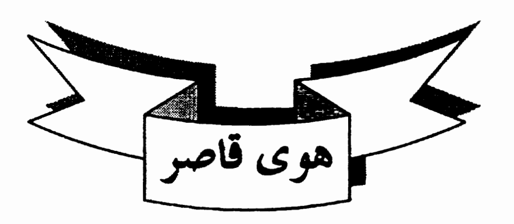
فالقصيدةُ فِي صورِها وتراكيبها ، كَان الشّاعرُ فيـهَا موفَّقًـا ، وقَـدْ خصصتُها بدراسةٍ في موازنةٍ كما أشرتُ ، فلا أُحبُّ أنْ أُعيد حولها النقاش .


الشّاعر / التجاني يوسف بشير

الشَّاعــرُ / أحمدُ التجانِي بن يوسفِ بن بشيرِ بـــنُ الإمـــامِ جـــزري الكتيابي ، والكتيابُ بيتٌ مشهور من بيوتِ السودانِ .

وُلِدَ في مدينةِ أم درمان عام ١٩١٠م ، وأدخلهُ أبوهُ الكُتّاب ، ودفعَ بهِ أبوه إلى خلوةِ عمهِ / محمد الكتيابي ، وحفظ القرآنَ وأُدخِل المعهد العلمي { بأم درمان } إلاَّ أنَّهُ فُصل منهُ بعد جدالٍ أدبيٍ بين طائفتينِ متحزبتينِ لأحمد شـــوقي وحافظ إبراهيم ، وكَان هُوَ من أنصارِ أحمد شوقي ، فألَّفوا عليهِ حكاياتٍ ممَّـــا أضطـــر مديرُ المعهدِ إلى فصلهِ فكتب الشِّعْرَ ، إلاَّ أنَّهُ ذبُل كما تذبـــلُ الزهـــرةُ على غصنِها الوريق في ميعةِ الربيعِ ، فانطفأ كما ينطفأُ النجمُ في ربيعِ العمـــرِ في عام ١٩٣٧م ، وترك ورائهُ مجموعـــةً شـــعريَّةً أسمـــاها (إشراقةً ، من العواملِ التَّاريخية والمرآة الزمنية) ، وهُوَ لَمْ يترك غير هذه المجموعة ، وهـذه المجموعةُ تُعدُّ من طبقةِ الشُّعراءِ المبتدئين ، وليس فيها أســـلوبٌ شـــعريٌ ، أو نشوةٌ روحيةٌ تهزُّ الأرواحَ بفعلٍ سحريٍ ، وتُكهربُ القلوبَ بتياراتِـــها المعنويـــة إنَّما هيَ إشاراتٌ ، يحاولُ شاعرُها أنْ يُغلِّفها بكلماتٍ رمزيةٍ ، لكنَّهُ لا يرقى إلى ذلك الجوِّ ، فيسفُ عن ذلك الأفق ، ويهبطُ بأسلوبهِ المبتذل .

ونُوردُ له قصيدةً من خير ما كتبهُ في رأيي : -



أهكـــذا ـ عوفيـــت ـ يـــا فاتـــر

يـمـــلأ دنيـــاك الـهـــوى الآســـر ؟

يا ثائر العينين من شاخص
مفزع مطلعه الساحر
أواجف أنت ؛ أمستعرض
حبًا طواه الأبد الجائر ؟
بالكون جفناك وما أفلتا
من حرق سمح بها الناظر
والكوثر العذب مدى أدمع
ولهى نماها اللؤلؤ الماطر
كل جلال الحسن أو سحره
في دمعة يخطفها الخاطر
أو لفتة عجلى وفي وثبة
يفتأ مجنونًا بها الشاعر
نعيذك الله فما هذه الر
وعة واللوعة يا ماكر
نشدتك القربى وما ذلك الـ
ـهابط والصاعد والحادر ؟
ماذا بجنبيك أفض .. إنما
تضمر ما أعيت به ((عامر))
أهكذا أنت حريب الهوى
ملء يديك الوتر الخائر
يثقلك الحب فتقضي أسى
وأنت - فديت - أمرؤ قاصر

ليست هذه القصيدة من الأُسلوب الشِّعْري بمكانٍ ، إنَّما هيَ تركيبـــاتٌ مبتذلة ، ويصدقُ عليها كلمةُ شاعرِها في أحدِ تركيباتهِ التعبيرية ، كتعبيرهِ بالوتر الخائر .. فأنَّها خائرةٌ ليس فيها دفقٌ حيوي ، ولا صورٌ فكرية ، وهناك بعـــض المؤاخذات طرأت خللاً في بعضِ أوزانِ الأبيات كهذا البيت : –

بالكـــونِ جفنـــاك ومـــا أفلتـــا

مـــن حـــرق سمح بهـــا الناظـــر

فإنَّ عجزهُ عاجزٌ عن صدرهِ ، وقَدْ فُصمـــتْ عظمتُـــهُ .. فـــالعجزُ غيـــرُ مستقيـــم .

والكوثـــر العـــذب مـــدى أدمـــع

ولـهـــي نـمـاهـــا اللؤلـــؤ الـمـاطـــر

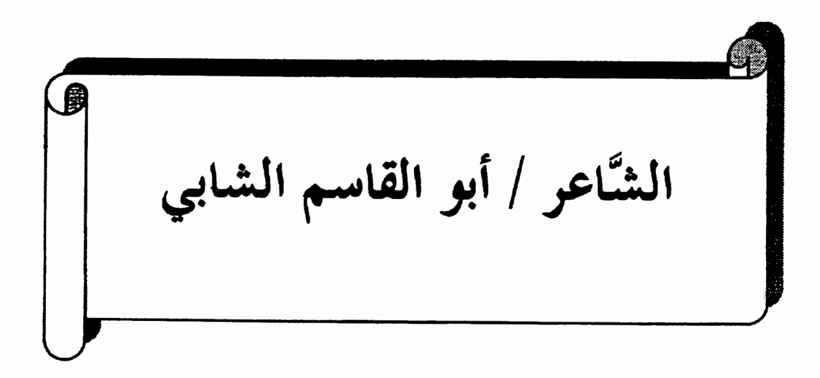
تأمَّل معي هذه التركيبات في هذا البيت ، كمدى أدمـــعٍ .. وكتنميـــة اللؤلؤ الماطر ، إنَّهُ خيالٌ صحراويٌ جافٌ ، وليس فيهِ جوٌّ شعري ، فهُوَ يُشْـــبهُ الكلمات المصفَّفة المنثورة ، الَّتي لا ترمزُ إشاراتُها إلى معنًى عميقًا .

نعيـذك اللـــه فمـــا هـــذه الـــــر

وعـــــة واللـوعـــة يـــا ماكـــــر

وهذا البيت في تراكيبهِ يُشبهُ لُغةِ أبن الشارع .. حينما يُنـــادي علـــى بضاعتهِ ، وهُوَ مكسورٌ فُصلت عظمتُهُ .

والشَّاعرُ في ديوانهِ إشراقة ، لم يُحلق في ذلك الجو بجناحين ، يُسابح الطـيور ، ونكتفـي ببعض هذه الملاحظات والنقـدات ، الَّتـي هـيَ خفيفـة الظّل ، ونعتذرُ عن الشَّاعر عن الخللِ الوزني .. ربما يكونُ من الطِّباعة .


الشّاعر / أبو القاسم الشابي

أبو القاسم بن محمَّد ، أبوهُ محمد بن بلقاسم ، وُلد بهِ في قرية الشـلبية عام ١٩٠٩م من ضواحي تونس ، ووالدهُ كان أحد القضاة في سـلك القضـاء التونسي الرسمي ، والشابي برغم إنطواءِ ظلِّ شبابهِ ، وهُوَ في ميعةِ الفجرِ لَـمْ يتجاوز السادسة والعشرين .. كان له دورٌ خطيرٌ في الفكر العربي ، حيث قـال شعرًا يتفجَّرُ براكين من الألم واللوعـة – صادق المعاناة – لمـا ألـمَّ بـهِ مـن أمراضٍ لم تُقعـدْ بهِ عن نشاطهِ الفكرِي ، بل مدتهُ بثـورةٍ عارمـةٍ تتـأجَّجُ كتأجـجِ الحياةِ ، فكان ينفحُ الدُّنيا بقصائدهِ المأساوية ، والتبرمية .. فيها صـورٌ من ألوان التشاؤمِ ألوانًا وألوانًـا ، وأتصـل بمدرسة الفكـر بمدرسـة أبوللـو بالقاهرة ، وعكف على أدب المهجر الجديد مضافًا إلى التُّـراثِ القديم ، ونشـرَ فـي الصُّحفِ العربيـة كالصُّحف المصريـة واللبنانية والتونسـية ، فشـعرهُ برغم الصُّور التشاؤميَّة والأطيـاف اليائسـة ، والآلام المتدفقـة مـن الأحـزان .. كان غناءً عذب اللحنِ ، رقيـق الجـرسِ .. فيـهِ موسـيقى وتصويرٍ من صور الرُّومانسيَّة الحديثة ، ويسيلُ رقَّةً كالنسائمِ ، ويعبقُ أعطـارًا كالـورودِ ، كما كتـب أبو القاسـم الشابي كتابًا غير مجموعتهِ الشِّعرية أسماهُ (الخيال الشِّعري عند العرب) ولَمْ أطلع عليه ، وقَدْ جمعَ الشابـي من شـعرهِ مجموعةً قبل موتـهِ أسماها (أغاني الحياة) وكانـت هذه التسميةُ حقًّا ، فهـيَ أغنيـةُ صوتٍ يُزمجـرُ مع الحياة ، ويعصفُ مع العواصف .

وقَـدْ انطفـأ ، وخبـا هذا الكوكـب ، وأُخـرس هـذا الصـداحُ فـي وكـرهِ عـام ١٩٣٤م ، وسنـوردُ له أنموذجًـا من ديوانـهِ (أغاني الحياة) المطبوع بدار الفكر العربي ببيروت – لبنان – الطَّبعـة الأُولـى عـام ١٩٩٧م : –

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا
سعيدًا بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال ، وفي الغابات
بين الصنوبر الميَّادِ
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف
نفسي عن استماع فؤادي
أرقبُ الموتَ ، والحياة ، وأصغِي
لحديث الآزال والآباد
وأغنِّي مع البلابل في الغاب ،
وأصغِي إلي خرير الوادي
وأناجي النجومَ والفجرَ ، والأطيارَ
والنهرَ ، والضياءَ الهادي
عيشةً للجمال ، والفن ، أبغيها
بعيدًا عن أمَّتِي وبلادي
لا أعنِّي نفسي بأَحْزَانِ شعبي
فهو حيّ ، يعيش عَيْشَ الجماد !
وبحسبي من الأسى ما بنفسي
من طريفٍ مُسْتَحْدَثٍ ، وتِلاد
وبعيدًا عن المدينة ، والناس ،
بعيدًا عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والإفك
ومن ذلك الهُراء العادي

أيْنَ هُو مِن خريرِ ساقيـــــة الــــوادي

وخفْقِ الصـــدى ، وشـــدو الشـــادي

وحفيفِ الغصـــون ، نـمَّقـها الطـــلُّ

وهـــمـــسِ النسيـــــــم للأوْراد ؟

هـــذه عيشـــةٌ تقدِّسهـــــا نفســــي

وأدعـــو لـمجدهـــا ، وأنـــــــادي

۞ ۞ ۞

وقفةً تأمليةً أيُّها القارئُ العزيزُ في هذه القصيدة المأســـاوية ، الَّتـــي تنبعثُ من فؤادٍ دامٍ ينزُّ جروحًا ، فهُوَ في نجواه يُناجي روح الطَّبيعة ، ويستأنس بالوحدة والعزلة ، ويُغني مع العصافيرِ على الدوحِ ، ويُسامرُ النجوم ، ويـــهتفُ بروحهِ الشاردة في ضبابِ الأحزان والشجون ، فاراً من مآسي وطنهِ .. لأنَّـــهُ يراهُ ميتًا ، وإنْ كـــان حيًّا جامد الحـــس .. لا يشعرُ .. لا فـــرق بينـــهُ وبيـــن الجماد ، وهل الجمادُ يتحرَّك ؟!.

كما نأخُذُ على أبي القاســم الشابي في هـــــذه القصيـدة كلمـــةً ، أو بالأخص تركيبةً لَمْ تخلق جوًّا شاعريًا : -

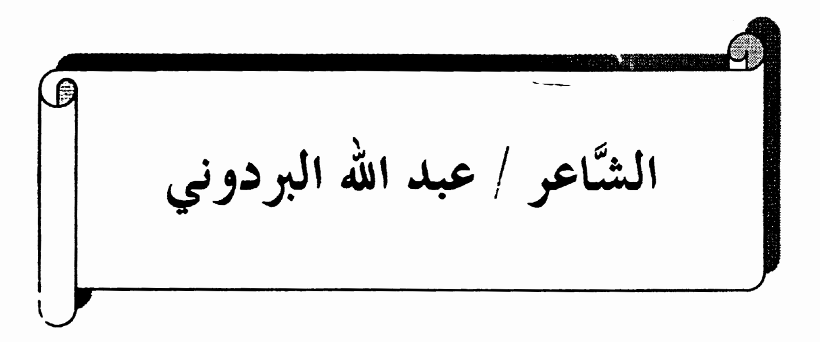
عيشةً للجمال ، والفـــن ، أبغيهـــا

بعيـــــدًا عـــــن أمَّتِـــي وبـــلادي

إنَّ كلمةَ { أبغي } لَمْ تضفي على الصُّورةِ لمساتٍ فنيةً ، ولا رســـمةً تُجسِّدُ المشهد في صورةٍ شعريةٍ وجوٍّ سحري .

والقصيدة هيَ من شعر أبي القاسم الشابي الرُّومانسي ، الَّذي يــــدورُ شعرهُ في فلكٍ واحدٍ .. الغُربة ، العُزلة ، الطَّبيعة ، الوحدة ، الفجر ، اللَّيلِ .

... هَذا متنٌ تلخيصيٌ لما يدورُ في محيطِ ديوان أبي القاسم الشابي .


الشّاعر / عبد الله البردوني

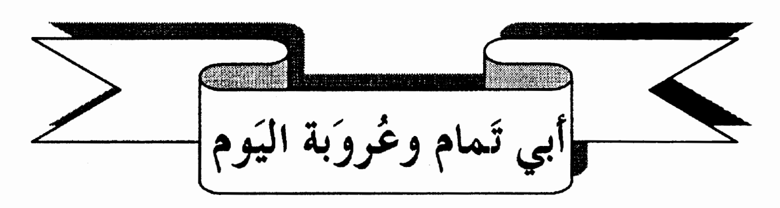
الشَّاعرُ / عبد الله البردوني اليمني .. وُلِــد فِـــيْ زمــار عــام ١٩٢٦م ، وتلقَّى تعليمهُ في زمار ، ثم في صنعاء .. حيث تخرَّج من دارِ العلوم عام ١٩٥٢م ، وعُيِّن مدرسًا فيها للأدب العربي ، وهُوَ كفيــفُ البصــرِ ذكــيُ الفؤادِ ، غير أنَّهُ عاش على صعيدِ بلادٍ لا تحفلُ بأُدبائِها ومفكريها ، كما تحفــلُ شقيقاتُها { القاهرة ، بغداد ، دمشق ، بيروت ، المملكة العربية السعودية } فــي القرن العشرين بشُعراءٍ لهم شهرتهم ودويهم في المحافلِ الأدبيــة ، والصَّحافــةِ العربية .

ولكن الشَّاعر / البردوني .. برغمِ ما لاقى من إهمالٍ من قومــهِ ، لا يرتفعُ لمستواه الفكري ، برغم ذا وذاك ظهر على السَّاحةِ الأدبية كعلمٍ من أعلامِ الفكر ، فأبرز اليمن بشعرهِ وجعلها في صفٍّ الشقيقات ، فلا عجب : فاليمنُ مهدُ العروبةِ والعربِ وهم من قلبِ أبناء الضَّاد ، فالبردوني أسهم في هذه الحركــة الفكرية الجديدة ، فألَّف كتبًا (رحلةٌ في الشِّعْرِ اليمني قديمُهُ وحديثُهُ) طبــع لأوَّل مــرة عام ١٩٧٢م ، وهُــوَ خلاصةُ عمرٍ ودراسةُ عشرين عامًا فــي الشِّــعْر اليمني – قديمِهِ وحديثِهِ – مــع نظرةٍ عميقــةٍ للحركةِ الوطنيــةِ مــن خــلال الشِّعْر ، وله كتابٌ (قضايا وطنية) طُبع عام ١٩٧٧م (واليمنُ الجمهوري) .

مجموعاتهُ الشِّـعريَّة : { مـن أرض بلقيس - في طريـق الفجـر - مدينـة الغد - لعيني أم بلقيس - السفر إلى الأيـام الخضـر - وجــوه دخانيـة في مرايا الليل - زمان بلا نوعية - ترجمة رملية لأعراس الغبار } .

وقَدْ نعاهُ الأُدباءُ والكُتَّاب اليمنيون ، حيث وافتهُ المنيةُ فجأة بالســكتةِ القلبية ، صباح يوم الأثنين ٣٠ /١٩٩٩/٨م .

كما نُوردُ له أنموذجًا من شعْرِهِ ، وهيَ القصيدة الَّتِي ألْقاها شـاعرُها في أحد المؤتمرات الأدبية ، ونشرتها مجلةُ الآداب البيروتية ، وكان المحررُ لها سهيلُ إدريس ، فهيَ قصيدةٌ حازت رضا الأُدباءِ والمفكِّرين : -



ما أصْدَقَ السَّيْفَ ! إنْ لَـمْ يِنْضُهُ الكَـذِبُ
وَأكْـذَبَ السَّيْفَ إنْ لَـمْ يَصْدُقِ الغَضَـبُ
بِيضُ الصَّفَائِح أهْـدى حيـن تَـحْمِلُهَـا
أيْـدٍ إذَا غَلَبَـتْ يَعْلُـو بهـا الغَلَـبُ
وَأقْبَحَ النَّصْرَ ... نَصـرَ الأَقويـاءِ بِـلاَ
فَهْـمٍ .. سِوى فَهْمِ كَمْ بَاعُوا .. وَكَمْ كَسَبُوا
أدْهَى مِنَ الـجَهْـلِ عِلْمٌ يَطمئِـنُّ إلـى
أنْصَافِ نَـاسٍ طَغَـوْا بالعِلْـمِ وأغْتَصَبُـوا
قَالُوا : هُمُ البَشَرُ الأَرقـى وَمـا أكَلُـوا
شيئًا .. كما أكَلُـوا الإنسـانَ أو شَرِبُـوا
مَاذا جَـرى .. يـا أبَـا تَـمّـامَ تَسألُنِـي
عَفْوًا سَأرْوِي .. وَلا تسألْ.. وَمَا السَّبَـبُ
يَدْمَى السُّـؤَالُ حَيَـاءً حِيـنَ نَسْألُـهُ
كَيْفَ أحتفَتْ بالعِـدَى حَيْفـا أو النَّقَـبُ
مَنْ ذا يُلَبّـي ؟ أمَـا إصْـرارُ مُعْتَصِـمٍ
كَلا وَأخْزَى مِـنَ الأفشيـن مـا صُلِبـوا

اليومَ عـــادَتْ عُلــوجُ الـــرُّومِ فاتِحـــةً
وَمَوْطِنُ العَــرَبِ الـمَسْلُــوبُ والسَّلَــبُ
مَـاذا فَعَلْنَـا ؟ غَضِبنَـا كالرِّجَــالِ وَلَـــمْ
نَصْدُقْ .. وَقَدْ صَـدَقَ التَّنجيـمُ وَالكُتُــبُ
مَاذَا تَرى يـاأبَـا تَـمّام هَــلْ كَذَبَـــتْ
أحْسَابُنَـا ؟ أوْ تَناســى عِرْقَــةُ الذَّهَــبُ ؟
عُروبَةُ اليــومِ أخْــرَى لا يَنُـــمُّ عَلـــى
وُجُودِهـا أسْـمٌ وَلا لَــوْنٌ .. وَلا لَقَــبُ
تِسْعُـــونَ ألْفَـــا لِعَمُّورِيَّـةَ اتَّقَــدُوا
وَللمُنَجِّـــمِ قَالُــــوا : إنَّنَــا الشُّهُـــبُ
قِيْلَ : انْتِظَارُ قِطَافِ الكَرْمِ مـــا انتظـــرُوا
نُضجَ العَنَاقيد ... لكــنْ قَبْلَهـــا التهبُــوا
وَاليومَ تسعـونَ مِلْيُونـــاً وَمـــا بَلَغُـــوا
نُضْجًا ... وَقد عُصِــرَ الزَّيتُـــونُ وَالعِنَــبُ
تَنْسَى الرؤوسُ العَوالـي نَـــارَ نَخوَتِهَـــا
إذَا امتطَاهَـــا إلـــى أسْيَـــادِهِ الذَّنَـــبُ
حَبيبُ وَافَيْتُ مِـــنْ صَنْعَـــاءَ يَحْمِلُنـــي
نَسْرٌ وَخَلْفَضُلُــوعِي يَلْهَـــثُ العَـــرَبُ
مَاذَا أحدِّثُ عَـــنْ صَنْعَـــاءَ يـــا أبَتـــي ؟
مَلِيحَةٌ عَاشِقَاهـــا : السِّـــلُ والجَـــرَبُ
مَاتَتْ بصُنْدوقِ وَضَّـــاحٍ بِـــلاَ ثَمَـــنِ
وَلَــم يَمُتْ فــي حَشَاهَا العِشْقُ وَالطَّـــرَبُ

كانَتْ تُراقِبُ صُبْحَ البَعْـثِ .. فانبعَثـــتْ
في الحُلْمِ .. ثـم ارتَـمَتْ تَغْفُو وَتَرْتَقِــبُ
لـكنَّـها رَغْــمَ بُخْلِ الغَيْثِ مــا بَرِحَتْ
حُبْلَى وَفي بَطْنِهــا قَحْطــانُ أو كَــرَبُ
وَفـي أسـى مُقلَتَـيها يَغْتَلِـي يَمَــنٌ
ثانٍ كَحُلْـمِ الصِّبَـا .. يَنْـأى وَيَقْتَـرِبُ
حَبيبُ تَسألُ عَنْ حَالـي وَكَيْــفَ أنـَـا
شُبَّابَــةٌ فـي شِفَـاهِ الرِّيــحِ تَنْتَحِــبُ
كانَـتْ بِــلادُكَ رِحْــلاً ظَهْــرَ نَاجِيَــةٍ
أمَّـا بِــلادِي فــلا ظَهْــرٌ وَلا غَبَــبُ
أرْعَيْتَ كُــلَّ جَدِيــبٍ لَحْمَ رَاحِلَــةٍ
كانت رِعَتَهُ وَمـــاءُ الــرَّوْضِ يَنْسَكِــبُ
وَرُحْتَ مِنْ سَفَرٍ مُضْــنٍ إلــى سَفَــرٍ
أضْنَى .. لأنَّ طَرِيــقَ الرَّاحَــةِ التَّعَــبُ
لكنْ أنَا رَاحِلٌ فـــي غَيْــرِ مَــا سَفَــرٍ
رحْلِي دَمِـي .. وَطَرِيقِي الـجَمْرُ وَالـحَطَبُ
إذَا امتطيْــتَ رِكَابــاً للنَّــوَى فأنَــا
في دَاخِلِي .. أمْتَطِي نــارِي وأغْتَــرِبُ
قبرِي وَمأساةُ ميــلادِي عَلــى كَتِفــي
وَحَولِــيَ العَــدَمُ الـمَنفـوخُ والصَّخَــبُ
حَبيــبُ هَــذا صَــدَاكَ اليــوم أنْشِــدُهُ
لَكِنْ لِمَاذا تَــرَى وَجْهــي وَتكتَئِــبُ ؟

مَاذَا ؟ أتعجَبُ مِنْ شَيْبِي عَلى صِغَـــرِي ؟

إنِّي وُلِدْتُ عَجُوزًا .. كَيْـــفَ تَـعْـتَـجِــبُ ؟

وَاليومَ أذْوِي وَطَيْـــشُ الفَـــنِّ يَعْزِفُنــي

والأربعــونَ عَلـــى خَـــدَّيَّ تَـلْـتَـهِـــبُ

كَذَا إذَا ابيَّـــضَ إينَــاعُ الـحَيَاةِ عَلـــى

وَجْـهِ الأديـــبِ أضَـــاءَ الفِكْـــرُ وَالأدَبُ

وَأنْتَ مَنْ شِبْتَ قَبـلَ الأربعيـــنَ عَلـــى

نَـــارِ الـحَماسَـــةِ تَـجلُوهـــا وَتَـنْـتَـخِـــبُ

وَتـجتدِي كُـلَّ لِـــصٍّ مُـتْـــرَفٍ هِـبَـــةً

وأنتَ تُـعطِيهِ شِعْـرًا فَــوقَ مَـــا يَهَـــبُ

شَرَّقْـــتَ غَرَّبْـــتَ مِـــنْ وَالٍ إلـــى مَلِكٍ

يَـحثُّـكَ الفَقْـــرُ .. أوْ يَقتَـــادُكَ الطَّلَـــبُ

طَوَّفْتَ حتى وَصَلْتَ الـمَوْصِـــلَ انطفأتْ

فِيكَ الأماني وَلَـــم يَشْبَـــعْ لَـهَـــا أرَبُ

لكِنَّ مَـــوْتَ الـمجيـــدِ الفَـــذِّ يَبْـــدَأُهُ

ولادةٌ مِـــن صِبَاهَـــا تَرْضَـــعُ الحِقَـــبُ

حبيبُ مـــازالَ فـــي عينيـــكَ أسئِلَـــةً

تَبـــدُو .. وتُنْسَـى حَكَـايَاهَا فَتَنْتَقِـــبُ

وَمَـا تَـــزالُ بِحَلْقِي ألْـــفُ مُبْكِيَـــةٍ

مِنْ رَهْبَـةِ البَـــوْحِ تَسْتَحيـــي وَتَضْطَـــرِبُ

يَكْفِيـــكَ أنَّ عِدَانَـــا أهْـــدَرُوا دَمَـنَـــا

وَنَـحنُ مِنْ دَمِنَـا نَـحْسُـــو وَنَـحْتَلِـــبُ

سَحَائِبُ الغزو تَشْوينـا وَتحجُبنـا

يومًا ستحبلُ مِـنْ إرعادِنـا السُّحُـبُ ؟

ألا تَـرى يـا أبـا تَمَّـام بَارقَنـا

إنَّ السَّمـاءَ تُرَجَّـى حِيـنَ تُحتَجَـبُ

۞ ۞ ۞

هذه قصيدةٌ كان لها في دنيا الأدب العربي صدىً ، واحتفلت بها الصَّحافة العربية ، ويجد القارئُ بين كلماتِها صوراً من اللَّهفةِ والوطنية والحماس تتسابُ في أحرفِها ، وتُصوِّر لهفة الشَّاعر تذوبُ حسراتٍ للقضية الفلسطينية ، وإلى وطنهِ اليمن .. حيث يُعبِّرُ بهذا التعبير : -

حَبيبُ وَافَيْتُ مِنْ صَنْعَاءَ يَحمِلُني

نَسْرٌ وَخَلْفَ ضُلُوعِي يَلْهَثُ العَرَبُ

مَاذَا أُحدِّثُ عَنْ صَنْعَاءَ يَا أَبَتِي ؟

مَلِيحَةٌ عَاشِقَاهَا : السِّلُ والجَرَبُ

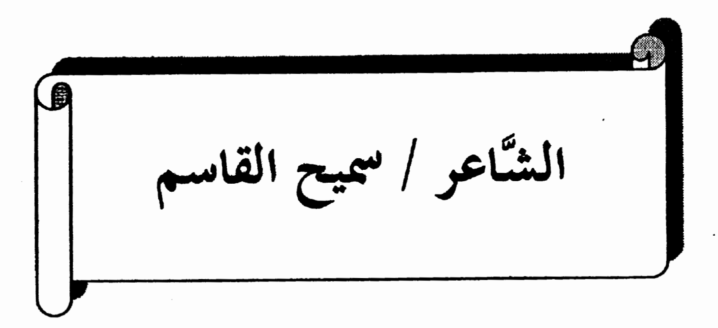
مَاتَتْ بصُنْدوقِ وَضَّاحٍ بِلاَ ثَمَنٍ

وَلَم يَمُتْ في حَشَاهَا العِشْقُ وَالطَّرَبُ

إنَّ هذا المقطع صورةٌ متحرِّكةٌ ، أو شريطٌ سينمائي .. ينقلك إلى رؤية واضحة في صورةِ الشِّعْر الَّذي يمس واقع الحياة ، في تجسيدٍ للألمِ والحزنِ الفتَّاك ، وينتقلُ الشَّاعرُ مفاجأةً .. كنقلةٍ من النقلاتِ الزَّمنية من ربيعِ شبابهِ إلى خريفِ شيخوختهِ ، وهُوَ لا يزالُ يعيشُ على عتبةِ الربيع للمآسي الَّتي تسلسلت صوراً ، في مناظرِ شريطهِ .. فكأنَّهُ في الشيخوخة فيصفُها : -

مَـــاذَا ؟ أتعجَبُ مِنْ شَيْـبي عَلى صِغَـري ؟
إنّي وُلِدْتُ عَجُـــوزًا كَيْـــفَ تَعْتَجِـــبُ ؟
وَاليــــومَ أذْوي وَطَيْشُ الفَــــنِّ يَعْزِفُنــــي
والأربعـــــونَ عَلـى خَــــدَّيَّ تَـلـتَـهِـــبُ
كَذَا إذَا ابيَّضَ إينَـــاعُ الـحَيـــاةِ عَلـــى
وَجْــهِ الأَديــبِ أضَــاءَ الفِكْـــرُ وَالأَدَبُ

وهذهِ اللقطةُ من اللقطات المرَّةِ ، الَّتي تصوِّرُ حياة الأديــب العربــي الَّتي يعيشُها ويُعانـــي من إهمالهِ ، فيلعقُ الأمرَّين { **الفقرَ والإهمال** } ، وهُـــوَ في اكتنازِ شبابِ فكرهِ ، ولكنَّهُ محطَّمُ الأركانِ .. مهدم العمر ، فالبردوني يـرى نفسهُ منذُ ولادتهِ على صعيد الدُّنيا – **ولد شيخًا** – فكيف به والأربعون تلتـــهبُ على جبينهِ وخديهِ ، ولكن الله عوَّضهُ عن هذا الشَّباب الفينان ، الذَّاوي بشـــعاع الفكرِ والأدب ، اللذين لا تنطفئُ شعلتُهُما .. ويظلاَّنِ يضيئانِ الدُّروبَ للأجيالِ .


الشّاعر / سميح القاسم

وُلد الشَّاعرُ بمدينة الزرقاء بالأردن - **عام ١٩٣٩م** - من أسرةٍ قرويةٍ ، وأرتحل مع أسرتهِ إلى بلدةِ الرامة بفلسطين ، وأكمل دراستهُ الابتدائية بمدارسِ الرامة ، وألتحق بعد مدرسة الرامة بالثَّانوية الناصرة ، وعمل في سلكِ التعليم .. إلاَّ أنَّ شعرهُ الثَّائر كان مدعاةً لتسريحهِ من العمل ، فأسهمَ في صحيفتي (**الغد والاتحاد**) ثمَّ عُيِّن رئيسًا لتحريرِ مجلةِ (**هذا العام**) عام ١٩٦٦م ، وعمل رئيسًا لاتحادِ الكُتَّاب العرب ، والاتحادِ العام للكُتَّابِ الفلسطينيين ، كما أسهم في تأسيس منظمة الأرض العربية .

وتاريخهُ سلسلةُ نضالٍ من نضالِ المواجهة ، فقَدْ عُذِب وسُجِن فزادهُ تفاؤلاً ، وكان يرى أن بعد اللَّيلِ نهارًا ، وأنَّ نكبةَ يومِ الخامس من حزيران يراها ولادةً جديدةً للعربِ ، فهُوَ متفائلٌ إلى حدٍّ بعيدٍ .

وقَدْ جُمعت أشعارُهُ عام ١٩٧٣م في ديوان (**سميح القاسم**) ثمَّ كتب روايةً (**إلى الجحيم أيها الليلك**) وهيَ أشبهُ بالتَّرجمة الذَّاتيَّة .

وأنا لمْ أقفْ علَى المجموعةِ الشِّعريَّة .. ولا الرِّواية ، وإنَّما أُسجِّلُ هذه المعلومات عن كتاب { **شاعر وقصيدة** } للأُستاذ / مصطفى طلاس ، ويُضيف الأُستاذ (**لا يزال يقاوم بروح الشاعر الثائر**) وفي شعرهِ كما يقال صرخاتٌ جريئةٌ ، تنعى من خَان **الوطن** ، كما رحَّب بالانتفاضةِ الفلسطينية وكتب فيها قصيدةً ، كما كتبَ (**القصيدة الشامية**) الَّتي تُجسِّدُ حبهُ للوطن العربي ، وتفانيهِ للقضية العربية .. وهيَ تربو على اثنينِ وثمانينِ بيتًا ، نختارُ منها قسمًا كنموذجٍ مثاليٍ : -

القصيدة الشامية

ظَمِيءٌ وَأنــتِ الكـأسُ وَالصَّهبـاءُ
يــا شـامُ ، فليتحلّـقِ النُّدَمـاءُ

حَكَـمَ القضَـاءُ بغربَـةٍ مَغبونَـةٍ
فقضى الكفـاحُ بِـأن يتـم لقـاءُ

وَأتيـتُ . لا متسـلّلاً مُتخفّيـاً
لَكـنْ بمـا يتخيّـلُ الخُيـلاءُ

شَفَتـي مِنصّةُ أمتـي ، وَهَديرُهـا
نُـورٌ تـراهُ الأعيـنُ العَمْيَـاءُ

لبَّيْـكِ ! هَاأنَـذا أعانـقُ إخوتـي
ظَمِئَـا يُسَاقيـه العِنـاقَ ظِمَـاءُ

أوَ مِن مَلامٍ لَـو عَصَبنـا جُرحَنـا
وَحَنَـتْ علينـا ليلَـةٌ قَمْـراءُ ؟

لي فيكِ من فَجرِ الخليقـةِ مَجلِـسٌ
ثَملَـتْ بطيـبِ أريجِـهِ الأرجـاءُ

وَبغيـر فَـوحِ العِـزّ فـي جَنَباتـه
ضَـنَّ اللسـانُ بأنَّـكِ الفيحـاءُ

وانفـضَّ مَجلسُنَا بقـدرةِ قـادرٍ
وَعـلا علـى أقدارنـا الضُّعفـاءُ

بيضٌ صَنائِعُنـا .. وَسـاءَ صنيعُهُـم
سـودٌ وَقَائِعُنـا وَبـي سـوداءُ

خُضرٌ مرابعنــا .. وأُفقــيَ قَاحِــلُ

وَهُمُ الـمواضي .. مِنْ دَمِـي حَـمْــراءُ

وَغَدَوْتُ فـي وَطــنٍ كـأنّ ترابَــهُ

صخرٌ .. وَمــاءَ عيونِــهِ الـخنســاءُ

وَأتيتُ بــي وَجَــعٌ أبُثُّــكِ بَعضَــهُ

فَعســـى تُخففُ وَطــأَهُ صُعَــداءُ ..

من جمَّعَ الأضدادَ حـولَ تُخومِنــا

فَبغــى البُغَــاةُ وَعَربَــدَ الدُّخَــلاءُ ؟

وَبــأيِّ قِسْطَــاسٍ يُراجِــحُ عَدلَنــا

وَحشُ البحــار ، وَحيَّـــةٌ رَقطــاءُ ؟

قَدَرتْ عَلى الوَهَــنِ الـمكبَّل قُــدْرَةٌ

وَعنــا لتجَّــارِ الــدَّمِ الـفُقَــراءُ

وَسَلمـتِ لـي يَا شَامُ دونَ سَلاَمَتــي

وَمكـثـتِ فَلتتبــدّلِ الأنبــاءُ

غَبَرت أميَّــةُ فـــي زمــانٍ غَابِــرِ

لابــأسَ إنَــا الصَّفــوَةُ الـجُلســاءُ

صُبّي حُـميّا الـمَجدِ فـي لَهواتِنــا

فَلكَـم عَطِشنــا ، وَالـخَنَــا سَقّــاءُ

كَرُمَتْ أصولٌ أنتِ بعـضُ فروعِهــا

فَـلتَنضــج الأثـمارُ كيــفَ تَشــاءُ

وقفةً أيُّها القارئُ أمام هذه القصيدة ، الَّتي صاغها شاعرُها مــن روحٍ وطنيةٍ تنبضُ بالحياة ، وتتطاير شررًا من اللَّهفةِ والغيرةِ والحماسِ إلى الوطــن

العربي ، ولَمْ تمنعهُ غربتــهُ المغبونةُ كما عبَّر شاعرُها ، من أن يقف صارخًـــا في أُذن العرب بهذه الصَّرخةِ المدوية ، الَّتي ترتفعُ أصداؤها .. فتملأُ الفضاء .

وهَذا اللَّون من الشِّعْرِ يؤيِّدُ رؤيتَنا لِمَا ذهبنا إليهِ ، مـــن أنَّ الشِّــعْر عنصرٌ له تأثيرٌ في الحياةِ الاجتماعيَّة والفكريَّة في سيرِها السِّياسي .. والوضـــع البيئي ، فمهما تطوَّرتْ الحياةُ في تطوّرِها المُجدُّ السريعُ .. لا يزال الشِّعْرُ يتخلَّلُ ذرَّاتِها ، ويجري في شرايينها ، ويمدُّها بألوانٍ من دفعاتِ العزمِ إلى ميدانِ هـــذه الدُّنيا الصَّاخبة .. الهائجة المائجة .

ونأخذُ على الشَّاعر مآخذًا في هذه القصيدة ، كبعض التراكيب اللفظية الَّتـــي لا ترتفع إلى الجوِّ الشِّعْري ، والقصيـــدةُ تفقدُ فـــي أُسـلوبِها الأُسـلوب الشِّعْري ، وجوهر البلاغة ، والهزَّة الكهربائيَّة .. الَّتي تُشْعِرُك بالنَّشوة ، برغــم مَا فيها من تجسيدِ فكرٍ وطني ، وصرخةٍ عارمةٍ .

الشّاعر / محمد خليفة العيد

الشّاعر / محمَّد العيد بنُ محمد علي بن خليفة .. من محاميد سوف المعروفين بالمناصير ، من أولاد سوف .

ولد في عينِ البيضاء عام ١٩٠٤م ، وأُدخل مدرستَها الحرَّة .. فدرس القرآن الكريم والدروس الابتدائيَّة ، وعام ١٩٢١م غادر بسكرة إلى تونس للدِّراسة في جامع الزيتونة ، وفي عام ١٩٢٣م عاد إلى بسكرة وشارك في النشرِ ببعضِ الصُّحفِ (كالإصلاحِ – وصدى الصَّحراء – والمنتقد والشهاب) مضافًا إلى عملهِ الصَّحفي يقومُ بالتعليمِ .

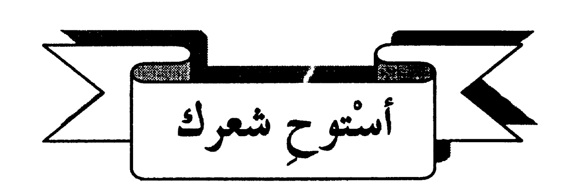
وعام ١٩٢٧م دُعي إلى عاصمة الجزائر ، ليُعلِّم بمدرسةِ الشبيبة الإسلاميَّة الحرَّة ، وترقَّى فأصبحَ مديرًا للمدرسة ، وأسهم في تأسيسِ جمعيةِ المُسلمين في الجزائر ، وأستغلَ هذه الفترة لينشر أعمالهُ الشِّعريَّة .

وفي عام ١٩٤٠م غادر العاصمة { الجزائر } إلى بسكرة ، ومِنها إلى باتنة ، ليقوم بالإشرافِ على مدرسةِ التربية والتعليم حتَّى عام ١٩٤٧م ، وبعدها عُيِّن لإدارةِ مدرسة العرفانِ عام ١٩٥٤م .

وعند اندلاعِ ثورةُ الجزائرِ ضدّ الفرنسيين ، أُغلقت المدرسةُ وزُجَّ بهِ في السجنِ ، ثمَّ أُفرج عَنْهُ .. وفُرضت عليهِ الإقامةُ الجبرية في بسكرةِ مسقطِ رأسهِ .

وقدْ توفَّاهُ الله عام ١٩٧٩م عن عمرٍ يُناهِزُ الخامسة والسبعين ، قضاها في خدمة الجزائرِ والعروبةِ والإسلام .

كما نُوردُ له أنموذجًا من قصيدتهِ ، الَّتي هيَ بعنوان (أسترح شعرك) الَّتي تربو على واحد وستين بيتًا : –



أسْتوحِ شعرك

اسْتَوْحِ شِعْرَكَ مِنْ حَنَايَا الأَضْلُعِ
وَاسْتَجْلِ فِي القَسَمَاتِ حُسْنَ المَطْلَعِ

وَصُغِ التَّحِيَّةَ نَضْرَةً رَفَّافَةً
كَالوَرْدِ ، وَارْفَعْهَا لِهَذَا المَجْمَعِ

قُلْ لِلْجَزائرِ وَهْيَ أُمٌّ مُرضِعٌ
مِثْلُ اللّبُوءةِ أيُّ أُمٍّ مُرْضِعِ

أَبْنَاؤُكِ الأشْبَالُ فِيكِ تَزاوَرُوا
وَتَزَاءرُوا فِي الغِيلِ مِنْكِ بِمَسْمَعِ

تَأبَى الجَزائِرُ أن تَعُمَّ بنَفْعِهَا
مَنْ لَيْسَ يَسْعَى لِلأَعَمِّ الأنفَعِ

قَلَّبْتُ أنواعَ الجِهَادِ فَلَمْ أجِدْ
كَجِهَادِ مُحتَسِبٍ بِهِ مُتَطَوِّعِ

يَا مَوْطِناً لِي خِصْبُهُ وَنَعِيمُهُ
وَلَهُ هَوَايَ عَلَى المَدَى وَتَشَيُّعِي

مُصْطَافِيَ البَاهِي الظَّلِيلُ وَمَخرفي
الزّاهِي وَمَشْتَايَ الجَميلُ وَمَرْبَعِي

مَازَالَ حُبُّكَ نَاشِئاً مترَعْرِعاً
فِي نَاشِئٍ بِجَوَانِحِي مُتَرَعْرِعِ

أقْسَمْتُ لَوْ خَيَّرتَنِي فِي مَصْرَعٍ
مَا اخترْتُ إلا في سَبيلِكَ مَصْرَعِي

إسْأَلْ أجِبْ وَامُرْ أطِعْ وَاصْرُخ أغِثْ
وَاصْفَحْ أنِبْ وَاسْمَعْ أقُلْ وَانصَحْ أعِ !

هَا أنتَ في وَسَطِ الزّعَازِع ثَابتٌ
بَاقٍ عَلى الإِسْلاَمِ لَمْ تَتزَعْزَعِ

إفْريقيَا أخْتُ الحِجَاز دِيَانَةً
وَرَبيبَةُ البَيْتِ الحَرَام الأمنَعِ

قِفْ بي عَلَيْهَا بُرهَةً نَنصَحْ لَهَا
أن تَسْتَعِدَّ لِيَوْمِهَا المتَوَقّعِ !

العِلْمُ سُلْطَانُ الوُجُودِ فَسُدْ بِهِ
مَنْ شِئْتَ أوْ ذُدْ عَنْ حيَاضِكَ وَادْفَعِ

قُل لِلْجَزَائِر أنشِئي كُلّيّةً
تَمحُو جَهَالَةَ شَعْبِكِ المتَسَكّعِ

الفَجْرُ يُؤْذِنُ بالطُّلُوعِ فَرَحِّبي
بالنُّور غِبَّ ظَلاَمِكِ المتَقشّعِ

فِرْدَوْسُكِ المفَقُودُ سَوْفَ يَرُدُّهُ
مَنْ رَدَّ قَرْنَ الشّمْسِ يَوْماً لِيُوشَعِ

حَتّى أرى فيكِ المسَيْطِرَ عَادِلاً
وَأرى لَدَيْهِ الحَقَّ غَيْرَ مُضَيَّعِ

وَأرى عَلى الأَقْطَار عَرْشَكِ سَائِداً
مِنْ تَحْتَ تَاجٍ بالقُلُوبِ مُرَصَّعِ

فَأُزيحَ عَنْ نَفْسي مَرَارَةَ بؤسِهَا
وَأريحَ عَيْني مِنْ حَرَارَةِ أدمُعي

قَدْ كِـدْتُ أجْفُـو الشِّعْرَ لَـوْلاَ أنَّ لـي
بالشِّعْـــرِ بَعْـــضَ تَعَـــلُّلٍ وَتَـمَـتُّـــعِ
فِي كُـــلّ رُكْـــنٍ رَاصِـــدٌ مُتَسَمِّـــعٌ
عَنّـــي بجَانِـبِ رَاصِـــدٍ مُتَسَمِّـــعِ
لاَ ذُخْرَ كالأعْمَـال عِنْـــدَ صَلاَحِهَـــا
فاجْعَـلْ مِـــنَ الأعْمَـــال ذُخْـرَكَ أوْدَعِ

❁ ❁ ❁

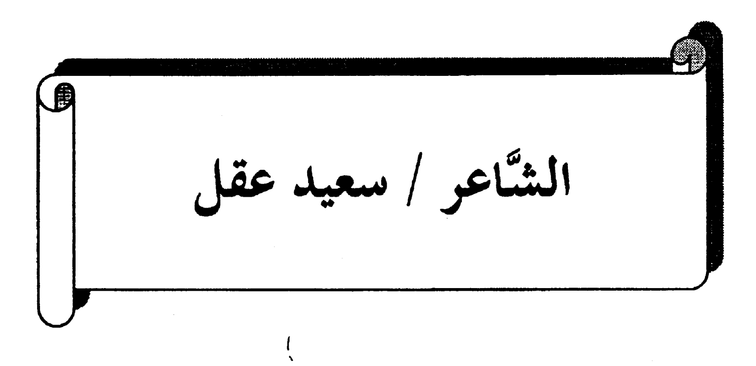
أستمع معي أيُّها القارئُ إلى هذا الصَّوت الوطنـــي ، المنبعـث مـــن جراحاتِ فـؤادٍ .. من قَلْبِ شعْـبِ ثائـرٍ ، يعيشُ علَى كفٍّ العواصف وفـــي قَلْبِهَا ، كسفينـــةٍ تتقاذفُها الـدأماءُ تحتَ أزيـــز الطـائرات ، وهديـر مدافـع الاستعمار الفرنسي .

فالجزائــر البطلةُ الثَّائــرة : فهـــيَ الَّتـــي حطَّمـــت كبريـاء الفرنسيين ، حتَّى أخضعت فرنسا لإرادة هَذا الشعب ، الَّتي هَذه القصيدة صــدًى من أصداءِ ثورتهِ ، وكَان الشَّاعرُ في هــذهِ القصيدة متفــائلاً بشــروقِ شــمسِ الحريةِ ، ونحرِ اللَّيلِ المبطّن سماء الجزائر ، الَّذي يعقبهُ فجرٌ باسمٌ .. وصبـــحٌ مشرقٌ : -

الفَجْرُ يُـــؤْذِنُ بالطُّلُـــوعِ فَرَحِّبِـــي
بالنُّـــور غِـــبَّ ظَلاَمِـــكِ الـمتَقَشِّـــعِ
فِرْدَوْسُـكِ الـمفْقُودُ سَـــوْفَ يَـــرُدُّهُ
مَنْ رَدَّ قَرْنَ الشَّمْـــسِ يَوْمـــاً لِيُوشَـــعِ

ويختتمُ الشَّاعرُ هَذا المقطع بنداءٍ توجيهي للتمسك بعقيدة الإسلام ، برغمِ المغرياتِ الَّتي زرعها الغربُ تحتَ ظلال استعماره ، من ألغامٍ زرعها لتفتك بالمسلمين .. وتزعزعهم عن عقيدتِهم ، فهُوَ برغمِ هذه المحاولات والإغراءات ، فهُوَ باقٍ على عقيدتهِ (**ثابتٌ على الإسلام**) لا تزعزعهُ عواصفُ المغرياتِ ، ويضربُ مثلاً في ثباتِ المسلمين ، فيرى الجزائر الَّتي هيَ قطعةٌ من أفريقيا ، هيَ أختُ الحجازِ في العقيدةِ والدِّين – لا تفارقُها – وإنَّ الأعمال الصَّالحات هيَ الكنز المذخور { **فنعم هذا الكنز** } .

... وقبل أنْ نختتم هَذا التعليق ، نأخذُ على الشَّاعرِ مأخذًا : حيثُ أنَّ هذه القصيدة لَمْ ترتفع إلى الأُسلوب الشِّعري (**الَّذي نُسميهِ شعْرًا**) برغمِ مَا فيها من حماسٍ ، ودفعةٍ وطنية .


الشّاعر / سعيد عقل

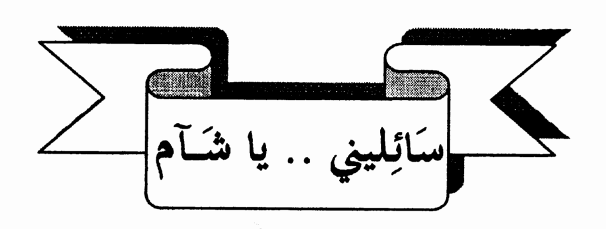
سعيد عقل : شاعرٌ من أصحابِ المدرسةِ الرَّمزيَّةِ ، الَّذين أوغلوا في هذه المدرسة ، حتَّى تغلَّفوا واختفوا وراء هذهِ الرَّمزيَّة " كما يختفـي النجـمُ وراء الضَّباب .. أو الكف وراء القفاز " ، وانسابت من كلماتهم إشــاراتٌ لا تكــادُ أنْ تبين أو تفصحُ عن سرٍّ مَا في الجوهر ، الذي جاء بهِ المفكِّر في أُطروحةٍ لشاعرٍ أو كاتــبٍ ، هدفهُ الرسالي إيصالُها للجمهور من القُــرَّاء ؛ فلمــاذا يكتبــون ؟! ولماذا لا ينطون على أنفسِهم ، ويعيشون في أجواءِ رموزهم .. إذْ لا فائدة مــن هذه الأُطروحات ؟!! لأنَّها لا تفتحُ حروف رموزٍ لــــهذه الفكـــرة وتوصلُــها للأذهان ، أوْ : كيف يكونون أصحابِ منهجٍ ، يحملــون أمانةً لتبليغِ النَّاسِ مــا فيها من بياناتِ صورٍ ، تنطوي على المعاني والأهــداف ، الَّتي صاغها فكــرُ ذلك الشَّاعرُ أو الكاتبُ ، ليرسلوها فكرةً واضحةً كضوءِ القمـــر .. أو طيــوفِ الشَّمسِ البنفسجيةِ ، فيشربُ من ضوءِ كؤوسِها القــــارئُ ؟!! وعلــى الشَّــاعرِ والكاتب أنْ يبلغ خواطرهُ في رسمةٍ ، تُبينُ للهدف تلك الكلماتُ التعبيريــة ، وإلاَّ كان حرفهُ لا يتعدَّى محيطهُ الذَّاتي .

ولا يستطيع القارئ أنْ يتسلَّل في ذلك الحرف الأخضر ، ليصل إلــى روحِ الكاتب أو الشَّاعر فيترجمه ، لأنَّ الحرف في بلاغتهِ – يرسم – روح ذلــك الشَّاعــر أوْ الكاتــب ، فنصل لها عن طريق حرفــهِ ، ونكتب عَنْــــهَا وعــن حياتـــه ، ومَا كَان فيها من خيرٍ أوْ شرٍّ ، فسعيد عقــــل أختــار لنفســهِ هــذه الرَّمزيَّة ، فجُلُّ شعْرِهِ نما وعاش غرسةً في صعيدِ هذه المدرسة .

وُلد في { زحلة } مدينــة الجمال ، وهــيَ مدينــة من مدن لبنـــان عام ١٩١٢م ، وقَــدْ كتب من الحرفِ كتبًا ، فألَّف مجموعاتٍ شعْريَّة وقصصية

أشهرُها (رندلـــي – المجدلية) وأصـــدر مسرحيتيـــنِ شعريتين همـــا (بنتُ يفتاح – قدموس) .

ونختارُ له مقطع من قصيدته (سائليني يا شآم) الَّتـــي تربـــو علـــى سبعين بيتًا : –



سائـلينـي حِينَ عَطَّـرْتُ السَّلاَمْ
كَيفَ غَـارَ الـوَرْدُ وَاعْتَـلَّ الخُـزَامْ

وأنا لَوْ رُحْـتُ أسْتَـرْضـي الشَّـذَا
لانثَـنـى لُبنَـانُ عِطْـرًا ، يَـا شَـآمْ

ضِفَّتَاكِارْتَاحَتَـا فـي خَاطِـري ،
وَاحْتَمَى طَيـرُكِ فـي الظَّـنّ وَحَـامْ

نُقْلَـةٌ فـي الزَّهْـرِ أمْ عَنْدَلَـةٌ
أنتِ فـي الصَّحْوِ وَتَصْفِيـقُ يَمَـامْ ؟

أنـا إنْ أوْدَعْـتُ شِعْـرِي سَكْـرَةً
كنْتِ أنتِ السّكْبَ أو كنْـتِ المُـدَامْ

رُدَّ لـي مِـنْ صَبْوَتـي ، يَابَـرَدَى
ذِكْـرَيَـاتٍ زُرْنَ فـي لَيَّـا قَـوَامْ

لَيلَـةَ ارْتَـاحَ لَنَـا الحَـوْرُ فَـلاَ
غُصُـنٌ إلا شَـجٍ أوْ مُسْتَهَـامْ

وتَهَاوَى الضَّوْءُ إلا نَجْمَةً

سَهِرَتْ تُطْفِي أوَامًا بِأُوَامْ

سَأَلَتْنِي فِي دَلاَلٍ قُبْلَةً

يَعْصِرُ الدَّهْرُ بِهَا كَأْسَ غَرَامْ

وَارْتَمَتْ يَكْسِرُ مِنْ هُدْبٍ لَهَا

مُسْهَبِ الطُّولِ حَيَآءٌ وَاحْتِشَامْ

وَجِعَتْ صَفْصَافَةٌ مِنْ حُسْنِهَا

وَعَرَا أغْصَانَهَا الخُضْرَ سَقَامْ

فَحَسَرْتُ الشَّعْرَ عَنْ جَبْهَتِهَا

اسْأَلُ الْحُسْنَ أفِي الأَرْضِ أقَامْ ؟

وَتَأَنَّيْتُ أمَلِّي خَاطِرِي

قَبْلَ أنْ يَحْجُبَهَا ضَمُّ الهُيَامْ

أوْ لِخَوْفٍ بِي عَلَى ثَانِيَةٍ

سَوْفَ تَمْضِي فَمُنَى العُمْرِ حُطَامْ

لَمْ تَدَعْ لِي شِقْوَةً أحْيَا بِهَا

وَرَنَتْ يَمْرَأُ عَيْنَيْهَا ابتِسَامْ

أوْمَأَتْ لِي ... فَامَّحَى كُلُّ سَنًى

مُرْهِقٍ ، غَيْرَ فَمٍ عَذْبِ المَلاَمْ

وَإذَا قُبْلَتُنَا فَرٌّ إلى

عَالَمٍ أبْهَى وَسُكْنَى فِي مَنَامْ

تَقِفُ النَّجْمَةُ عَنْ دَوْرَتِهَا

عِنْدَ تَغْرِيْنِ وَيَنْهَارُ الظَّلاَمْ

طَوِّفـــي بـــي ذِكْرَيَاتـــي ، طَلْقَـــةً
وَاغْنَمِـــي أطْيَـــابَ ذَيَّـــاكَ الوِئَـــامْ

وَامْرَحـــي بَيْـــنَ دِمَشْـــقٍ وَحِـمَـــى
تِـلْـكُـمُ الصَّـفْحَةِ فـــي رِفْعَـــةِ هَامْ

خَطَّهَـــا صِيـــدٌ أبَـــاةٌ غَصَبُـــوا
حَـقَّـهُمْ ، وَالـحَـــقُّ غَصْـبٌ أو حِـمَـــامْ

غَالَبُـــوا السَّيْـــفَ عَرِيقًـــا حَـــدُّهُ
فَانْثَنَى السَّيْـــفُ وَفي الـحَدِّ احْتِـــدَامْ

هـــذِهِ الغُـوطَـــةُ أوْفَـــى تُربَـــةً
بِهِـــمُ أمْ جَبَـــلُ النَّـبْـكِ القُـــدَامْ ؟

كَـمْ فَتًـــى بَـاتَ فِرَاشًـــا سَرْجُـــهُ
نَامَ وَالكَـفُّ عَلَـــى سَيْـــرِ اللِّجَـــامْ !

وَفَتَـــاةٍ خَـلَـعَـتْ أسْـوَارَهَـــا
تَشْتَـرِي حَلْيًا لَـهَـــا غَيْـــرَ كَهَـــامْ !

وَشُجَـــاعٍ لَـــمْ يَسَعْـــهُ عُمْـــرُهُ
رَاحَ يَـحْيَـا سَعَةَ الـمَـــوْتِ الـــزُّؤَامْ !

أسُـــدَ الثَّـــوْرَةِ ! وُسِّدْتُـــم ثَـــرًى
هُـــوَ مِـــنْ مَشْرِقِنَـــا الأَرْضُ الـحَـــرَامْ

طَيَّبَتْـهُ مِـنْ جَـــنُـــوبٍ نَفْحَـــةٌ
عَبَقَتْ مِنْ ضَاربٍ فـــي الأُفْـــقِ سَـــامْ

جَـبَـــلٌ يَـجْمَـــعُ فـــي أصْلابِـــهِ
دَعَةَ السَّفْـــحِ إلـــى عِـــزِّ السَّنَـــامْ

التُّـرابَـــاتُبِــــهِ أهْـــلُ وَفَــــا

وَمَحَكٌّ يَـــــزِنُ الحُــــرَّ الهُمَــــامْ



هذه قصيـدةٌ وصف الشَّاعـرُ فيـها منابــــع ســوريا ومرابعِــها الخضراء ، فهُوَ يطوفُ بك على مناظرٍ تتفجَّرُ بالخيالِ ، وتســـمو بالمعنويــات الرُّوحية لما تمرُّ بهِ من جنَّاتٍ خضراء ، وعذوبةِ أجواءٍ صافيةٍ تحلو لك فيــــها الإقامةُ والحُلْمُ اللَّذيذ ، فشاعرُها يمرُّ بك على واقــعٍ مُشاهدٍ محسوسٍ ، وبرغـمٍ مَا فيها من تجسيدِ مناظرٍ طبيعيَّة .. فإنَّها لَمْ تخلو من مسحةِ طابعٍ مــن ظــلالِ الرَّمزيَّة الواضحـــة ، فالرَّسمةُ تُغلِّفُ بعضَ أحــــرفِ خطوطِـها بالإشـارات الرَّمزيَّة ، الَّتي تُشيرُ من وراءِ آفاقٍ مضبَّبةٍ بأهدافٍ ، لا تكادُ تطلعُ مــــن وراءِ تلك السُّحب الكثيفة ، وتعبِّرُ عن مفاهيمٍ ترمزُ لها تلك الكلمات بمعانٍ ، لا تُقــرأُ من مرآةِ فكرٍ يتموَّجُ على صورِ مرآةٍ ، تموجُ بالألوان والظِّلال الظَّليلة : -

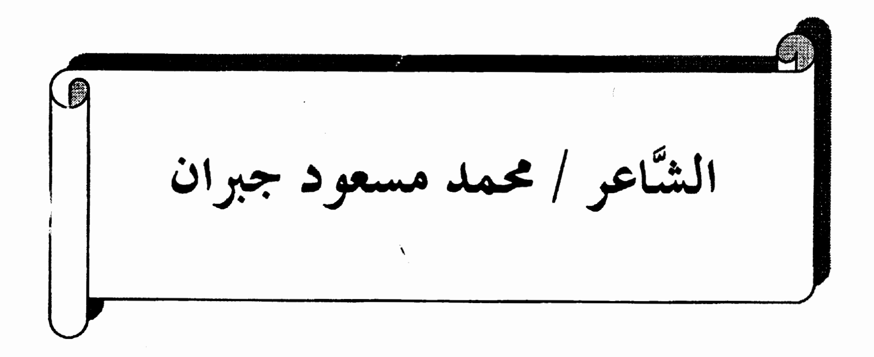
سَـأَلَـتْـنِــــي فـــي دَلاَلٍ قُـبْـلَــــةً

يَعْصِرُ الدَّهْـــرُ بِهَـــا كَـــأْسَ غَـــرَامْ

إنَّ ظلال هذا البيت وما بعده من مقطعٍ ، فيهِ إشــارةٌ رمزيَّــةٌ إلــى سوريا .. لا إلــى الكعاب ، فالرَّمزيَّةُ هنا : ليست مُغلَّفةً بـــالغموض الَّـذِي لا يفهمُهُ حتَّى كاتبيها ، فإذا سألتهم عن محتوى ما كتبوه من شعرٍ أو نثرٍ ، كـــانت الإجابة من جنسِ المقولة – **مغلفة باللامفهوم** – فإذا كـــان المفكّـرُ هدفــهُ مـــن أُطروحتهِ إيضاح ما فيها من أسرارٍ ، لتبليغِ تلك الرسالة لمجتمعهِ أو للأجيـــال

الآتية ، وهيَ لا تدركُ .. أو بالأحرى لَمْ تتضح لها الأهدافُ المنسابة في تلــك الحروف الخضــراء ، فما الهدفُ من تلك الرسالة ؟ والأجدرُ بمنشئِها أنْ تتقوقع في محيطهِ ، ويغرقُها موجُ الزَّمنِ ، وما وجدت رسالةُ الفكرِ إلاَّ لتُعالج مَا فـــي الحياة من صورٍ اجتماعيَّة متباينة الألوان .. وآلامٍ نفســيَّة وسياســيَّة ، فكــان عنصرًا حيًّا لــه دورٌ مؤثــرٌ في الحيــاة ، وقَدْ بقــي حيًّا يعيشُ فـــي ميــدانِ الحياةِ ، ويُصارع الحياة ويؤثر في روحِها وجسدِها ما دام هُوَ شــعْرًا ، برغــمِ جدتهِ أو قدمهِ .. فهُوَ في انطلاقتهِ { صباحُ فجرٍ } ينحرُ اللَّيلَ ، وشمسٌ تمــزّقُ الضَّبابَ .

... ونكتفي بهذه اللَّمحة .


الشّاعر / محمد مسعود جبران

محمَّد مسعود جُبران : وُلد عام ١٩٤٦م في مدينةِ طرابلس الغـــربِ بليبيا ، وتلقَّى تعليمَهُ في طرابلس ، وحصل على دبلومِ مدرسةِ الصَّحافـــةِ مـــن مدارسِ المراسلاتِ المصرية ١٩٦٢م ، وتخـــرَّج من معهدِ المعلمين بطرابلـــس عام ١٩٦٨م ، وحصـــل علـــى ليسانس اللُّغةِ العربيةِ مـــن جامعـــةِ طرابلـــس ١٩٧٥م ، ونال درجـــة الماجستير في الأدبِ العربـــي مـــــن جامعـــةِ الفـــاتح ١٩٨٢م ، وهُوَ الآن يعدُّ لنيلِ درجةِ الدُّكتوراه في جامعة محمد الخامس .

كما عمِل مدرسًا في التعليم العام ، وعضو هيئةِ التدريسِ في التعليـمِ الجامعي عام ٦٨ – ١٩٩١م ، وكان أمين التحريرِ المســـاعد لمجلـــةِ البحـــوث التَّاريخيَّةِ ، وشَارك في النَّدواتِ الأدبيَّةِ والعلميَّةِ في ليبيا وخارجِها .

مؤلفاتـــه : { **أحمد الفقيه حسن (الحفيد) – محمد كامل بن مصطفى – مصطفى بن زكـــري – أحمد الفقيه حسن (الجد) – سليمان الباروني** } .

آبَ الفؤاد إلـــى أفيائِهـــا طَرَبـــا
واسترْوح السحر من أنسامِها رضَبَـــا
قـد عللتنـي مـن الأمـــواه صافيـــة
كأنهـا الـراح تعلـي فوقهـا حَبَبـــا
أعبُّ مـن نهرهـا ألطـاف مرشفهـا
مثل اللجين ينسّـي صفوها التعبـا
عروسة الكون تاهت فـي ملاءتهـا
ففاح من نشْرها ما كان محتجبـا

يا درة الشرق في أخلاقها عبقت
وفي بنيها فصاروا مثلها نجبا

زهر المشارب إن تمسَسْك عارفة
من العوارف تلق الخير والحسبا

يا نكهة الشام في أغوارها برقت
شم الفوارس أفدي جيشها اللّجِبا

بنو أمية ماسوا في مساربها
كباشق الطير يمضي في الفضا عجبا

هل تذكرون صلاح الدين إذ زحفت
منه الزحوف جهادا تدحر الصلبا

سنابك الخيل تمضي من مضاربها
توري العثير إذا ما أقبلت لهبا

في مجتلى الفخر ترنو من منارتها
على المدائن تُسدي للعلا قشبا

أنهلتُ روحيَ من أسوارها نُحتت
إذ أكبر الدهر منها معقلا أشبا

على القباب من الماضين مزدهر
وفي المآذن ألقت للسنا شهبا

تُزهى دمشق وفي الأمصار مغتبط
قد هزها الكبر من تاريخها نسبا

فتلك أرباضها بالزهر كاسية
ريح الخزامى يُساري بينها قصبا

أشم من عطرهـا أنفـاس مَنبـجهـــا

قد راقنـــي قدهـا إذ عانقـــت حلبـــا

يا جلق الـمـجد ما فـي الـمشرقين يـد

تدافـع الشـام عمـا كـان قـد ركبـــا

أتى بتـاج مـن الأضـواء فـانـتـظمـــت

ربوعـه الـفيـح مـن أبهائـــه خصبـــا

يا روعة الشام فـي قسيـون مافتئـــت

تضفي الـوداد علـــى زوارهـــا حدبـــا

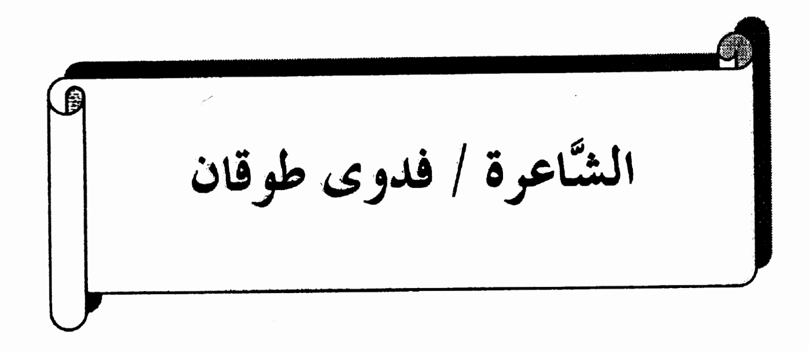
هفا الـمشوق إلى ريـاك فانبـجســـت

في خافـقـيــه مــن الآمـــال مـــا طـلـبـــا



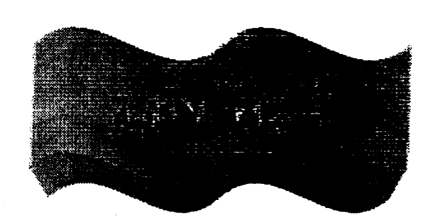
إنَّ الحياةَ الأدبية في صعيدِ ليبيا ، لَمْ يكن لها الدورُ في سماء الفكـــرِ كالشقيقات { كالكنانة وبغداد وبيروت ودمشق } فكانت قليلة الظلِّ .. منكمشـــةً منطويةً في آفاقِها ، لا تلوحُ من تلك الأفق بإصبعٍ تُشيرُ إلى صورٍ مـــن ألـــوانٍ أدبيَّةٍ ، وتُسقي العقول من كأسِها الشَّفافِ قطراتٍ من أشعــــةِ شمسِـــها ، وقَـــدْ أردتُ أنْ أُترجم لأحدِ أُدبائِها وشُعرائِها – **ممثلةً في هـــذا الشَّـاعر** – وقـــد يكـــونُ مغموراً عند رجال الفكر ، وقَدْ يكونُ علمًا ، فالدعايةُ الإعلاميَّةُ للأدبِ العربـــي باهتة اللّون ، لَمْ تعنى بمفكريها وأدبائِها ، وأستثني الشقيقة مصر .. لأنَّها تقـــدِّرُ مفكريها من رجالِ العلـمِ والأدبِ ، حيثُ لا يضيعُ المفكِّر أو الأديـــب ، الَّـــذي ينبت على صعيدِها غرسةً تتعهدُها ، حتَّى تنمو وتصيرُ كالسِّـــنديانة .. ويمتـــدُّ عنقُها عاليًا .

وبعد هذه التوطئةِ ، نعودُ لقصيدة الشّــاعر الليبـــي .. أو بـــالأحرى العربي ، فهي قصيدةٌ لا ترتفعُ إلى ذروةِ الشِّعْرِ - بما هو شعر - ولا تسفُّ كـــل الإسفافِ إلى السفحِ ، وإنْ تخللتها مقاطـــعٌ عليها مآخذٌ ، ولكن بمجموعِ لونِـــها كما أشرنا إليها سابقًا .


الشّاعرة / فدوى طوقان

الشَّاعرة / فـدوى طوقان : كَان لها صدًى في دنيا الأدب ، وحفلـت بها الصَّحافةُ ، وأُعدَّت عَنْهَا الدراسات في نجومِ ألوانٍ من مفكرين كُثْر ، علـى اختلافِ أذواقهم ومقاييسهم الأدبيَّة ، وهيَ من الشَّاعراتِ الرُّومانسياتِ .. الَّتـي صبغت شعرها بمسحةِ طابـعٍ تراجيديٍ - أي حزين - فشعرُها يسـيلُ أوتـاراً باكيـة وتتفجَّرُ ألحـان شجًـى ، تتدفَّقُ على مذبحِ اليأسِ فـي أكـثرِ صـورِ دواوينها ، وتفاؤلٌ في ظلٍّ بصيصٍ ينسابُ من خلالِ أشعارِها .

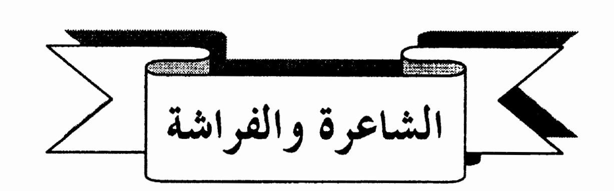
ولدت فدوى طوقان عام ١٩١٧م بفلسطين ، فتلقَّت تعليمها الابتدائـي في مدينة نابلـس ، وثقَّفت نفسها عن طريق القراءة ، والتحقت بـدوراتٍ فـي اللُّغةِ الإنجليزيةِ والأدبِ الإنجليزي ، وعضوة في مجلسِ أمناءِ جامعةِ النَّجـاح بنابلس ، حضرت العديد من المهرجاناتِ ، والمؤتمرات العربية والأجنبية .



{ وحدي مع الأيـام ــ وجدتها ــ أعطنا حبـا ــ أمـام البـاب الـمغلق ــ الليـل والفرسـان ــ على قمـة الدنيـا وحيـداً ــ تـموز والشيء الآخر ــ رحلة صعبة ــ رحلة جبلية } .

ـ مذكرات ـ

حصلت على جائزة رابطة الكُتَّاب الأردنيين عام ١٩٨٣م ، وجـائزة الزيتونـة الفضيـة من إيطاليـا ، وجائـزة درع الريـادة الشِّعريـة مـن الأردن ، وصدرت عنها دراسات من عدّة مفكرين ومفكرات وأديبات .



الشاعرة والفراشة

هنـــاك فـــوق الربـــوة العاليـــه
هنـاك فـــي الأصائـل الساجيـــه
فتــــاة أحـــلامٍ خياليّـــــة
تسبـح فـــي أجوائهـــا النائيـــه
الصمــت والظـــل وأفكارهـــا
رفاقهـــا ، والسرحـــة الحانيـــه
حياتهـــــا قصيـــدة فــــذّةٌ
منبعهـــا الحـــسُّ ونيرانـــــه
وحلـــم محيَّـــر تائـــــةٌ
مـــن قلـــق اللهفـــة ألوانـــــه . .
حياتهـــا بحـــر نـــأى غـــوره
وإن بـــدت للعيـــن شطآنـــــه
رنـــت فتـــاة الشعـــر مأخـــوذةً
بصـــور الطبيعـــة الخالبـــــه
والأفـق الغربـــي تطفـــو بـــه
ألوانــــه الورديـــة اللاهبـــه
كأنـــــه أرض خـــرافيَّـــــةٌ
هـــوت إليهـــا شمســه الغاربـــه
وذّت وفيهـــا لهـــفٌ كاســـحٌ
لـــو تأخـــذ الكـــون إلـــى صدرهـــا

تحضنه وتشبع الروح من

آياته الكبرى ومن سحرها

تعانق الأرض .. تضمُّ السما

تقبِّل الغيوم في سيرها

ودفعت بعينها في المدى

تنهبه بالنظرة الواغله

ما أجمل الوجود ! واستغرقت

في نشوة فائضة شامله

تلتهم الكون بإحساسها

بقلبها ، بروحها الذاهله

ما أجمل الوجود !! لكنها

أيقظها من حلو إحساسها

فراشة تجدَّلت في الثرى

تودعه آخر أنفاسها

تموت في صمت كأن لم تفض

مسارح الروض بأعراسها . .

دنت إليها وانثنت فوقها

ترفعها مشفقةً حانيه :

أختاه ، ماذا ؟ هل جفاك الندى

فمت في أيامك الزاهيه ؟

هل صدَّ عنك الزهر ؟ هل ضيَّعت

هواك أنسامُ الربى الساريه ؟

كم أشعلت روحك حمَّى الصبى

وأنت سكرى بالشذى والرضاب

طافرةً بين رياض الهوى

راقصة فوق الربى والهضاب

توشوشين الزهر حتى يُرى

منفعلاً من هذيانِ الشباب

كم بلبل بالورد ذي صبوةٍ

ألهبت فيه الغيرة السّاعره

كم زنبق عانقته كم شذى

روّيت منه روحك الفائره . .

فأين منك الآن دنيا الهوى

وأين أحلام الهوى الساحره !!

ماذا ؟ تموتين ؟ فواحسرتا

على عروس الروض بنت الربيع

أهكذا في فوران الصّبى

يطويك إعصار الفناء المريع

وحيدةً ، لا شيَّعتك الربى

ولا بكى الروض بقلب صديع ؟

أختاه لا تأسي فهذي أنا

أبكيك بالشعر الحنون الرقيق

قد أنطوي مثلك منسيَّةً

لا صاحب يذكرني أو رفيق

أواه ! ما أقسى الردى ينتهي
بنا إلى كهف الفناء السحيق !

واضطربت أعماقها مثلما
دوَّم إعصارٌ بقلب الخضم

وانتفضت مذعورة في أسىً . .
وارتعدت مرعوبة في ألم . .

فلم يكن يصدم أحلامها
إلاّ رؤى الموت وطيف العدم

وحدَّقت في غير شيء وقد
حوَّمت الأشباح في رأسها

لا صور الوجود خلاّبةٌ
تبتعث النشوة في نفسها

ولا رؤى الخيال رفّافة
تخدِّر المحموم من هجسها

ودفق الليل كبحر طغى
فانحدرت تحت عباب المساء

تخبط في الدرب وقد غمغمت
شاخصة المقلة نحو السماء :

يا مبدع الوجود ، لو صنته
من عبث الموت وطيش الفناء ! .



هذه قصيدةٌ وصفيــةٌ لصورِ الطَّبيعةِ الخلاَّبةِ ، والفراشـــةِ الجميلــةِ الخفيفة الظّلِّ ، الَّتي ينسكبُ في جناحيها ألوانٌ من طيــوفِ الشَّــمسِ ، ففــدوى أبدعت في هذه القصيدة وصّافةً ، غير أنَّها لَمْ تخرج من ظلِّ مأســاتِها ، الَّتــي تعيشُ تحت أجوائها الكئيبة المبطَّنة بغمامِ الحرمانِ ، واليأس القاتل يتمــدَّدُ فــي كلماتِ قصائدِها ، لا تكادُ أنْ تفلت من قبضتهِ قصيدةٌ ، كما أنَّها أفلتت من قيــدِ وحدةِ القافية ، فتعــدّد القافيــة يخلقُ أجواءً حُرَّةً .. يتنفَّسُ الشَّاعرُ الأكســجين ملء رئتهِ ويطيرُ فيها بجناحين قويين .

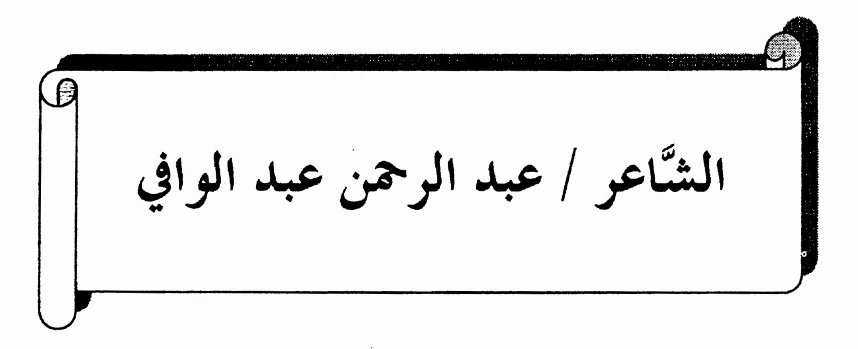
فالقصيدةُ .. من ديوان وحدي مع الأيام ، وهذه التسمية تُشعرُك بمــا ورائها من حــزنٍ عميــقٍ ، يعومُ في نفــسِ الشَّــاعرة ، ويــتراقصُ أشــباحًا مخيفة ، ولكن نأخذُ عليها مأخذًا { هو من هناتِ الغلطاتِ } الَّتي لا يتنبَّــه لــها البشر في قولِها : –

يـا مبــدع الوجــود ، لـو صنتــه

من عبث الـموت وطيــش الـفنــاء ! .

هذا منطقٌ لا يليقُ الخطاب بهِ – من عبدٍ مملوكٍ إلى مالكهِ – خــالق السَّماواتِ والأرض .. خالق الإنسان .. خالق كل شيء ، فالموتُ هــو رحمــةٌ بالبشرِ ، وحكمةٌ من حكيمٍ عليــمٍ .. ولولا الموتُ لفسدت الحياة ، ولكن حكمــة الله الَّتي تخفى على بعض العقــول الضريــرة ، لَمْ تدرك سرّ الموت ، فإنَّــها نقلةٌ من عالمٍ فانٍ إلى عالمٍ خالدٍ ، ليُثاب فيه المحسن ، ويجزى فيه المسيء .

... هذا ما أردنا إيضاحه لرفعِ الملابساتِ .


الشّاعر / عبد الرحمن عبد الوافي

وُلد الشَّاعر / عبد الرحمن عبد الوافي في فجيــج بــالمغرب – عام ١٩٤٦م –وتلقَّى تعليمهُ الابتدائي والإعدادي في مسقطِ رأسهِ ، ثُمَّ أنتقــلَ إلــى مدينة سلا عام ١٩٦٣م ، لمتابعةِ تعليمهِ الثَّانوي ، وألتحــق بالمدرســةِ العليــا للأساتذةِ ، وبعد عامينِ حصل على دبلومٍ في اللُّغةِ العربية عــام ١٩٦٧م ، ثُــمَّ حصل على إجازةٍ في الأدبِ العربي عام ١٩٧٨م ، وعلــى شــهادةِ الــدروسِ الجامعية العليا عام ١٩٨٥م ، وعلى دبلومِ الدراساتِ العليا عام ١٩٨٨م ، ويعــدُّ الآن لنيلِ دكتــوراه الدولة في موضوعٍ (**الاتجاهاتِ الأساسيةِ في النقــدِ المسرحي بالمغرب**) .

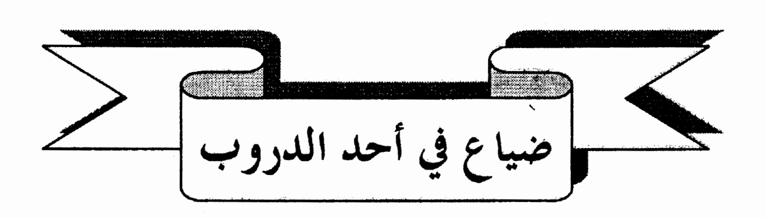
عمل مدرسًا بالمدارسِ الإعداديةِ ، ومفتشًا بالتعليمِ الثــانوي ، وهُــوَ الآن أستاذٌ مساعدٌ بكليــةِ الآدابِ بالمحمديةِ ، ومسئولٌ عَــنْ الملحــق الثقــافي لجريدة الراية ، وعضو اتحاد كُتَّاب المغرب منذ سنة ١٩٧٥م ، ورابطــة الأدب الإسلامي العالمية منذ عام ١٩٨٨م ، ورئيس ومؤسس جمعية البــلاغ الجديــد للثقافة والفن بالمحمدية .

نشر شعــره في العديــد من الصُحــفِ والمجــلاَّتِ المغربيــةِ مثل (**العلم ، والراية ، والمشكاة ، والفرقان**) ولكنَّه لم يستطع نشر إنتاجهِ الشِّــعْري لأسبابٍ مادية .

مؤلفاته : (**بائية الإضراب والصحـو ـ فصـول مـن مأسـاة أخـت في الله اسمها سراييفو**) .

فالمغربُ الشقيقُ : لهُ دورٌ أسهم في الفكر الأدبي .. بيد أنَّ آثارهُ لــم تكن منتشرة على صعيدِ الحياةِ الفكريةِ العالميةِ { **كالشــقيقة الكـبرى مصـر** } أو كبيروت ودمشق وبغداد ، فهُوَ منكمشٌ على ظلٍّ خفيفٍ يمتدُّ في سمائهِ ، ولعــلَّ

الدعاية الإعلامية لم تعطهِ عنايةً ، حتَّى تصل أصدائهُ كما وصلت أصداءُ هـذه المدن الحضارية العريقة في الحضارة ، ولا إلى أفق الجزيرة .. الَّتـي لعبت دورًا منذ فجر التَّاريخ ، ومن سمائِها أشرقت شمس الرسالة ، فغطَّت كل حضارةٍ .. وجاءت بمعجزاتٍ وحضاراتٍ لم يكن العالم يعرفُها من ذي قبل ، ولَمْ تدر في خلدِه يومًا ما ، فأعطت الحياة حياةً جديدةً ، وألبستها من الأفكارِ والعلمِ والأدبِ ما عجز عنه الأوَّلون ، واستفاد من هَـذا الضوء المعنوي الآخرون ، ونُوردُ لهُ قصيدةً : -



تحتَ مصباحٍ فُضُوليٍّ لئيم
ينقش الحزنَ على روحي الأصمّ

ها هنا بين دروب لم تزل
تذكر الأمس البعيد المنْصرم

قبعت نفسي تناجي نفسها
وتداري ألمًا فيها اضطرم

هي وَلْهَى أبداً ما تأتلي
ترقب الدنيا بخوف وندم

هي سَكْرى أبدًا في شغف
هي حيرى هزَّها كف الألم

عبثٌ طاغ على أذياله
ارتمى اللاشيء فيه وجثم

وفــراغ هــائــل فـــي عُـمـقــه
يرسب الحاضر فـــي لـــون العـــدم
كـــره النـــور طويـــلاً فرمـــى
بفؤادي فـــي كهـــوف مـــن ظُلَـــم
فـــإذا القلـــب سجيـــن ، وإذا
عالـــم النـــاس تفاهـــات جســـم
يالـــه وحشًـــا ضريـــرًا ساحقًـــا
لـعـظـامـــي ، شاربًـــا دمعـــا ودم
راقصًـــا فـــوق بقايـــا جثتـــي
ساخرًا يلهـــو ، فهـــلاّ قـــد رحـــم ؟
أنت يـــا نفـــس شـــراع ثـمـــل
عـــارك المـوج طويـــلاً وانـحـطـــم
فَابْك يا أشلاءهـــا دنيـــا هـــوى
وبقايـــا عُمُـــرٍ مثـــل الحلـــم
واشهدي أنني أذبـــت العمـــر فـــي
آهـــةٍ حـــرَّى ودمـــع ونـــدم
وبأنـــي ملهـــم مـــن وتـــري
نغمًـــا يبقـــى إذا العمـــر انصـــرم

❁ ❁ ❁

هَذا نغمٌ من الأنغامِ الحزينةِ الباكية ، ومَا أكثرُ الحزانا للَّذين يبكُـــون ويندبُون حظَّهم العاثر في هذه الحياة ، فالشَّاعرُ يرسمُ ويُجسِّدُ دنيًـــا مـــن الألـــمِ

اكتوى بها ، حتَّى طغى بهِ الألمُ إلى التبرّمِ من هذا الوجود ، فيُنعي حياتهُ الذَّاتية بشجـوٍ وحـزنٍ .. وآهـاتٍ حـرَّاءٍ .. ودمـوعٍ خُطَّت من أحـرفٍ ملتهبـةٍ باكيةٍ ، والشِّعْرُ الحزين : هو أحبُّ لنفسي ، ولشريحةٍ من البشر .. فالحزنُ دائمًا يواكبُ النفس البشرية ، ويطغى على السرورِ ، والآلامُ تبتلعُ الأفراح في يمّـها الخضم .. الهائجِ المائجِ .

ونأخذُ على الشَّاعـر بعض الإسفـاف ، في بعضِ الشـرائح مـن مقطعهِ ، وتكرار الصور .. حتَّى تكاد أنْ تكون صورةً واحدةً .

الشّاعر / محمد فال عبد اللطيف

الشَّاعــرُ / محمد فال عبد اللطيــــف ، وُلـــــد عــام ١٩٥٢م فـــي الـمذرذرة (ولايةِ التــرارزة ـ موريتانيا) وتلقَّـــــــى تعليمهُ الابتدائي والثَّــانوي في ولاية الترارزة ، ثُــمَّ التحــق بعد حصولــهِ علـــى البكـــالوريوس (شعبةِ الفلسفة) بالمدرســةِ الوطنيـــةِ للإدارة في انواكشوط ، ثُمَّ التحــق بالمدرســةِ الوطنيــــةِ (السلكِ الطويـل) وتخــرَّج فيهــا بشهادةِ متريــزِ فــــي العلــومِ الماليةِ .

وتنقَّل في وظائفِ بلادهِ .. فعمل والي إقليمٍ مســـاعدًا ، ثُــمَّ حــاكم مقاطعةً ، ثُمَّ في ديوانِ وزيرِ المالية ، ثُمَّ عمل مديرًا للشـــؤونِ السِّياســيَّةِ فـــي وزارةِ الداخلية .. ثُمَّ مديــرًا للجماعاتِ المحليــة ، ثُمَّ مستشـــــارًا للوزيـــر الأوَّلِ ، وهو المنصبُ الَّذي يشغلهُ الآن .

له مؤلَّفــاتٌ ورسائلٌ متعددةُ المشـــاربِ ـ لم تجد طريقها للنشر ـ منها { فتاوى الشياطين ـ رحلة إلى فرنسا ـ شرح قصيــدة الجرادة الصفـراء ـ الوجبـات الخفيفة } .

إنَّ هَذا صوتُ شاعرٍ ، ينبعثُ من سماءِ بلادٍ مغمورةٍ (موريتانيا) لـم يكن لـها دورٌ في عالمِ الفكرِ .. أو الأدبِ .. أو العلــمِ .. كشــقيقاتِها " **القـاهرة وبغداد وبيروت ودمشق والجزيرة العربية وبقية الشقيقات** " ولكنَّــها قــد ترسـلُ سماؤها موجاتٍ من ومضاتٍ في ذلك اللَّيلِ الدَّاجي .

... فاقتبسنا من هذه السَّمـــاء هَذا الشَّاعر ، لنقدمــهُ للقــرَّاء مغلّفًــا بإنتاجه ، وللقارئ الحكم له أو عليهِ : -



رب مجد يُبنى من الطين أما
مجد قومي فلم يكن من طين

صهواتُ الجياد كانت حصونا
لهمُ وهي من حِسان الحصون

وظلال البُنود أحلى لديهم
من ظلال النخيل والزيتون

واعتنوا بالعلوم ينون فيها
ويُبِينون أحسن التبيين

بشيوخ تنهَى وتأمرُ بالعدل
على وفق شرعها المسنون

لا يزالون ظاهرين على الحقْ
على رغم ملحدٍ في الدين

حفظوا المِلّةَ القويمة من كلْ
عدوّ مُداجن وظنين

فهي كالجنة النضيرة في الربوة
ذات العذب الزلال المعين

فهي تؤتي ثمارها كل حين
من أتاها وأكلها كل حين

وشباب يأبى الدنيَّة يسعى
سعي لا جاهل ولا مفتون

من أبيٍّ حامـي الـحقيقـــة بالعــرض

ضنينٍ ، بالنفـــس غيـــر ضـنيـــن

مؤمـــن بالـغيـــوب لـــم يـتـقيـــد

بـخُرافـات ذي الضـــلال الـمبيـــن

مُعرض في الأمور عـن كـــل ريـــبٍ

آخـذ فـــي الأمـــور ذات اليميـــن



هذه قصيدةٌ تعرضُ أنموذجًا لشاعرٍ من شعراءِ موريتانيا ، والشَّــاعرُ في هذه القصيدة يدافعُ عن أهدافِ العروبةِ ، ومبادئ الإسلام ، ويصفُ مجدهُــم الضخم .. الَّذي هو شعلةٌ من ضوءِ الإســلام ، فقد رفع الإسلامُ العــرب إلــى أعلى أوجٍ ، لكنَّهُ في الأفق الشِّعْري في القصيدةِ الَّتي هيَ بين يدينــا كــأنموذجٍ فكريٍ ، لَمْ يصل الشَّاعــرُ إلــى جــوٍّ شعريٍ ، وهُوَ يسيـــرُ علــى عكــازةٍ ضعيفةٍ .. واهيةِ القوى .. محطّمة الأركانِ ، ما عدا فاتحة القصيدة : –

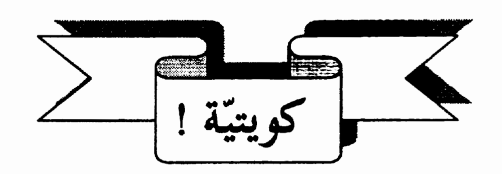
رب مجد يُبنـــى مـــن الطيـــن أمـــا

مـجد قومـــي فلم يكن مـــن طيـــن

فهَذا البيت : لعلَّك تستنشق منـــهُ رائحة الشِّـــعْر .. لـــولا تصدمُــك عكازةٌ وهي كلمةُ (أما)فقد جاءت في غيرِ موقعها ، فعكَّرت الجوّ الشِّعْرِي .

الشّاعرة الدُّكتورة / سُعَادُ الصّبَاح

صوتٌ ينبعثُ من أفقٍ ناعــمٍ ، من قلبِ صحراءٍ جافٍ - لا مـاء فيـها ولا زرع { الكويــت } - أرض الذهــبُ الأســود .. أنــــــه صــوت ســعاد الصباح ، فهيَ تمثّلُ وتحكي الحياة النِّسائيَّة الجديدة ، وتدافعُ عن حقوقِ المـــرأةِ الكويتية ، كنخلــةٍ فارعــةٍ تمــدُّ عنقها تطــاولُ السَّماء ، وكريـــاحِ عــاصفٍ تزفرُ في قلبِ الصَّحراءِ ، وما قصيدتُها بعنوانِ (كويتيّةٍ) إلاَّ دليلٌ علــى هــذه الرؤيةِ ، فاستمع معي وهيَ تتحدَّثُ في مقاطعِها : -



يَا صَدِيقي :

فِي الكُوَيتيَّاتِ شَيءٌ مِنْ طِبَاعِ البَحْرِ ... فَادْرُسْ

- قَبْلَ أنْ تَدْخُلَ فِي البَحْرِ - طِبَاعِي ...

يَا صَدِيقي :

لاَ يَغُرَّنكَ هُدُوئي ... فَلَقَدْ

يُولَدُ الإِعْصَارُ مِنْ تَحْتِ قِنَاعِي ...

إنَّنِي مِثْلُ البُحَيْرَاتِ صَفَاءً ...

وَأنَا النَّارُ ...بِعَصْفِي وَاندِلاَعِي .

يَا صَدِيقي :

إنَّ عَصْرَ النَّفْطِ مَا لَوَّثَنِي

لاَ وَلاَ زَعْزَعَ بِاللهِ اقْتِنَاعِي

أنتَ لَوْ فَتَّشْتَ فِي أعْمَاقِ رُوحِي

لَوَجَدْتَ اللُّؤْلُؤَ الأَسْوَدَ مَزْرُوعاً بِقَاعِي

يَا صَدِيقي :

يَا الَّذِي أعْشَقُهُ حَتّى نُخَاعِي

كُلُّ مَا حَوْلِي فُقَاعَاتٌ مِنَ الصَّابُونِ وَالقَشِّ ...

فَكُنْ أنْتَ شِرَاعِي ...

يَا صَدِيقي :

الكُوَيْتِيَّةُ + لَوْ تَفْهَمُهَا – نَهْرٌ مِنَ الحُبِّ الكَبِيرِ ...

وَالكُوَيْتِيَّةُ إعْصَارٌ مِنَ الكُحْلِ ..حَمَاكَ اللهُ مِنْ أمْطَارِ كُحْلِي وَعُطُورِي ...

وَالكُوَيْتِيَّةُ تَهْوَاكَ بِلاَ عَقْلٍ ..فَهَلْ تَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ شُعُورِي ؟..

فَأَنَا فِي غَضَبِي عُودُ ثِقَابٍ ...

وَأنَا فِي طَرَبِي ...غَزْلُ الحَرِيرِ ...

يَا صَدِيقي :

الكُوَيْتِيَّةُ تَبْقَى صَامِتَهْ

فَمَتَى تَقْرَأُ مَا بَيْنَ السُّطُور ؟

فَتَمَدَّدْ تَحْتَ أشْجَارِ حَنَانِي .. وَتَعَطَّرْ بِبَخُورِي ..

فَعَلَى أرْضِكَ أَلْقَيْتُ بُذُورِي

وَعَلَى صَدْرِكَ تَمتَدُّ جُذُورِي ...

يَا صَدِيقي :

الكوَيْتِيَّةُ أرْخَتْ شَعْرَهَا اللَّيْلِيَّ كَالجِسْرِ ،

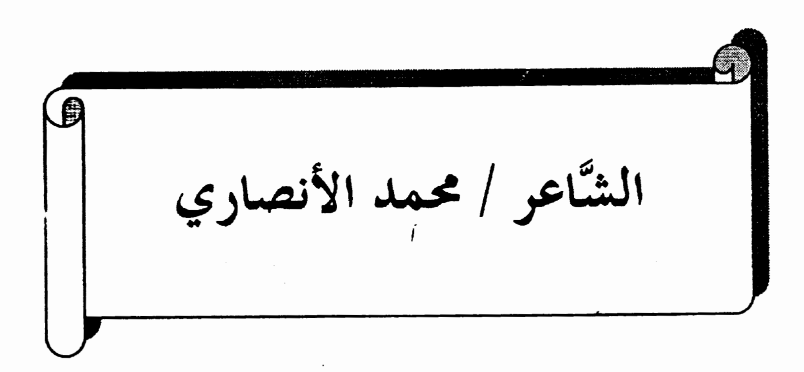
فَلاَ تَعْبَأْ بِحُرّاسِي ... وَجُنْدِي ... وَسُتُورِي ...

وَالكُوَيْتيَّةُ مَلَّتْ مِنْ غُبَار ((الطُّوز)) ..وَاشْتَاقَتْ إلى ظِلِّ البَسَاتِينِ ،
وَإيقَاعِ النَّوَافِيرِ، وَأصْوَاتِ الطُّيُور ...
وَالكُوَيْتِيَّةُ في مَعْرَكَةٍ كُبْرى مَعَ التَّاريخ لَمْ تُحْسَمْ ...فَهَلْ أنتَ نَصِيرِي ؟.
الكُوَيْتِيَّةُ سَمَّتْكَ أمِيراً ...يَا أمِيرِي ...
فَتَصَرَّفْ بِمَقَادِيرِ العُصُور ...
وَتَصَرَّفْ بِمَصِيرِي ...
يَا صَدِيقي :
أنَا ألْفُ امْرَأةٍ في امْرَأةٍ ...
وَأنَا الأَمْطَارُ ، وَالبَرْقُ ، وَمُوسِيقَا اليَنَابِيعِ ، وَنَعْنَاعُ البَرَاري ...
وَأنَا النَّخْلَةُ في وحْدَتِهَا ...
وَأنَا دَمْعُ الرَّبابَاتِ ...وَأحْزَانُ الصَّحَاري ...
يَا صَدِيقي :
يَا الَّذِي يُخرِجُ مِنْ مَنديلهِ ضَوْءَ النَّهَار ...
يَا الَّذِي أتْبَعُهُ حَتّى انتِحَاري ...
كَمْ تَمَنَّيْتُ بِأن تُصْبِحَ في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ قُرطي أو سِوَاري ...
يَا صَدِيقي :
إنَّنِي اخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ المَلاَيين ...
فَهِنِّئْنِي ...عَلى حُسْنِ اخْتِيَاري !!..

❁ ❁ ❁

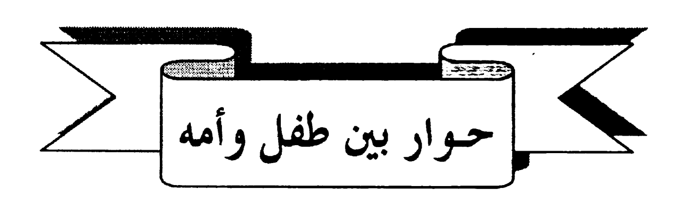
بين يديك أيُّها القارئُ هذه القصيدةُ ، الَّتي هيَ لشاعرةٍ أميرةٍ من الأميراتِ ، ولكنَّك عندما تقرأُ قصيدتَها .. تحسُّ بطابعٍ شعبيٍ ينسابُ في كلماتِها ، مغلَّفٍ بحُبٍّ إلى نساءِ مواطناتها الكويتيات ، ويرسمهُ مجسَّدًا

كالطَّبيعةِ بِلا رتوشٍ ، فالشَّاعرةُ ترسمُ ذاتها نقيةً لم تلوّثها غيماتُ النفــط ، بـل هــيَ فارعــةٌ كنخلةٍ باسقة تعانقُ السَّماءَ ، وعلى ضفتيها البحرُ .. فــي قاعــهِ اللؤلؤُ .. فهيَ تسيرُ في خضم الحياة بقـــلاعٍ ، وتهـــبُّ مــن وراءِ قناعِــها العواصف ، وحمانا الله من كحلِها وعطرها ، لأنَّ عطـــور وكحــول النِّســاءِ الماكراتِ اللَّاتي يحوّلن الحياة إلى نعيمٍ أو جحيمٍ ، وبعبارةٍ مختصرةٍ مفيدةٍ أنَّــك تلمسُ في هذه القصيدةِ نبضاتِ قلبٍ حيٍّ ، وإشعاعاتِ تموّجٍ في كلماتِها .


الشّاعر / محمد الأنصاري

الشَّاعــرُ / محمَّد الأنصاري ، وُلد في مدينةِ الخـــور بقطــر عـــام ١٩٤٥م ، ودرس في المعهدِ الدِّيني الابتدائي والثَّانوي ، ثُــمَّ دخــل الجامعــة الإسلاميةِ بالمدينـــةِ المنورة ، وحصل على الشَّهادةِ الجامعية في الشَّريعةِ عـــام ١٩٦٨م ، وتنقَّل في سلكِ الحكومة في قطر ، من رئاسةِ المحاكمِ الشرعية إلـــى وزارةِ التَّربيةِ والتَّعليمِ ، إلى مديرِ الشؤونِ الثَّقافيةِ والشــؤونِ الفنيـــة لمؤسســة الرعايةِ التربوية ، ولدارِ التقويم القطري ، وللمكتبِ التنفيذي لشـــؤونِ الأشـــقاءِ الكويتيين .

مؤلفاتهُ : (**إلى ولدي عام ١٩٨٦م ـ مسافة عام ١٩٩١م**) ، ونُـــوردُ له أنموذجًا من شعْرِه : –



(مامـــا) لقـــد حـــار البصـــرْ
واستُنْفـــدت منـــي الفِكَـــرْ

مـن أيـــن يأتـــي لـــي أبـــي
(بالكيـك) فـي شكـــل القمـــر ؟

مـــن أيـــن يأتـــي بـالطعـامِ
وبـالـفـواكـــــه والخضـــــر ؟

أمـــاه مـــن يعطـــي أبـــي
تـــلك الدراهـــم والـــدرر ؟

كم قد بحثت لكي أراهُ
فما رأيت له أثر
ما لي أراه مفارقي
طول النهار بلا سفر ؟
أمي ! أجيبي ! إنني
قد حرت في تلك الصور
قالت له الأم الرؤومُ
وقد كسا الوجه الخَفَر
لولاه بعد إلهنا
ما كنت أنت من البشر
فهو الذي قد شاء ربْي
أن تكون له الأثر
وهو الذي يا مُهجتي
ربَّاك من عهد الصِّغر
فبفضله بعد المهيمن
كنت من أهل الظفر
فقد اشترى لك ما تريدُ
من الطعام بلا كدر
وسقاك أعذب ما يباعُ
من الشراب وما جهر
قد كان يلبسك الحريرَ
وذاك أغلى ما ستر

وإذا مرضت دعا الطبيبَ
وكان يستحلي السهر

كم مرة أعطاك ما
تقتات وابتطن الحجر

أمضى الحياة مكافحا
من أجل نجل قد يبَر

يسعى لكسب القوت من
قبل الصباح بلا ضجر

ويعود بعد مغيب شمس
وهو محنيّ الظهر

يأتي وقد خارت قواهُ
لجهد يوم قد عبر

فلقد تراه بحاجة
للارتخاء إذا حضر

وإذا رآك كأنه
قاد الكتائب وانتصر

ينسى لرؤيتك الشقاءَ
وكل جهد قد خطر

بل قد يبشُّ إذا رآك
بوجهه الضاوي الأغر

وكأنه دخل الجنانَ
وفاز فيها بالنظر

يحنو عليك إذا رأى
منك الفؤاد قد انكسر
ولربما يبكي إذا
كانت أمورك في خطر
قد كان خير معلم
بالحزم والفضل اشتهر
وهو الذي يحمي حماك
من التجاوز والضرر
ويذود عنك مكافحا
ويصد طوعا كل شر
ولقد هداك معلما
وغَذَاك من علم بهر
أعطاك جل حياته
وسقاك من بحر زخر
رباك تربية الرجالِ
ومن رآك فقد يسر
وإذا انتهيت من العلوم
وشاء (بابا) واقتدر
يهدي إليك (عروسة)
تبني بها أنقى الأسر

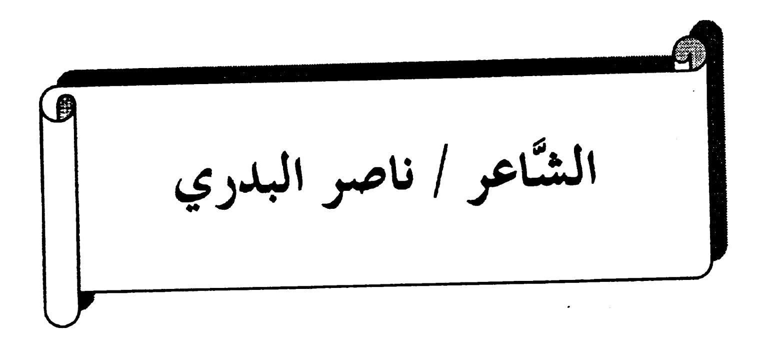
❁ ❁ ❁

هذه قصيدةٌ ترسمُ حديث قصةٍ تحاورية بين أبـــنٍ وأمـــهِ ، أدارهـــا شاعرُها على تساؤلاتٍ وأجوبـــةٍ ، تتمحورُ في عذوبـــةٍ ورقّـــةٍ منســـابةٍ فـــي أحرفِها ، كانسيابِ موجاتِ النهرِ ، وممَّا يزيدُها حسنًا { قصــرُ التحـاور } بيـــن طفلٍ يتطلَّعُ إلى الحياةِ ، من غلافِ كمائمهِ إلى فجرٍ يُولدُ من صدرِ أمهِ ، بيد أنَّنا نأخـــذُ على الشَّاعرِ بعض المآخذ كبعض القوافي ، حيث كانت نابيـــةً تصـــدمُ الذوق ، عندما ينتهي لها مثل السفر ، وما جهر الأغر انكسر .. فأنَّه قد انكســـر فيهِ الذوقُ والحاسةُ الفنية .

... أقـــرأ معي هذه الأبيات الأربعـــة الَّتي أشرنا إليها وهـــي بيـــن يديك : -

مـــــا لـــــــــي أراه مـفـارقـــــي
طول النهـــــار بـــــلا سفـــــــر ؟
وسقاك أعـــذب مــــا يبـــاعُ
مـــن الشــــراب ومـــــا جهـــــر
بـــــل قـــــد يبـــــشُّ إذا رآك
بوجهـــــــه الضــــاوي الأغــــر
يحـنـــــو عــلـيـــــــك إذا رأى
منــك الفـــؤاد قـــد انكســـــر

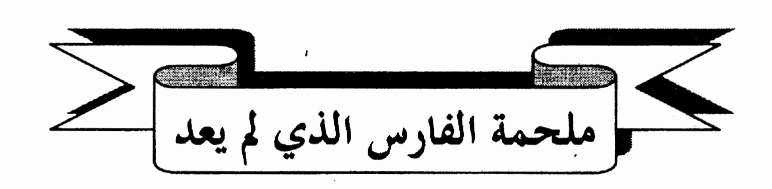
وهناك أبياتٌ في هـــذه القصيدة غيرُ موفقةٍ ، وخان الشَّـــاعر فيـــها التَّعبيـــرُ ، وقَـــدْ دللنا علـــى ذلك بمـــا عيَّنـــاهُ من أنمـــــوذجٍ - **تلك الأربعةُ أبياتُ** - للتدليلِ علـــى الرُّؤيةِ الَّتي رأيناها ، وقررناها في منهجيةِ نقـــدٍ هـــادفٍ سليمٍ ، وعلى القـــارئ الحكم بحرية الذوق والرأي ، ولا نفرض رأينـــا علـــى القرَّاءِ .. وكلٌّ له ما يراه .


الشّاعر / ناصر البدري

الشَّاعـرُ / ناصرُ البـدري ، وُلد عام ١٩٧٣م في البلـه بسلطنة عُمان ، وحصل على بكالوريوس في التربية الرياضية عـام ١٩٩٤م ، نشـر شعره في الصُّحف المحلية والخليجية مثل (عمان - والشبيبة - والوطن - والخليج الإماراتية) .

مؤلفاتـه ودواوينـه الشِّعْـرية : (قصائد للاحترام الأخير عام ١٩٩٣م) أشترك فـي بعضِ المسابقاتِ وفاز بها .

... نُوردُ له أنموذجًا من شعْرهِ : -



" بكائية ":

كم قد مضى

يا فارسَ الوجع المحمل بانتظار الشمس ..

يا شبقَ الفصولْ

كم قد مضى

من رحلة الوطن القتيل

للبعث أنت سللت نفسك من رماد الانشطار

للبعث أنت سلكت ذات الدرب

نحو الشمس

لكن لا مطار

وحقائب التوديع إذ ثُقلت عليك

رميتها

وشوائب الإجهاد مذ علقت بثوبك

لم تزل تنمو

وأخرى تستعيذك أن تكون لها رفيق

ها أنت يصفعك الطريق

ها أنت موقوف ومنسي بذات الوقت

لكن للطلولْ

أثرٌ عليكَ ..

وللمسافات احتفاء وانتشاء

وخطوط وجهك ..

رسم كفك ..

كل خط فيك يشكو الانتماء

ها أنت أنفاس من الإجهاد يأكلها الأفول

وروائح الأسفار أنت

وأنت إتيان الشقاء

فإلى متى هذا السباق .. إلى متى

وجميع من خلّفت مدوا الكف

وانتظروا ..

حتى إذا جاء الربيع تعدّلوا للانحناء

فَلْتزْمهم مزقا ..

ولا تبك

واقبل تعازي الليل :

إن الشمس لن تلد الضياء ..! !

" خطاب الفارس إلى فرسه "

سنة تمر على سنة

سنة تمر

نتقاسم الخبز المملح والشراب المر

كي نقوى على التصعيد ضد الأزمنه

ولها نصرّ

على الطواف – ولات يا فرسي العثور على

بقايا السوسنه –

نمضي ...

ونأمل أن نعود .. تعود ذاتُ الأمكنه

لكنها – أسفا – تعود مُمعدنه

ولها صهيلٌ

– ليس مثل صهيلك الغجري ... لا –

يتقاسم النغمات .. يجبرها تخر

آه وتسقط كل زيف الأحصنه

ونعود يا فرسي إذا غربت سنه

ليرى كلانا قد تساقط موطنه ... !

" خطاب الفارس إلى مدينته "

جديدا أعود

- مقرا بكل الخطايا القديمه -

إليك وبعض اشتياقي جريمه

وحين اللقاء .. أرى دونك الناس

من كل فج تهادوا

وكان النداء : -

" وأذن ... "

" خطاب الفارس إلي حبيبته "

" خطاب أول ":

ولأنني يوما أردتك نخلةً شرقية الثمر

وأردت أن أهديك آنية من الفخار

يلهو طفلنا الآتي بها

وتكون لي زوَّادة السفر ..

وأدوكِ تحت شوارع المطرِ

وسقوك من دمهم

فأنبت خصرك الأسماء والأحلام

وامتزجت بك الدنيا

فكان الخصب .. ثم الموت كانْ

آهِ وامتزج الشقاء على الشقاء

فإلى اللقاء .. إلى اللقاء إلى اللقاء .. !

" خطاب ثان ":

جهاتك تحتلني .. فلنقل ؟

- لكي لا نضيع -

بأنك لونُ السماء .. وأني الربيع
وأن الفراشات كي تستمد لك الدفءَ ..
تمتص مني الصقيع
وأن المسافات لو أبعدتنا – لها الحكم –
أن اللقاء الشريد ..
سيورق للمعصم الغضِّ فيكِ السوار
وأن النهار
سيملي على الشمس بعض الرسائل
ومني إليك
سيملي على الشمس ... " كوني البريد "
وكوني له
إذا ما أتاه الجواب جليدا جليد
سلاما سلاما ... !

" خطاب الفارس إلى صديقه القديم "

ظلمناك يوما
ذبحناك يوما
وجئناك بالعذر بعد الفوات
وماذا يفيد الذي كان .. ((لو لم يكن))
رماد المسافات ملك مشاع
وكل المنافي وطن
فإن جئت يوما – بلا راحتيه –
إليك ببعض الورود الزهيّه

تقبل هداياي

إن الهدايا – رفيق الممرات – بعض الشجن

وحاول بصمت

تباعا تهرِّب ماضيك فيَّه

فما كنت منهم

ولكنهم حين مدوا يديهم

مددت يديّه

وقد كان جهلا

من الجهل يا صاحبي ما قَتلْ ...

نعم ما قتل .. ! نعم ما قتل .. !

۞ ۞ ۞

إنَّ هَذا الشِّعْر هُوَ من لونِ شعْرِ الحداثةِ ، وليس كلُّ حداثةٍ ممجوجةً وغير معبرةٍ عن ما وراءِ ما تشيرُ له تلك الأحرف الخضراء ، ولكنَّ أكثرها عاجزةٌ عن ما تشيرُ له من هدف ، ولا تصلُ إلى الأداءِ الفنِّي ، والأصالةِ الشِّعْريةِ الفنيةِ ، الَّتي تُترجمها اللُّغةُ العربيةُ .. مشتملةً على عناصر أربعة (الموسيقى ـ الفن ـ الغناء ـ التصوير) فإذا لبِست الكلمةُ هذه العناصرَ الأربعة ، تمحورت وانبثقت في أداءٍ شعريٍ فنيٍّ ، فهي في موازين الأذواق السليمةِ .. إنْ كانت من الحداثةِ ذا التفعيلةِ ، أو من العمودي الكلاسيكي ، أو الرُّومانسي ذو الأوزانِ والقوافي المتعددة ، الَّتي تخلقُ جرسًا موسيقيًا فيُعدُّ في موازين الشِّعْر ، ولا أزن الشِّعْر بمقاييسِ عاطفيةٍ تنحازُ للقديمِ أو الجديد ، فالشِّعْرُ هُوَ التفاتةٌ وعاطفةٌ ، وهزّةٌ كتيارٍ كهربائي يسري في النفوس في نشوةٍ روحيةٍ : –

الشعر في حيـــث النفــــوس تلــــذه

لا في الجديـــــد ولا القديـــم العــــادي

... أو تعبيرٌ آخر : -

الشعرُ ما لـــم يكن ذكـــرى وعاطفـــةً

أو حكمةً .. فــهـــــو تقـطيــعٌ وأوزانُ

أنا لا أُحدِّدُ الشِّعْر بمفاهيـــمِ ، أو بمسبارٍ يسبرُ تلك الأعماق .. إنَّمـــا هُوَ هزَّةٌ من الرُّوحِ إلى الرُّوح تهزُّ كيان سامعه ، وينفذ إلى قَلْبـــــهِ كمـــا تنفـذ النَّسمات العليلة البـــاردة على جسمـــهِ ، فـــــلا يُحـــدّدُ بحـــدودٍ .. ولا يقـــاسُ بموازينٍ ، فغناءُ الساقيـــةِ شعـــرٌ ، والـــوردة الجميلـــة قصيـــــدةٌ مـــن أبـــدع القصائدِ ، والجمال البشري قصائدٌ من أحسنِ قصائدِ الإبداعِ ، وهيَ فــــي ذروةِ الفنِّ ، لأنَّ أبدعها خالقُ السَّمـــاواتِ والأرض ، والطَّبيعـــــةُ السَّـــافرةُ بألوانِـــها وأفوافِها شعرٌ بليغٌ ناطقٌ بالسحرِ والجمالِ .

ولابد من إشارةٍ إلى شعْر التفعيلة : كيف ولد وجاء للغةِ العربيـــــةِ ؟ فلعلَّه عندما امتزجت الثقافةُ الغربيةِ بالثقافةِ العربيةِ ، تبلور هـــذا اللـــــون فـــي الشِّعْرِ العربي .. حيث تُرجم الشِّعْر الغربي وأدبهُ ، فامتزجـــت الثقافتـــان فـــي بوتقةٍ من بوتقاتِ الفكرِ ، وتولَّد من اللونين هَذا اللون من الشِّعْر .

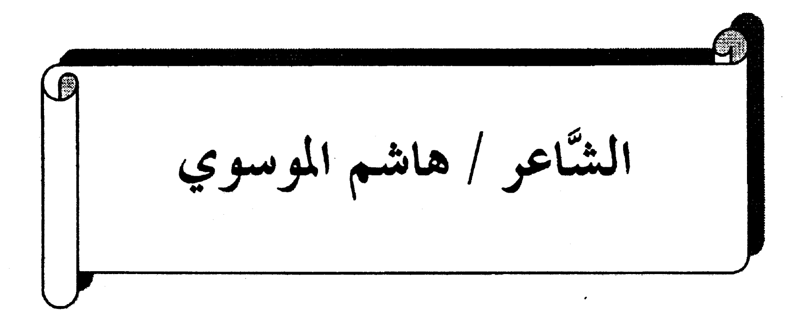
وفي الحقيقةِ لا نريدُ أنْ نظلم اللُّغة العربية وتاريخـــها ، فقـــد ســـبق شعراؤهـــا إلـــى هـــذا اللـــون من الأدب ، فالتفاتـــةً إلـــى مـــا وراءِ الزَّمـــنِ الماضي .. وعودةً إلى تاريخِنـــا الأصيـــل ، فقد سبـــق لــــهذا اللـــون { شعر التفعيلة } شعراءٌ .. كالعلاَّمة الدمستاني ، لا على سبيل الحصر فـــي قصيدتـــهِ المشهورة والمعروفة بحرم الحجاج : -

أحرم الحجاجُ عن لذاتهم بعض الشهور
وأنا المحرمُ دأباً ناحرًا هدي السرور

ولا ننسى الفتوحات الإسلامية ، فبعد فتح الأندلس وإشراقة شمسِ الإسلامِ في سمائها ، امتزجت الثقافةُ العربية في الثقافةِ الأندلسية ، فتولَّد الشِّعْرُ الموشح .

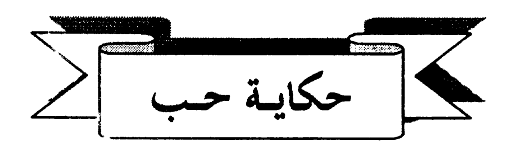
ولعلَّ شعْر التفعيلة تفرّع من ظلالِ الشِّعْر الموشح ، فالشِّعْرُ ذوقٌ وفنٌّ ، وتصويرٌ يصوِّرُ هذه الحياة في لوحاتٍ زيتيَّةٍ ، وهُوَ العنصر المؤثر في الآفاق الفكرية ، والمجتمعات الشَّعبية .. وهُوَ الدُّولاب المحرِّك لقَلْبِ الدُّنيا ، يطوفُ بها ويجتازُ على روابيها ، فيحرّكُها كما تحرِّكُ نأمةُ النَّسيمِ أغصان الشجر ، أو يمر كعاصفةٍ تهدّ القصور .. وتغسل الأدران .. وتكسرُ الأشجار ، هذه لمحة تعريفية عن الشِّعْر وما فيه من أقسام .

ونعودُ للقصيدةِ التحاورية ، الَّتي كانت لنا فاتحة هذه اللَّمحة التعريفية ، فنوجزُ عنها تعريفٌ مختصرٌ في حروفٍ مختصرة ، فمن حيث أنَّها شعْر .. فإنَّ الشَّاعر لَمْ يوفَّق في سبكِ أسلوبها ، وفي أداءِ تعبيرهِ الفنِّي ، فكان موضوعها خيرًا من شعْرِها ، ولو عَاد الشَّاعرُ السبكة ووفق .. لكان خيرًا له .


الشّاعر / هاشم الموسوي

الشّاعرُ / هاشم السيد حسين الموسوي ، وُلد عام ١٩٤٥م في دبي ، حصل على الثّانويةِ العامةِ مِنْ الدوحةِ بقطر عام ١٩٨٦م ، وبكالوريوس آداب من قسمِ اللُّغةِ العربيةِ .. جامعةِ بغداد عام ١٩٧٢م ، وشهادةِ الدراسات العليا المتخصّصة في الدبلوماسية ، وإدارةِ المنظماتِ الدوليةِ من كليةِ الحقوقِ بجامعةِ جنوبِ باريسِ ، ومسجّل الدُّكتوراه بنفسِ الجامعة ، تمَّ تعيينُهُ في السلكِ الدبلوماسي والقنصلي بوزارةِ الخارجيةِ بأبي ظبي عام ١٩٧٢م بدرجةِ سكرتير ثالث ، ثُمَّ تدرَّج في وظائفِ الخارجيةِ حتَّى درجةِ وزيرٍ مفوّضٍ .. شارك في العديدِ من الأمسياتِ الشِّعْريةِ داخل الدولةِ وخارجِها ، نشرَ الكثيرَ مِنْ قصائِدهِ في صحفِ الإماراتِ (**الاتحاد ـ الوحدة ـ الفجر**) وفي مجّلاتِ (**الدبلوماسي ـ درع الوطن**) كما نشر بعضَ قصائِدهِ ضمن كتاب (**محاضراتِ الموسمِ الثقافي**) لوزارةِ الإعلامِ الإماراتية عام ١٩٨٠م / ١٩٨١م .

دواوينه الشِّعْرية : له ديوانٌ ينتظرُ النشر بعنوانِ (**حرق**) يشتملُ علَى أربعينِ قصيدةٍ ، نُوردُ له نموذجًا مِنْ شعْرِه .. قصيدة تحتَ عنوان : –



حسناءُ ، هل لِيَ أنْ أحكي حكاياتي

منغماتٍ على أوتار آهاتي

ومرسلات على ألحان سامرةٍ

تُضفي طيوبا على تلك الخطيئات

تعطـــر الليـــل والأحـــلام واهبـــة

لفتيـــة الحي نـــورا مـــن غواياتـــي

حكاية الحب يـا حسنـــاء ملهبـــة

قلبي كأن الهوى حكـمٌ علـى ذاتـــي

إني فُتنت وما لـــي عنـــك مزدجـــر

هـواك روحـــي وأحلامـــي ولذاتـــي

إني عشقت ففاض الدمـــع منهمـــرًا

يسقي القلوب الحيـارى في متاهاتـــي

إنـي عشقـت فألـهبتِ الحيـــاة جـــوًى

حـولـي عليـك وأرسلـــت ابتهالاتـي

سكبت روحي على ذاك الجمـال ولـم

أظفـر بغيـر دمـــوع مـــن معاناتـــي

تنفَّسَ الورد والريحان مـــن ولـهـــي

ورددت زفرتـــي كـــلُّ الفراشـــات

سلي عن الوجـد أطيافـــا تؤرقنـــي

فعنـــد ساحلهـــا ترســـو رواياتـــي

أشركت كل نجوم الليل فـــي ولـهـــي

حمّلتهـــا كـــل آلامـــي وأناتـــي

طرزت في حبـك الأحـــزان قافيـــة

حبلى بكل غريـــب مـــن تفاهاتـــي

صفاء عينيك يا حسنـــاء ألـهمنـــي

فنّي وصعّد مـــن شجـــوي وآهاتـــي

تراقص الحرف ريَّانا علـــى شفتـــي

روّيت حرفـي وحطمـــت اعتباراتـــي

لم تدركي أن في نابي لـهيـــب أســـى

سيان عنـــدك مأساتـــي وملهاتـــي

إذا تلفّتُّ قصدا لـــم تعـــي أبـــدًا

أن الحقيقـة كانـــت فـــي التفاتاتـــي

يا فتنة الروح يا أصـداء مـــا سفـــرت

عنها الحياة علـــى قيثـــار رعشاتـــي

تمهلي إن فـي عـيـنـيـــك أغنيتـــي

تغفـو على محجـــرٍ يهـــوى شكاياتـــي

في وجنتيك بقايا من دمـــي وهبـــت

لك الدلال بوحـــي مـــن رسالاتـــي

وفي دلالك سحر قـد بـــرى جســـدي

وفـي شفاهك شـــيء مـــن خطيئاتـــي

أرى جدائـل شعـــر مـنـــك زاهـيـــة

فتخفق الروح فـــي دنيـــا الـخيـالات

وتخفق الروح في دنيـــا بـــلا زمـــن

وهكـــذا الحـــب لا مــــاض ولا آت

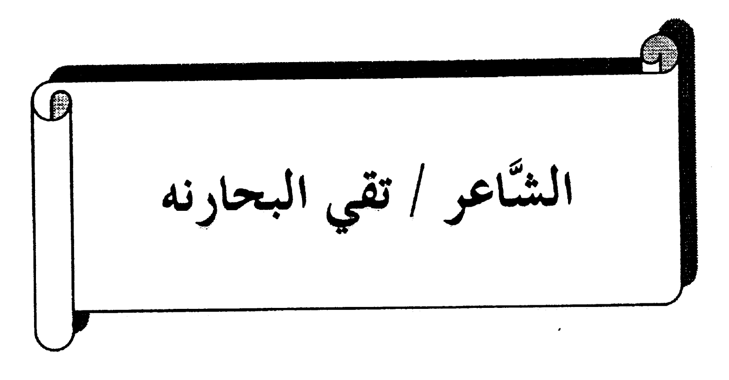
حكاية الحب يا حسناء مـــا ختمـــت

لكنما من هنـــا تُحكـــي حكاياتـــي



إنَّ لونًا من ضروبِ الشِّعْــــر كما عرفهُ الأدباء القدامى ، وقسَّـــموهُ إلى عدّةِ شرائحٍ فكريةٍ ، فمِنْهُ لونُ الغزلِ .. أو النسيبِ .. أو التشـــبيبِ ، فـــهُوَ عنصرٌ من عناصر الحياة ، تتماوجُ في أنغامِ أوتارٍ ، عزف عليـــها التائِـــهون الهائمون في أمواجٍ من موجـــاتِ الحب ، يستعذبون فيها العـــذاب ويحـــترقون بخورًا في مجمر الجمال ، ولَمْ يكن هَذا الفنُّ فنًّا جديدًا ، لأنَّهُ وُلد مع الإنســـان الأوَّل توأمًا في هذه الدُّنيا ، إذْ لا حياة بلا حب .. ولا حب بلا حياة ، فهو نبـــعُ نميرٍ أفاضهُ الله مكوّن البشرية ليعمّر هَـــذا الكوكب بكلِ معنى العمار ، ويذكـــرُ فيهِ أسم الخالق المُنعـــم ، فكَان الحُـــبُّ غرســـةً في قَلْـــبِ ذلك الإنسان تشـــبُّ معـــه ، كُلَّما شبَّ لينفتح على أسرارِ جمال هَذا الكـــون ، وفي عنوانهِ حـــــواءُ الملهمـــةُ .. هـــيَ قصيـــدةٌ مقاطعُهـــا { العينِ والثغـــرِ } وقافيتُـــها { النـــهد والصدر } ، فكُلَّما كبرت وتدوَّرت كانت أرقّ شعْـــرٍ غزلٍ أبـــدع مـــن كُـــلِّ قصيـــدةٍ ، والحُبُّ ليس جديدًا - أو حادثًا - كما أشرنا لهُ ، فـــهو علـــى عمـــق أصالـــةٍ فـــي قَلْـــبِ هذه الدُّنيا ، لأنَّهُ كيانُ الحياة ، وأحـــد أسرار بقاء النُّـــوع علـــى هـــذا الكوكـــــب - بـمشيئـــة الله - الَّـــذي خلـــقهُ وأودعـــهُ فـــي روحـــهِ { لأبنائِهِ .. لأبويهِ .. لزوجـــهِ .. لرحـــمهِ .. لإخوانهِ } فـــالحبُّ ســـرٌّ عميقٌ ، وحرفٌ مخضوضرٌ له نقاطٌ وإشاراتٌ ضوئيَّـــةٌ ، تـــدقُّ علـــى العقـــلِ والأفكارِ ، فمن سمـــاءِ هذا اللَّون وُلد الشِّعْرُ الغزليُ ، فكَان تعبيـــرًا عـــن مـــا يختلـــجُ من عواطـــفٍ ، فلهـــذه العوامـــل أستلـــذهُ البشـــر علـــى اختـــلافِ شرائحهـــم ، وحتَّـــى أبنِ الشَّارع العامي يستلذُ الشعرَ الغزلي ، ويســـري فـــي كيانهِ .. ويهزّهُ من حيثُ يشعر أو لا يشعر ، لأنَّهُ تعبيرٌ عن حُـــبٍ يُترجمُ مَـــا يموجُ في نفسهِ من ميـــولٍ عاطفيَّـــة ، أمَّا الإنســـان المثقَّف .. فهُـــوَ يرتفـــع بذوقـــه السَّليم إلى آفاقٍ وصورٍ ، يموج بمعاني الحب الرفيعة .. فـــالحب نبتـــة طاهرة مقدسة ، وبتعبيرٍ أدق : إنَّ الحُبَّ كيانُ الحياة .

ولابُــدَّ من إشـــارةٍ – ولــو مقتضــبةً – إلــى قصيـــدة الشَّـــاعر الموسوي ، فهيَ عاطفةٌ مشبوبةٌ تتدفَّقُ من سماءِ واقعِ صدقٍ .. تجسِّدُ حب هَــذا الشَّاعر في موجاتِ لهيبٍ ، وحرفٍ أُجيد سبكهُ .


الشَّاعر / تقي البحارنه

الشَّاعـرُ / تقي محمَّد البحارنـة : ننقلُ سيرتـهُ حرفيًا من كتابـهِ { **أوراق ملونة** } المطبوع بمطبعة فخراوي بالبحرين (المنامة) الطَّبعة الأُولـى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

ـ ولد في البحرين في مدينة المنامة عام ١٩٣٠م .

ـ تلقَّى تعليمهُ في مدارس البحرينِ وبغداد .

ـ درس الأدبَ ، والاقتصاد ، والشؤون العربيةِ والإسلامية .

ـ شارك في أنشطة الأندية الوطنية والثقافية والاجتماعية .

ـ زاول الأعمال الحرَّة ، وأصبح عضوًا في مجالسِ إدارة عدد من المصارفِ وشركاتِ التأمينِ ، وغرفِ التجارةِ والمؤسساتِ المالية .

ـ شغل منصب سفيرِ البحرين في مصر ، ومندوبها الدائم لجامعة الدول العربية عام ٧١ / ١٩٧٤م .

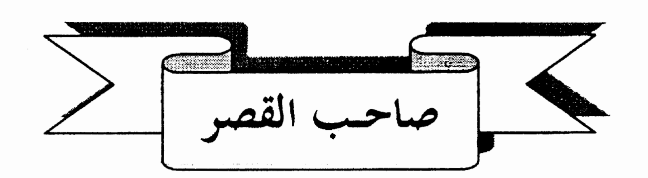
ـ شارك في مؤتمرات ، وندوات ثقافية واجتماعية وأدبية واقتصادية .. محلية وعربية .

ـ كتب مقالاتٍ ودراساتٍ في الشِّعْرِ والأدبِ والاقتصادِ ، والشـؤونِ العربيـةِ والإسلامية ، في صحفِ البحرين والمجلاَّتِ العربية .

ـ أرَّخ سيرة (**نادي العروبةِ**) خلال خمسين عامًا ، ونشرها في كتابٍ صـدر عام ١٩٩٢م .

ـ عضو مجلس الشورى ، ورئيس لجنة الشؤون الخارجية بالمجلس .. منذ عام ١٩٩٣م .

ـ له ديوان شعْرٍ مطبوعٍ باسم (**بنات الشِّعْر ـ أوراق ملونة نثر**) .



صاحب القصر

رُبّ قصرٍ شاده من شيّدا
وابتغاه لمناه مقصدا

رقص الأنس على مسرحه
وانتشى بالكأس حتى عربدا

وعلى العرش استوى من فوقه
آمرًا ، في حكمه منفردا

كم على ساحاته فاتنة
سحبت ذيلاً وأرخت مقودا

وعلى الأيكة في جنّاته
بلبلٌ غنّى ، وطير غرّدا

والجواري حائمات حوله
تحمل البشرى .. إذا مدّ يدا

وحواشي خدم هارعة
نقصت حظاً وفاقت جلدا

والحشايا ملّ منها جنبه
فارتضى خصر الصبايا مِسندا

والتصاوير على جدرانه
رصدٌ قام عليه شاهدا

حدّق الطرف بها مستنطقاً
وتأمّل سرّها مسترشدا

فهـــي تـحكي قصصـــاً لـم يروهـــــا
مـــــن روى سيــرتـــــه أو مـجّـــــدا

أتـــرى حمــــر الليالـــــي نـهلـــــت
مـــن جراحـــات الضحايـــا مـــوردا

أم تـــرى الضجّــــة فـــي أرجائـــــه
هـــي للأنـــات والشكـــوى صـــدى

ظـالــــم يقبـــض كفّيــــه إذا
طالــــب الحــــق أتـــــى مسترفـــدا

مـــرّغ العـــزّة فــــي شهوتــــه
وعلــــى الـمستضعفيــــن إستأســــدا

هام بالدنيـــا ومـــــا أتعـــس مـــــن
حســــب الإنعــــام فيهــــا سرمـــــدا

فمضـى عنهـــــا ولَمّــــا يشتـفـــــي
غلّــــة أو يرتــــوي منهــــا صـــدى

وليالــي الأنـــس صـــارت عبـــرةً
لـمــن استـعـبــر منهـــا واهتـــدى

❁ ❁ ❁

إنَّ مِنْ عناصرِ الشِّعْرِ { شعْرُ الموعظةِ أو الإرشاد } أوْ مَــا يصـــوِّرُ لنـــا قصـــة حياةٍ غفت في ذاكــرة الدهرِ ، أو علـــى أطـــلالٍ تبعـــثر عمدُهـــا وجدرُها ، ولَـــمْ يبقى إلاَّ ظلالٍ باهتةٍ .. أو وصفُ قصرٍ .. لا يـــزالُ طافحًـــا يموجُ بألوانِ النعمِ والمزخرفات ، ويغفـــو على سُررهِ الجمـــالُ فـــي حوَّائـــهِ

الملهمة ، فالشِّعْرُ قَدْ يجيءُ صــوراً متحركـــةً تسمرُ السامــعَ لها ، وتشــدّهُ بمــا فيهــا من مقولــةٍ بإعجــابٍ ، كالصُّــورة الَّتــي فـــي هذيــن البيتيــن للشَّاعر / أحمد شوقي .. نكاد نمسّها باليــد ، ونشهدها بــالعين فــي شعْــرٍ متحــرِّك – كشريط سينمائي يشاهده النُّظار – فذلك هو الشِّعْر : –

ما أنتي يــا دنيــا أرؤيــا نائــمٍ

أم ليــلُ عــرسٍ أم بســاطُ ســلافِ

نـعـمـائــــكِ الـريـحــانُ إلا أنــــهُ

مســـت حواشيـــهِ نقيـــعُ زعــافِ

إنَّ هذه المقولةَ تصورُ الحياةَ في صورةٍ متحرِّكةٍ ، وهــذه التوطئــة كمدخلٍ لقصيدة شاعرنا الأُستاذ / تقي البحارنة .. فقصيدتهُ التصويريــة لحيــاةِ قصرٍ يموجُ بدنيا ألوان السِّحرِ والجمال ، ويرفُّ فيها عــالمُ الزهــرِ والزنبــقِ والعمــارِ ، وتشدو الطُّيور على أغصانِها ، وتغفو الجــواري علــى أســرّتِها النَّاعمة ، هــيَ قصَّــةٌ وفّــق فيهــا الشَّاعــرُ ، ولكن يؤخَــذُ عليـــهِ بعــضُ الهنــاتِ .. حيــث أستعمل في بعضِ مقاطعِها ، ما يشــبهُ خيــال الفقــهاء أو الوعّــاظ .. كقولــهِ (وتأمّــل سرّهــا مسترشــدا) فــالعجــزُ لا يتّــفــقُ مــع الصدر .. ويهبط عَنْهُ ويسفُّ عَنْهُ .

... وكقولهِ : –

أم تــرى الضجّـــة فـــي أرجائــــه

هـــي للأنـــات والشكـــوى صــدى

وهَذا البيت : لَــمْ يحتوِ على صورةٍ شعْريةٍ ، تنسجمُ مــــع مقــاطع القصيدة .

... وبيتٌ آخر : -

ظـالـــــم يـقـبـــــض كفّيـــــه إذا

طالـــب الـحـــق أتـــى مسترفـــدا

وهَذا البيتُ : خَان الشَّاعرُ التعبيرَ ، فالظالم لا يقبض كفَّيــهِ .. إنَّمــا يضربُ بكفٍّ من حديد .

... وهذه النَّقــدات حول هذه القصيــدة آمل أنْ يتسعَ صدرُ الشَّــاعرِ لها ، ويصلحُ مَا فسد مِنْهَا .

خاتمة

بعد انطلاقةٍ للحــرفِ .. الَّذي أدرتهُ على بعض صورٍ مِــنْ أفكــارِ القرن العشرين ، تتمثَّلُ في قصائــدِ عشرين شــاعرٍ ، وليــس هَــذا العــرضُ كالتراجم القديمة الَّتي تشيرُ إلــى التدوينــات ((**أنَّ الــمترجم ولــد في عــامٍ من الأعــوام ، ومات بتاريخِ كــذا**)) فلا تُعطي لمْحَــةً – **ولــو مقتضبةٌ** – عــن ذلــك الشَّاعرِ أوْ الكاتب ، وعن عناصرِ تأثيرِ الشَّاعرِ أو الكاتب ، في عصرهِ الَّــذي لبسهُ وعاشه ، فهــيَ تدويناتٌ لا تصلُ بك إلى الجوهر ، إنَّما تضعُــك علــى السَّطحِ دون العمق ، أمَّا هَذا التدوين فقد عني بالشَّاعرِ وأثرهِ ، فِــيْ دراســةٍ تحليليةٍ لذلك الأثر .. لأنَّهُ يبحث عَنْ دور الشِّعْر ، وتأثيرهُ في الحياة ، ولعلَّنــا متى عرفنا محتويات إنتاج الشَّاعــر ، قرأنا روحــهُ تنســابُ بيــن الأحــرفِ الخضراء ، وتتلألأُ في المعاني الضوئيَّة ، وتفسِّرُ أهدافها الإشاراتِ الَّتي أشــار لها فكر الشَّاعر ، مِنْ وراءِ غلافِ هذه الكلمات .. تموجُ على أفقٍ يتولَّــدُ مِــنْ شاطــئ الخيــال ، أوْ مِنْ ظــلِّ حيــاةٍ واقعيَّــةٍ ، أوْ مِــنْ آلامِ مجتمــعٍ منكوبٍ ، فالأهدافُ الَّتي يُصوِّرُها الشَّاعرُ فكــرةً مجسَّدةً ، تكــادُ تتوثَّبُ حيَّــةً في هذا الأثر الشِّعْري ، فعندما تقرأُها .. تتفاعلُ معها ، وتحسُّ بحقيقــةٍ تمــرُّ وتخطرُ في قَلْبِكَ وبين عينيك ، فيصحّ أنْ تصدق هذه المقولــة : { **بأنَّ الشِّعْر مرآةٌ تصوِّرُ بعض ظلال تِلْكَ الصِّفات** } فالشِّعْــر هُوَ المعبِّر عَنْ الحيــاة ، ولا يزال ولَمْ يزل ، حتَّى يــرثُ الله الأرض ، فهــو الأداةُ التعبيريةِ الَّتي يســتريحُ في أفقِها المحزونُ ، ويبسمُ الكئيبُ ، وهيَ البلسمُ للجريحِ ، ويتنفَّسُ في أجوائــهِ المظلومُ .. فالشِّعرُ مرآةٌ تصوِّرُ كُلَّ عَصْرٍ على طبيعتهِ ، ومَا فيه مِنْ ضــروبِ العيْشِ .. وألوانِ الحياةِ .. وتدليلُنا على ذلك : عندما تقرأُ الجزء الأوَّل مِنْ هَــذا الكتاب .. الَّذي ضمَّ بين دفتيه أربعة عصور ، وانتكاسةِ الفكــر ، عندما تقــرأهُ

ومَا يليـهِ مِنْ أجـزاءٍ .. أسـألُ الله أنْ يوفّقنـي إلـى ذلك ، سـتتضحُ لـك الرُّؤيـة ، وتشـرق فـي دربك مقولتنا عَنْ الشِّـعْرِ ((**هـل لـهُ دورٌ وتأثيرٌ في الحياةِ**)) ، فالشِّعْر ولد مع فطرة الإنسان ، وسَار مع تطورهِ على هذا الكوكب .

وبرغـمِ مَا أحملـهُ من متاعـبٍ ، تمـرُّ بظروفـي الجليديـة القاسيـة ، تتكـدَّسُ صخـرةً كـأداءُ .. تحـولُ بينـي وبيـن الانطلاقـةِ الفكريـة ، والطُّموحات الرُّوحيـة ، وبرغـمِ الرَّوابـط العائليـة والأسـرية والاجتماعيَّـة ، الَّتـي تفـرضُ علـيَّ إعطائِهـا وقتًـا زمنيًـا يُقطـعُ مِـنْ حياتي ، وبرغـمِ العامل الَّذي أُصبتُ بهِ في عيني .. حيـثُ لا تُمكِّنُنـي مِـنْ المتابعـة بنفسي ، فلابُدَّ مِنْ واسطةٍ أُملي عليها ، أوْ تقـرأُ لـي ، ورغـمِ العوامل الاقتصاديَّـة .. الَّتـي هيَ الينبوع لحياتي المعيشية ، وحاجتي لقسـطٍ من الراحةِ ، وفتح صالوني الأدبي على مصراعيهِ للندواتِ الأدبية فـي بيتـي مساء كل يومٍ ، فبرغمِ هـذا وذاك لَمْ تكن هذه العوامل تـلاًّ ركاميًا حاجـزًا عَنْ دراساتـي الفكرية والعلميـة ، فقَدْ أكملتُ أعمالي الأدبية ، حيثُ طُبعـت مِنْهَا خمسةُ دواوين ، وهُـمْ { **النغم الجريح – شيءٌ أسمه الحب – شمسٌ بلا أفق – مدينة الدراري – كانوا على الدرب – خيوطٌ من الشمس في مجلدين سيرة ذاتية** } ، أمَّا الأعمـالُ المخطوطـةُ فهما مجموعتـان شعريتـان تنتظـرانِ نشرهمـا ، وكتـابٌ نثـريٌ (**أضواء من النقد في الأدبِ العربي**) ويلـي الجزء الأوَّل هَذا الجزء الثاني ، الَّـذي تمَّ بفضلِ الله وعونهِ .. إذْ لا حول لنـا ولا قوة إلا بالله .. عليه توكلت وبه استعين .. وأخر دعوانا أن الحمـد لله رب العالمين .

٢١/٠٤/١٤٢٠هـ

٠٣/٠٨/١٩٩٩م

" جدول بأسماء المراجع "

١- مختارات شعرية - شاعر وقصيدة العماد مصطفى طلاس - المجلد الثاني ص ٢٧٦ - ٢١٦ - ٩٣٤ - ١١١٠ - ٦٨٦ - ٧٦٠ - ١١٤٨ .

٢- معجم البابطين - (المجلد الثالث ص ٧٨٦ - ١٤٠) - (المجلد الرابع ص ٥٧٤ - ٥٤٠ - ١٨٠) - (المجلد الخامس ص ٢٢٠ - ١٣٢) .

٣- ديوان أغاني الحياة طباعة دار الفكر العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى .

٤- ديوان بدوي الجبل ص ٣٠٨ - طباعة دار العودة - بيروت - لبنان .

٥- ديوان بنات الشعر ص ٥٢ طباعة المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بالبحرين .

٦- ديوان علي محمود طه - شركة فن الطباعة - بالقاهرة .

٧- ديوان أبو ماضي - دار العودة - بيروت - لبنان .

٨- بلاغة العرب في القرن العشرين - المطبعة الرحمانية - بالقاهرة .

٩- شعراء الغري - الجزء الأول بقلم علي الخاقاني - مطبعة بهمن .

١٠- إيقاع الفكر - الديوان الأول للدكتور الشيخ / أحمد الوائلي - دار الصفوة - بيروت - لبنان .

١١- تاريخ الآداب العربية - المجلد الثاني - مطبعة عز الدين للطباعة والنشر .

١٢- معالم الأدب العربي في العصر الحديث - الجزء الثاني - تأليف / عمر فروخ - طباعة دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .

١٣- من لا يحضره الخطيب - تأليف / داخل السيد حسن - طباعة مؤسسة البلاغ بيروت - لبنان .

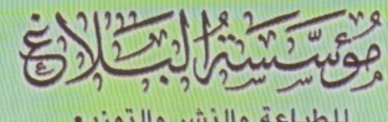
١٤- ديوان عمر أبو ريشة - طباعة مجلة الأديب - بيروت - لبنان .

" آثار المؤلف "

اسم الكتاب	اسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
النغم الجريح	دار مكتبة الحياة - بيروت	١٣٨١هـ - ١٩٦١م	شعر
شيء اسمه الحب	مكتبة الإنجلو المصرية	١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م	شعر
شمس بلا أفق	الدار العالـمية - بيروت	١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م	شعر
مدينة الدراري	مطابـع الرضا - الدمام	١٤١٤هـ - ١٩٩٣م	شعر
كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ - بيروت	١٤١٦هـ - ١٩٩٥م	شعر
خيوط من الشمس " قصة وتاريخ "	مؤسسة البلاغ - بيروت	١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م	مجلدين - نثر
أضواء من النقد في الأدب العربي	مخطوط	***	نثر
أجراس حزينة	مخطوط	***	شعر
تهاويل عبقر	مخطوط	***	شعر
الشِّعر ودوره في الحياة	الجزء الثاني هو ذا ويليهِ جزآن في مجلدٍ واحد	***	نثر


الفهـــرس







المكتب : بئر العبد سنتر الإنماء ١ - ط٣ - المستودع : صفير - جانب فرن الأمراء
ص.ب : ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ - ١١٠٧ - هاتف : ٠١/٥٥٣١١٩ - ٠٢/٥١٤٩٠٥ - لبنان
بريد الكتروني : AL - Balagh - est@maktoob.com